الأستاذ أحمد عبيد
الأنصاري الخزرجي
(١٣١٠ـ١٤٠٩هـ)
(١٨٩٣ـ١٩٨٩م)

الدكتور شاكر الفحام

ينتمي الأستاذ أحمد عبيد، رحمه الله وأسبغ عليه واسع رضوانه، إلى الجيل الذي نشأ في بلاد الشام في مطالع المئة الرابعة عشرة، حين بدأت تباشير اليقظة العربية تشرق بأنوارها، ونسمات الشعور القومي تهبُّ رفيقة هادئة، ويتناشدُ الناس بصوت خافت أمثال: (تنبهوا واستفيقوا أيها العرب)[1].

ويحدثنا الأستاذ أحمد عبيد عما كان لشيخه الطباع[2] الذي أشرف على تعليمه في المدرسة الريحانية[3] من أثار بليغة حبَّبت إليه العروبة والعربية، وفطرته على التعلق بهما تعلقاً ملك عليه نفسه، ووقف لهما حياته، وكرَّهت إليه تلك العجرفةَ التركية التي تصرُّ على تجاهل العربية المبينة، وتلحُّ على فرض اللغة التركية

---

* ألقيت هذه الكلمة في الحفل الذي أقامته وزارة الثقافة في مكتبة الأسد تأبيناً للفقيد أحمد عبيد (في مساء يوم السبت ٨/١٠/١٤٠٩هـ ـ ١٣/٥/١٩٨٩م).

(١) مطلع قصيدة تُنسب إلى ابراهيم اليازجي قالها يحض العرب على النهوض (يقظة العرب/مقدمة نبيه أمين فارس: ١١ـ١٢، ١٤).

(٢) هو الأستاذ محمد خير الطباع (١٨٨٠ـ١٩١١) مؤسس المدرسة الوطنية (التي سُميت بعد ذلك: الكلية العلمية الوطنية). وكان من أهل الأدب والفضل (تاريخ علماء دمشق ١: ٢٦٦ـ٢٦٧).

(٣) المدرسة الريحانية: كانت بجوار المدرسة النورية، إلى غربيّها. وهي من مدارس الحنفية الشهيرة (الدارس في تاريخ المدارس ١: ٥٢٢ـ٥٢٦، منادمة الأطلال: ١٧٢ـ١٧٣).

في أرض العروبة، فهي لا تدرّس إلا بها، وتقسرُ الناسَ على اصطناعها في الحياة العامة والادارة والتعلم والتعليم.

كان أحمد عبيد من هذا الجيل العربي الذي تفتح وعيه القومي، وضاق ذرعاً بما فرضه العثمانيون من عسف وظلم وجهل على البلاد العربية، وتطلع، كما تطلع أبناء جيله، إلى ما كان عليه العرب في ماضيهم من مجد باذخ، وحضارة زاهرة، فاندفع يثقف نفسه، ويبحث عن الكتب العربية التي تلبّي طَلِبته، وتستجيبُ لرغبته، وأصبح صديق الكتاب وأليفه، لا ينفك عن القراءة والمطالعة وتعليق الفوائد.

وظهرت موهبته مبكرة، فإذا هو يقرض الشعر، بل يتفوق على مَنْ سواه، لينال الجائزة في نظم القريض، وهو لا يزال فتىً غضَّ الاهاب في السادسة عشرة من عمره.

وأتاحت له القراءة العريضة، وصحبةُ الكتب أن تتسع آفاقه، وتتعدد قدراته، فإذا هو يشارك في قول الشعر والكتابة، والنقد الأدبي والمسرحي، ثم لا ينسى حظه في التحقيق وإحياء التراث العربي الذي أحبه الحب الجم، فنهض بأعبائه على خير الوجوه، فقد تزود له بمعرفة في اللغة عميقة، واطلاع على التاريخ العربي، وثقافة عامة شاملة تسعفه وتلبيه.

وحين قُدِّر له أن ينهض بتحقيق (تخميس لامية ابن الوردي لابن الملاح) (دمشق ١٣٢٧ هـ ــ ١٩٠٩ م)، وكان في نحو العشرين من عمره، كان قد خطَّ طريقه اللاحب الذي ارتضاه يمضي فيه إلى آخر الشوط في حياته.

لقد نفض يديه من الواقع المرير المؤلم الذي يحيط به ليرى في الحضارة العربية الزاهرة مثله الأعلى الذي يرنو إليه، وفي أيام الشموخ والعزة العربية ما يتطلع إليه فهو يوازن أبداً بين الماضي الكريم والحاضر المتخلف، ليدعو ويستثير الهمم، وليشارك أبناءَ جيله في العمل الدائب للنهوض بالأمة العربية كي تعود سيرتها الأولى.

الأستاذ أحمد عبيد

١٨٩٣-١٩٨٩

وإن الهدف العظيم لتتعدد إليه المسالك، وتتشعب لبلوغه الطرق.

وقد رأى الأستاذ أحمد عبيد أن قدره ومصيره أن يقف نفسه وجهده ووقته لتنمية الوعي القومي، وتحريك المشاعر الوطنية، باحياء تراث الأجداد الأكرمين، والكشف عن ماضي العرب المجيد، وبالاهابة بقومه، وهو الشاعر الكاتب، أن يهبوا لينفضوا عنهم غبار السنين، ويمزّقوا أردية القرون المظلمة كي يشاركوا في صنع التاريخ والحضارة.

وكذلك فعل، فقد اختار المكتبة مثابة له وموئلاً ينهض عن طريقها بما أخذ به نفسه، وشدَّ له حيازيمه. إن حبه لأمته ولغته، وإن تعلقه بالمثل العليا في الحياة، هما الخيط الذي ينظم كل أعماله وتصرفاته، وهما المفتاح الذي يفسر منطلقاته ومآتيه وما قام به طوال حياته.

لِمَ اختار أن يسمي مكتبته المكتبة العربية؟ أليس هذا وفاء واستجابة لنزعة جيله الذي نذر نفسه للعمل القومي؟ ألم يكن شعار الدولة العربية التي قامت في دمشق آنذاك أن تُطلق صفة العروبة على كل منشآتها: فأقامت معهد الحقوق العربي، والمعهد الطبي العربي، ودار الكتب العربية، والمجمع العلمي العربي، والنادي العربي، ومثل ذلك كثير كثير.

وكان رحمه الله جم النشاط، يعمل ليل نهار، لا يفتر ولا يملّ، قد بُسِطت أمام عينيه المكتبةُ العربية بمخطوطاتها ومطبوعاتها، وأسعفته ذاكرة قوية تلبيه وتستجيب له، وذكاءٌ متقد، وبصيرة نفاذة.

إنه ليذكّرني، وأنا أستعرض صفاته ومواهبه وقدراته المتعددة، وعمله وصبرّه بأولئك الوراقين العظام، ذوي الثقافة العريضة الواسعة، الذين أغنوا المكتبة العربية، ورفعوا من شأنها أمثال ابن النديم صاحب الفهرست.

ويكفيني أن أذكر تعليقاته القيّمة على كتاب الأعلام للزركلي ليتراءى لنا أي عالم بين جنبيه! فإذا ضممت إلى ذلك ما زين به الكتب التي تصدى

لتحقيقها من فوائد ونوادر، وما أفصحت به أشعارهُ وكتاباته وتآليفه من ثقافة عميقة محيطة، ونظرات بعيدة، اكتملت لك صورة أحمد عبيد العالم الراوية المحدّث الناقد الورّاق.

ولقد كان رحمه الله، متواضعاً كل التواضع، يبتعد عن الشهرة وينزوي بعيداً عن الأنوار والضجيج. وإذا قُدّر لك أن تتصفح كتاباً قرأه أدهشك ما علق به على حواشيه من تصحيحات وفوائد ومراجع، يمسكها لا ينشرها، إنه سعيد أن يقدمها إلى صاحب الكتاب فحسب، ولكنه لا تنزع به نفسه إلى ما وراء ذلك.

كان يرى في السلف الصالح مَثَلَه وقُدوته، فكان يتجمَّل بأخلاقهم، ويتحلى بمناقبهم من النزاهة والصدق والأمانة وأمثالها من الشيم الحميدة، يعرف ذلك له كلُّ من كان له صلة به، أو تعلّق منه بسبب. ولا أريد أن أعدِّدُ محامده، وأشيد بصفاته. بل يكفيني أن أقص حادثة جرت معي في عام ١٩٤٤م، ما زالت الذاكرة تختزنها حتى يومنا هذا.

كنت أبحث عن كتاب (بغية الوعاة للسيوطي) في مكتبات دمشق القائمة في حي الصالحية، فلم أظفر ببغيتي، ونصح لي ناصح منهم أن أذهب إلى المكتبة العربية في سوق الحميدية لأجد طلبتي. كانت تلك أول زيارة لي للمكتبة. وواجهني في مدخلها رجال تلوح عليهم سيما العلم، قد تحلقوا يتحدثون ويتناقلون أخبار الكتب والمجلات، ويتبادلون ما يعرفون من أنباء إخوانهم وأصدقائهم العلماء والكتاب والشعراء. وقفتُ هنيهة استمتع بأحاديثهم العذاب، ثم طلبت ما جئت من أجله. وفي أقل من القليل جاؤوني بالكتاب، فأمسكه الأستاذ أحمد عبيد رحمه الله بيده، ونظر في صفحة الغلاف الداخلية قبل أن يقدمه إلي، ثم فتح الكتاب على صفحة محددة ليقول لي: إن في الكتاب عيباً فقد تمزق طرف هذه الورقة فيه.

أخذتُ الكتاب تتملكني الدهشة لهذه الأمانة والدقة. وسألتُ:

أيمكنني الحصول على نسخة أخرى سالمة. وأجابني بهدوء العالم الواثق: إنها النسخة الوحيدة الباقية في المكتبة، ولن تجد الكتاب في مكتبة أخرى، فالطبعة نادرة.

وظلت هذه المقابلة الأُولى بما تحمل من معانٍ راسخةً في نفسي. فأنا لم أقابل بائع كتب كما عهدتُ من قبل، ولكني قابلتُ عالماً تُعقد المجالسُ العلمية في مكتبته، ويقصده العلماء الوافدون من كل صقع، يسألونه ويفيدون من علمه ومعرفته. ثم هو من ذلك الجيل الكريم الذي لا يهمه الكسب أنّى أتى، بل شعاره الكسب الحلال والأمانة والنزاهة في المعاملة.

ما زلت أذكر مجالسه حين كنتُ أزوره في بيته في أواخر أيامه، بعد أن اضطره المرض إلى الاعتكاف، فإذا هو كالعهد به دائماً، حيُّ الذاكرة، يحدثني حديث الكتب، وما قرأ في أيامه الماضية، وما علّق به، ويستشهد على ما يذهب إليه من رأي بشواهد تنثال عليه دون تمهل، وتسعفه الذاكرة بما يريد من المخطوطات والمطبوعات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن الأستاذ أحمد عبيد واحد من أولئك النفر القلائل الذين بقوا بين ظهرانينا يمثلون هذا الجيل المعطاء الذي تحدثت عنه. لقد تفرقت بأبناء ذلك الجيل العظيم السبلُ في خدمة وطنهم، والذود عن أرضهم، ولكنهم ظلوا جميعاً مخلصين لأمتهم وبلدهم، لم يبدّلوا ولم يغيّروا، ولم يهنوا ولم يجزعوا حتى وافاهم الأجل صابرين مصابرين، فجزاهم الله عن أمتهم وبلدهم خير الجزاء وأزكاه.

مسألة سبحان

صَنعة

أبي عبد الله إبراهيم بن محمّد بن عَرَفة النّحوي، نِفْطَوَيْه
(٢٤٤ ـ ٣٢٣ هـ)

تح. ياسين محمّد السوّاس

المؤلف

هو إبراهيم بن محمّد بن عَرَفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلَّب بن أبي صُفْرة، أبو عبد الله العَتَكيّ الأزدي الواسِطيّ، المشهور بنِفْطَوَيْه[1]، النّحويّ[2].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) قال ابن خلكان: نِفْطَوَيه، بكسر النون وفتحها، والكسر أفصح، والفاء ساكنة.

(٢) ترجمته في طبقات النحويين واللغويين للزُّبيدي ١٥/٧٥، فهرست ابن النديم (ط. إيران) ٩٠، تاريخ بغداد ٦/١٥٩ ـ ١٦٢، نزهة الألباء ١٧٨ ـ ١٨٠، المنتظم ٦/٢٧٧ ـ ٢٧٨، معجم الأدباء ١/٢٥٤ ـ ٢٧٢، الكامل لابن الأثير ٨/٣١٣، إنباه الرواة ١/١٧٦ ـ ١٨٢، وفيات الأعيان ١/٤٧ ـ ٤٩، المختصر في أخبار البشر ٢/٨٨، سير أعلام النبلاء ١٥/٧٥ ـ ٧٧، العبر ٢/١٩٨، ميزان الاعتدال ١/٣، الوافي بالوفيات ٦/١٢٩ ـ ١٣٣، مرآة الجنان ٢/٢٨٧، البداية والنهاية ١١/١٨٣، لسان الميزان ١/١٠٩ ـ ١١٠، غاية النهاية في طبقات القراء ١/٢٥، النجوم الزاهرة ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠، بغية الوعاة ١٨٧ ـ ١٨٨، شذرات الذهب ٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩، هدية العارفين ١/٥، أعيان الشيعة ٥/٧٠٩ ـ ٧٢٠، معجم المؤلفين ١/١٠٢، الأعلام ١/٦١، بروكلمان ٢/٢٢٠، دراسات تاريخية لأكرم العمري (٨١ ـ ١١٥).

قال الثعالبي[٣]: لُقِّب «نِفْطَوَيْه» لدمامته وأُدْمَتِه تشبيهاً له بالنِّفط، وهذا اللقب على مثال «سِيبَوَيْه»؛ لأنه كان ينسب في النحو إليه، ويجري في طريقته، ويدرس كتابه.

ولد نِفْطَوَيْه بواسط (بين البصرة والكوفة) سنة أربع وأربعين ومائتين، وسكن بغداد إلى حين وفاته.

أخذ العربية عن المبرّد وثعلب ومحمد بن الجَهْم، وخلط نحو الكوفيين بنحو البصريين؛ وتفقّه على مذهب داوود الظاهري، ورأس فيه[٤].

حدَّث عن إسحاق بن وَهْب العلّاف، وخلف بن محمد كردوس، ومحمد بن عبد الملك الدَّقيقي الواسطيين، وشعيب بن أيوب الصَّرِيفيني، وعبّاس بن محمد الدّوري، وعبد الله بن محمد بن شاكر، وأحمد بن عبد الجبّار العُطارِدي، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي، وغيرهم[٥].

وقرأ على محمد بن عمرو بن عون الواسطي، وأحمد بن إبراهيم بن الهيثم البلخي؛ وأخذ الحروف عن شعيب بن أيوب الصَّرِيفيني صاحب يحيى بن آدم، وقيل: عرض عليه؛ وعن محمد بن الجهم[٦].

حدَّث عنه: المعافَى بن زكريا، وأبو بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان، وأبو عمر بن حَيّويه، وأبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، وأبو طاهر بن أبي هاشم المقرئ، وأبو عبيد الله المرزباني، وأبو الفرج الأصبهاني، وآخرون[٧].

---

(٣) اللطائف ٤٨، وانظر معجم الأدباء ١/٢٥٥، ووفيات الأعيان ١/٤٩.

(٤) إنباه الرواة ١/١٧٩.

(٥) تاريخ بغداد ٦/١٥٩، معجم الأدباء ١/٢٥٦، سير أعلام النبلاء ١٥/٧٥.

(٦) طبقات القراء ١/٢٥، ومعرفة القراء الكبار ١/٢٧٣.

(٧) تاريخ بغداد ٦/١٥٩، معجم الأدباء ١/٢٥٦، سير أعلام النبلاء ١٥/٧٥، معرفة القراء الكبار ١/٢٧٣.

وقرأ عليه: محمد بن أحمد الشَّنَبُوذي، وعلي بن سعيد القَزَّاز ابن ذؤابة، وأحمد بن نصر الشَّذَائي، وعبد الواحد بن أبي هاشم، وعمر بن إبراهيم الكَتَّاني[٨].

مكانتـه وأخبـاره

قال الزُّبيدي[٩]: «وكان نِفْطَوَيْه أديباً مفتناً في الأدب، حافظاً لنقائض جرير والفرزدق، وشعر ذي الرُّمَّة، وغيرهم من الشعراء، وكان يروي الحديث، وكان ضيّقاً في النحو...».

وقال القفطي[١٠]: كان ــ رحمه الله ــ متفنناً[١١] في العلوم، ينكر الاشتقاق في كلام العرب ويُحيله[١٢]، وله في ذلك مصنَّف.

وذكره المرزباني في المقتبس[١٣] فقال: كان من طهارة الأخلاق، وحسن المجالسة، والصِّدق فيما يرويه على حالٍ ما شاهدت عليها أحداً ممن لقيناه. وكان يقول: جلست إلى هذه الأسطوانة منذ خمسين سنة، يعني محلته بجامع المدينة. وكان حسن الحفظ للقرآن، أوّل ما يبتدئ به في مجلسه بمسجد الأنباريين بالغَدَوات، إلى أن يُقرئ القرآن على قراءة عاصم، ثم الكتب بعده.

وكان فقيهاً، عالماً بمذهب داوود الأصبهاني، رأساً فيه، يسلّم له ذلك جميع أصحابه. وكان مسنداً في الحديث من أهل طبقته، ثقة، صدوقاً، لا يتعلّق عليه شيء من سائر ما رووه. وكان حسن المجالسة للخلفاء والوزراء،

---

(٨) طبقات القراء ١/٢٥.

(٩) طبقات النحويين واللغويين ص١١٢، وانظر إنباه الرواة ١/١٧٨.

(١٠) إنباه الرواة ١/١٧٨، وانظر الوافي بالوفيات ٦/١٣٠.

(١١) عند القفطي: «متقناً في العلوم»، وصححت من «الوافي» للصفدي.

(١٢) أي يرى إبطاله وفساده.

(١٣) معجم الأدباء ١/٢٥٦ ــ ٢٥٧، وأعيان الشيعة ٢/٢٢١، ولم يرد النص في «نور القبس المختصر من المقتبس» (٣٤٤ ــ ٣٤٥)، وإنما أورد نتفاً من أشعار ابن عرفة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

متقن الحفظ للسيرة، وأيام الناس، وتواريخ الزمان، ووفاة العلماء، وكانت له مروءة وفتوّة وظرْف.

كان بينه وبين محمد بن داوود الظاهريّ مودّة أكيدة، فلما مات ابن داوود حزن عليه، وانقطع لا يظهر للناس، ثم ظهر، فقيل له في ذلك، فقال: إن ابن داوود قال لي يوماً: أقلُّ ما يجب على الصَّديق أن يحزن على صديقه سنة كاملة، عملاً بقول لَبيد[١٤]:

إلى الحَوْلِ ثم اَسْمُ السَّلامِ عليكما ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتَذَرْ

فحزنّا عليه سنةً كما شرط[١٥].

وكان بينه وبين ابن دُريد صاحب كتاب الاشتقاق منافرةٌ، فقال فيه لمّا صنّف كتاب الجمهرة[١٦]:

إبْنُ دُرَيْدٍ بَقَرَةْ ... وفيه لُؤْمٌ وَشَرَهْ
قد ادَّعَى بجهلِهِ ... جَمْعَ كتابِ الجَمْهَرَةْ
وَهْوَ كتابُ العَيْنِ إلّا أنَّه قد غَيَّرَهْ

فبلغ ذلك ابنَ دُريد فقال يجيبه[١٧]:

لو أُنزِلَ الوَحْيُ على نِفْطَوَيْهِ ... لكان ذاك الوحي سُخطاً عليه
وشاعرٍ يُدْعى بنصفِ اَسْمِهِ ... مستأهِلٌ للصَّفْعِ في أخْدَعَيْه
أحْرَقَهُ اللّهُ بِنِصْفِ اَسْمِهِ ... وصَيَّرَ الباقي صُرَاخاً عَلَيْه

وذكر الفِرْغانيّ[١٧] أنَّ نِفْطَوَيْه كان يقول بقول الحنابلة: إن الاسم

---

(١٤) ديوانه ٢١٤.
(١٥) معجم الأدباء ١/٢٥٩، بغية الوعاة ١/٤٢٩.
(١٦) معجم الأدباء ١/٢٦٤، والمزهر للسيوطي ١/٩٣، وبغية الوعاة ١/٤٢٩.
(١٧) معجم الأدباء ١/٢٧٠.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

هو المُسَمّى، وجرت بينه وبين الزّجّاج مناظرة، أنكر الزّجّاج عليه موافقته الحنابلة على ذلك.

مؤلفاته

أشارت المصادر إلى أنه صنف عدداً من الكتب في اللغة والقراءة والنحو والتاريخ وغير ذلك، مما يدل على علمه وتنوّع مشاركته. ولم يصل إلينا من تلك الكتب غير رسالته هذه التي نقدّم لها، فلعل الأيام تكشف لنا عن مخطوطات أخرى له. ومن تآليفه التي ذكر أكثرها ياقوت في «معجم الأدباء» نقلاً عن ابن النديم في فهرسته(١٨):

١ ــ كتاب التاريخ.
٢ ــ كتاب الاقتصارات.
٣ ــ كتاب البارع(١٩).
٤ ــ كتاب غريب القرآن(٢٠).
٥ ــ كتاب المقنع في النحو.
٦ ــ كتاب الاستثناء والشرط في القراءة.
٧ ــ كتاب الوزراء.
٨ ــ كتاب الملح.
٩ ــ كتاب الأمثال.
١٠ ــ كتاب الشهادات (وذكره في النص المحقق).
١١ ــ كتاب المصادر.
١٢ ــ كتاب القوافي.
١٣ ــ كتاب أمثال القرآن.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٨) انظر الفهرست ص٩٠ (ط. إيران) وص١٢٧ (ط. القاهرة)، ومعجم الأدباء ١/٢٧١.

(١٩) لم يذكر كتاب «البارع» و«الوزراء» و«أمثال القرآن» في نسخة الفهرست المطبوعة في إيران والقاهرة، وذكرها ياقوت نقلاً عن ابن النديم.

(٢٠) وصفه البغدادي في تاريخه بأنه كبير.

١٤ ــ كتاب الرّدّ على من يزعم أن العرب يُشتقُّ كلامها بعضه من بعض.

١٥ ــ كتاب الرّدّ على من قال بخلق القرآن.

١٦ ــ كتاب الرّدّ على المفضّل بن سلمة في نقضه الخليل.

١٧ ــ كتاب في أن العرب تتكلّم طبعاً لا تعلُّماً.

١٨ ــ أمّا رسالته المعنية «مسألة سبحان» فقد انفرد بذكرها ابن الأنباري في «نزهة الألباء»(٢١) وذكرها بروكلمان في تاريخه ٢/٢٢٠.

شعره

ذكر القفطيّ(٢٢) نقلاً عن المرزباني أنه كان يقول من الشعر المقطعات في الغزل، وما جرى مجرى ذلك، كما يقول المتأدّبون، فمن ذلك قوله:

غُنْجُ الفُتُورِ يدورُ في لحظاتِـهِ ... والوردُ غضُّ النَّبْتِ في وَجَناتِـهِ
وَيُكِلُّ ألسِنةَ الورَى عن وَصْفِـهِ ... أو أنْ تروم بلوغَ بعضِ صفاتِـهِ
لا يعـرِفُ الإسعافَ إلّا خطـرَةً ... لكِنَّ طُولَ الصَّدِّ مِنْ عَزَمَاتِـهِ
لا يستطيـعُ «نَعَـمْ» ولا يعتادُهـا ... بل لا تسوغ «لعلَّ» في لَهَواتِـهِ

وله في العفّـة(٢٣):

كم قد خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى فيمنَعُني ... منه الحياءُ وخوفُ اللّـهِ والحَـذَرُ
كم قد خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى فيُقْنِعُني ... منه الفكاهةُ والتَّحديثُ والنَّـظَرُ
أَهْوَى المِلاحَ وأَهْوَى أن أجالِسَهُم ... وليس لي فـي سِواهُ منهُـمُ وَطَـرُ
كذلك الحبُّ لا إتيانُ مَعْصِيةٍ ... لا خيرَ في لَـذَّةٍ من بعدها سَقَـرُ

(٢١) ص٣٢٦.

(٢٢) إنباه الرواة ١/١٨٢، ومعجم الأدباء ١/٢٦٠.

(٢٣) تاريخ بغداد ٦/١٦١، معجم الأدباء ١/٢٦٥، إنباه الرواة ١/١٧٧.

ومما استحسنه الزَّجَّاج وكتبه بخطه على ظهر كتاب «غريب الحديث» ــ وكان بحضره ــ قولُه[٢٤]:

تواصُلُنا على الأيَّام باقٍ … ولكن هَجْرُنا مَطَرُ الرَّبيعِ
يَرُوعُكَ صوتُه لكن تَراهُ … على رَوعاتِهِ داني النُّزُوعِ
كذا العُشَّاقُ هجرُهُمُ دَلَالٌ … ومَرْجِعُ وصلِهِمْ حُسْنُ الرُّجوعِ
معاذَ اللَّهِ أن نُلْقَى غِضاباً … سِوَى ذاك المطاعِ على المُطيعِ

وفاته

ذَكَر ياقوت في «معجم الأدباء»[٢٥] نقلاً عن المرزباني في «المقتبس»[٢٦]، قال: مات ــ رحمه الله ــ يوم الأربعاء، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل، سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وحضرت جنازته عشاءً، ودفن في مقابر باب الكوفة، وصلّى عليه البَرْبَهاري.

وفي «نزهة الألباء»[٢٧]: توفي يوم الأربعاء، لست خلون من صفر، سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، في خلافة الراضي، ودفن يوم الخميس بمقابر باب الكوفة، وصلّى عليه البَرْبَهاري، رئيس الحنابلة، أبو محمد، فيما ذكر أحمد بن كامل القاضي. ويروى عن منصور بن ملاعب الصيرفي، قال: أنشدني إبراهيم نِفْطَوَيْه[٢٨]:

إنَّ الشَّقِيَّ لَمَنْ لم يَرْحَمِ اللَّهُ … أستغفِرُ اللَّهَ مِمَّا يعلَمُ اللَّهُ
وا سَوْءَتا من حيائي يَوْمَ ألقاهُ … هَبْهُ تجاوَزَ لي عَنْ كُلِّ مَظْلَمَةٍ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢٤) معجم الأدباء ١/٢٦٩، ولعله أراد كتاب «غريب الحديث» لابن قتيبة، وهو الأشهر.
(٢٥) ١/٢٥٦.
(٢٦) لم يرد في «نور القبس المختصر من المقتبس» ٣٤٤ــ٣٤٥.
(٢٧) ص٣٢٩.
(٢٨) نزهة الألباء ٣٢٩، تاريخ بغداد ٦/١٦١، معجم الأدباء ١/٢٦٦، إنباه الرواة ١/١٧٧.

الرسالة

ضمت مجاميع دار الكتب الظاهرية بدمشق عدداً من الرسائل النادرة، ومن بينها هذه الرسالة التي أقدمها اليوم. وهي في المجموع رقم (٧٩)، وتقع في ثماني ورقات، من (١١٩ ــ ١٢٧ ق)، قياسها ١٧ × ١٣ سم، ومسطرتها (١٧) سطراً. كتبت بخط نسخ قديم، أصابتها الرطوبة، وأساء ذلك إليها إساءة بالغة. والرسالة مما وُقف على المدرسة الضيائية في سفح جبل قاسيون بدمشق. وعليها سماعات عدة، منها سماع لصاحبها الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن علي السمين، على ابن ناصر السَّلامي، ونقله من خطه عبيد الله بن أحمد بن علي السمين سنة خمس وأربعين وخمسمائة.

والنسخة مروية بالسند، رواها أبو الحسن محمّد بن عبد الواحد بن محمد ابن جعفر (؟)، عن أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان (ت ٣٨٣ هـ)، عن ابن عرفة.

رواية الشيخ أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الصَّيرفي (ت ٥٠٠ هـ).

رواية الشيخ الإمام العالم الحافظ الثقة ناصر السنة أبي الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي السَّلامي (ت ٥٥٠ هـ).

ذكر العنوان على غلاف الرسالة، وفي السماعات، والمقدمة، كما ورد عند ابن الأنباري في «نزهة الألباء» (ص ٣٢٦) أثناء ترجمة المؤلف، ولا خلاف فيه.

وسبب التأليف حدثنا به المصنف ــ رحمه الله ــ في المقدمة، فقال: نُمي إليَّ خبر مجلسٍ اجتمع فيه جماعة من المتفقهة والقرّاء وحملة العلم، فتذاكروا معنى قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ سبحان اللّهِ ﴾، وخاضوا في ذلك خوضاً لم يبلغوا فيه النهاية التي تشفي صدر السَّامع، وتلحق بالمتبوع التابع. ثم يقول: وأنا أُبيِّن من ذلك ما فيه مقنع، وأستعين بالله.

وراح بعدها يستقصي مواضع ورود الآية في القرآن الكريم، ويعرض لمعانيها المختلفة بشيء من الإيجاز.

عملي في الرسالة

جهدت في أن أحل غوامض الكلم في نسخة سقيمة، وأرجو أن أكون قد وفّقت إلى ذلك. واستعنت لهذا بكتب التفسير واللغة والنحو وغيرها. وأثبت في الحواشي بعض التعليقات قصد الإيضاح، أو التفصيل أحياناً. ترجمت للمؤلف ترجمة موسعة قليلاً، على صغر الرسالة، إذ قصدت بذلك التعريف به، فهو مع شهرته وكثرة مصنفاته، لا نكاد نتعرف على مكانته العلمية؛ لفقد كتبه.

والله من وراء القصد، والحمد لله ربّ العالمين.

●

عاشية اسعد ١١١٩

كتاب فيه مسألة سبحان

صنعة أبي عبد الله ابرهيم بن محمد بن عرفة النحوي

رواية أبي الحسين محمد بن عبد الواحد بن محمد بن

عن أبي بكر احمد بن ابرهيم بن شاذان عن ابن عرفة

رواية الشيخ أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار بن احمد الصيرفي رحمه الله

رواية الشيخ الامام العالم الحافظ ناصر السنة أبي الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي السلامي عفا الله عنه

وجه الورقة الأولى

ظهر الورقة الأولى

المجموع التاسع … وأنا أبين ذلك
ما فيه مقنع واستعين بالله فأول
ذلك قوله للملائكة حين سألهم الله عز وجل عن
الأسماء أنبئوني … انه قد طوق من طبقة من هو
أعلم منهم بتعليمه إياه فقال تبارك وتعالى أنبئوني
بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فقد علم الله تبارك وتعالى
أنه لا علم لهم بذلك وإنما أراد التقرير وأنه قد
علم ذلك إذ … صلى الله عليه … قالوا سبحانك
لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم
أي تنزيهاً لك أن يكون في خلقك من يعلم
إلا ما علمته … ثم علمته إياه أو أن يعلم
… الأبعاد … معنى التنزيه
والتعظيم والنكير والإبعاد معنى قوله سبحان الله
عما يصفون كأن تبعيد ذلك من صفات الله عز وجل
ونزه الله عنه وقول القائل سبحان الله عز وجل

وجه الورقة الثانية

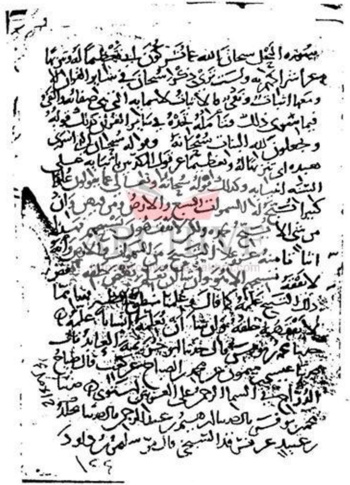

وجه الورقة ١٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان[1]، قراءةً عليه، وكتبته من أصله، قال: قُرِئَ على أبي عبد اللّه إبراهيم بن محمّد بن عَرَفَة في شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة، وأنا حاضر أسمع، قال:

الحمد للّه الموفّق لطاعته وأداء أمانته، والإيمان بوحيه وآياته، وتصديق أنبيائه وأنبائه= مَن سَبَقَتْ له في علمه الرَّحمة، مِنَّةً منه وفضلاً. له الحمدُ في الأُولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون. وصلّى اللّه على محمّد خاتمِ النَّبيِّين وهادي المهتدين، وخيرة رب العالمين.

نَـمَـى إليَّ خبر مَـجْلِسٍ اجتمَـعَ فيه جماعة من المتفقِّهة والقرّاء وحَمَلة العلم، فتذاكروا معنى قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ سُبْحانَ اللّهِ ﴾، وخاضوا في
١٢١/أ ذلك خَوْضاً لم يبلغوا فيه النِّهايةَ التي تَشْفِي صدر السّامع، وتُلْحِقُ/ بالمتبوع التابع. وأنا أُبيِّن من ذلك ما فيه مقنع، وأستعين باللّه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

●

فأوَّلُ ذلك قولُه للملائكة حين سألهم اللّهُ عزَّ وجلَّ عن الأسماء؛ ليُرِيَهم أنَّه قد خلَق مِن خَلْقه مَنْ هو أعلمُ منهم بتعليمه إيّاه، فقال تبارك وتعالى:

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن شاذان، أبو بكر البزاز. محدّث بغداد في عصره، مولده ووفاته فيها. له «مسلسلات في الحديث»، توفي سنة ٣٨٣هـ (ترجم في المنتظم ١٧٢/٧، تاريخ بغداد ١٨/٤، شذرات الذهب ١٠٤/٣).

﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢)، فقد عِلمَ اللّه عزَّ وجلَّ أنّه لا عِلْمَ لهم بذلك، وإنّما أراهم العَجْزَ، وأنّه قد علَّمَ ذلك آدَمَ صلى اللّه عليه، فقالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(٣)؛ أي تنزيهاً لك أن يكون في خَلقِكَ مَنْ يعلَمُ إلّا ما علِمتَهُ قَبْلَه، ثمّ علَّمتَه إيّاه، أو أنْ يَعْلَمَ كَوْنَ مُحْدَثٍ إلّا بإعلامك إيّاه.

ومعنى «سبحان»: التنزيهُ، والتعظيمُ، والتكبيرُ، والإبعادُ. فمعنى قوله: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٤)، أي بعيدٌ ذلك من صفات اللّه عزَّ وجلَّ، وتنزيها للّه عنه.

١٢١/ب وقول القائل: سبحان اللّهِ عن هذا/، أي برأْته من هذا براءةً، ونزَّهْتُه تنزيهاً. ثم جُعِلَتْ «سبحان» مكان ذلك، فهي منصوبة على المصدر(٥).

فأمّا قولُ الأعشى(٦):

---

(٢) سورة البقرة الآية ٣١.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٢.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٩١، وسورة الصافات الآية ١٥٩.

(٥) قال مكي في إعراب سبحانك: منصوب على المصدر. والتسبيح: التبرئة للّه تعالى من السُّوء، فهو يؤدّي عن [معنى]: نسبّحك تسبيحاً، أي ننزّهك عن السّوء تنزيهاً، ونبرّئك منه تبرئة. (مشكل إعراب القرآن ١/٣٥ و ١٧٢).

وقال القرطبي في التفسير (١٠/٢٠٤): «سبحان: اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأنّ في آخره زائدتين، تقول: سبّحْت تسبيحاً وسبحاناً، مثل كفّرت اليمين تكفيراً وكفراناً. ومعناه التنزيه والبراءة للّه عزّ وجلّ من كُلّ نقص، فهو ذكرٌ عظيم للّه تعالى لا يصلح لغيره. فأما قول الشاعر: أقول لما جاءني ...، فإنما ذكره على طريق النادر».

(٦) ديوانه ١٠٦، الكتاب ١/١٦٣، الخصائص ٢/١٩٧، الخزانة ٢/٤١، مجاز القرآن ١/٣٦، معاني القرآن للزجاج ١/٧٨، تفسير القرطبي ١/٢٣٦، الجمهرة ١/٢٢٢، المقاييس ٣/١٢٥، الأساس واللسان والتاج (سبح).

يقول لعلقمة بن عُلَاثَة العامري في منافرته لعامر بن الطفيل، وكان الأعشى قد فضل عامراً عليه ونفّره. وعلقمة بن عُلَاثَة صحابي، من بني عامر بن صعصعة، من أشراف قومه، قدم على ←

أَقُولُ لمَّـا جَـاءَنِي فَخْـرُهُ   سُبْحَانَ مِـنْ عَلْقَمَـةَ الفاخِـرِ

فنصب «سبحان» غير منوَّن؛ لأنَّه نوى الإضافة، فالمعنى: تنزيهاً للفخر من أن يكون عَـلْقَـمَـةُ مِن أهله(٧).

وأمَّا قوله: ﴿ وَنَحْـنُ نُسَبِّـحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ ﴾(٨)؛ فقولهم: «نُسَبِّحُ»، أي ننزِّهُكَ ونُباعد عنكَ ماوُصِفْتَ به من خلافِ صفاتك.

وقوله: «بحمدك»، أي برضاك، ورضانا بذلك. والتَّقْديس: التطهير، وبهذا سُمِّي بيتُ المَقْدِس، أي بيتُ الطَّهارة. وبهذا سُمِّي جبريلُ عليه السَّلام: روح القُدُس، أي روح الطهارة. قال حسّان بن ثابت(٩):

أَمِيناهُ رُوحُ القُدس جبريلُ مِنهُـمُ   وميكالُ ذو الوَحْيِ القَوِيُّ المُسَدَّدُ

وأمَّا قوله: ﴿ قَالُوا اتَّخَـذَ اللَّـهُ وَلَداً سُبْحَانَـهُ ﴾(١٠)، أي تنزيهاً له عن ذلك.

وقوله: ﴿ كُـلٌّ لَـهُ قَانِتُـونَ ﴾(١١)؛ القُنوتُ: الطَّاعة؛ فالمعنى: تنزيهاً

١٢٢/أ له أن يكون/ من خَلْقِه إلَّا مملُوكـاً له، ليس فيهم وَلَـدٌ؛ ألا تسمع إلى قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَـدٌ. اللَّـهُ الصَّـمَـدُ. لَـمْ يَلِـدْ وَلَـمْ يُولَـدْ. وَلَـمْ يَكُـن لَّـهُ كُفُواً أَحَـدٌ ﴾(١٢).

ARCHIVE

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ، فأسلم وبايع، وروى حديثاً واحداً. واستعمله عمر ابن الخطاب على حوران فمات بها. انظر ترجمته وخبره مع الأعشى في الأغاني ١٢٠/٩ (طبعة الدار)، والخزانة ٤٢/٢.

(٧) ومعناه في اللسان (سبح): العَجَبُ منه إذ يفخر. وفي معاني القرآن للزجاج: البراءة منه ومن فخره.

(٨) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٩) لم يرد البيت في ديوانه بشرح البرقوقي، ولا في ديوانه بتحقيق الدكتور وليد عرفات.

(١٠) سورة البقرة الآية ١١٦، وسورة يونس الآية ٦٨.

(١١) سورة البقرة الآية ١١٦.

(١٢) سورة الإخلاص الآيات ١ ـــ ٤.

فالصَّمَدُ: الذي يُصْمَدُ إليه في الأمور، لا نهايةَ بعدَهُ، وهذا كلام العرب. قال أوس بن حجر[١٣]:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بني أَسَدْ بِعَمْرِو بنِ مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

فهذا كلامُ العرب. وقد قيل: الصَّمَدُ: الذي لا يَطْعَمُ. فهذه السُّورةُ صفةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، أثبت لنفسه التوحيدَ، وأنَّه بخلاف خلقِهِ؛ كُلُّ والدٍ ومَوْلُودٌ، وفيهم الأكفاء، أي النُّظراء، وكلُّ ذلك غيرُ لائقٍ بصفاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. قال الفرزدقُ[١٤]:

هُمُ أَنْكَحُوا قَبْلي لَبِيداً وأَنْكَحُوا ضِراراً وَهُم أكفاؤنا في المَناصِبِ

وقوله في سورة آل عمران: ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[١٥]، أي تنزيهاً لكَ عمَّن زعم أنَّ خالقاً سواك، فقِنا عذابَ النَّار إيماناً بذلك وتصديقاً؛ إذ كان من لم يُصَدِّق ويسبِّح من أهل النَّار، فنحن نسبِّحُ ونُصَدِّقُ، فَقِنَا ما تلوم غيرنا.

ARCHIVE

وقوله: ﴿ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾[١٥] نحو قوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ

---

(١٣) لم يرد في ديوانه بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم. والبيت لِسَبْرَة بن عمرو الأسدي، كما في المشوف المعلم ج١ ص٤٣٤ وتهذيب الألفاظ ٢٧٠، والسمط ٩٣٢، ومجاز القرآن ٣١٦/٢، واللسان (خير). ونسب في سيرة ابن هشام ٥٧٢/١ إلى هند بنت مَعْبد بن نضلة تبكي عمرو بن مسعود، وخالد بن نَضْلَة، عَمَّيْها الأسديّين، وهما اللذان قتل النُّعمان بن المنذر اللخمي. والبيت في تفسير القرطبي ٢٤٥/٢٠ واللسان (صمد) بلا نسبة.

ويروى «بخير بني أسد» على الإفراد؛ وقد رجحها ابن السيرافي في «شرح أبيات إصلاح المنطق» (٤٢/ب)، وهو تحت الطبع في مؤسسة الرسالة بتحقيقي، وابن بري في اللسان (خير)؛ لأنّ «أفْعَلَ» لا يُثنّى ولا يُجمع.

(١٤) ديوانه بتحقيق الصاوي (١١٣/١) من قصيدة يهجو بها جريراً، وروايته فيه:

هُمُ زَوَّجُوا قبلي ضراراً وأَنْكَحُوا لَقِيطاً وَهُم أكفاؤنا في المَناسِبِ

والبيت في الأغاني ٨٦/٨ (ط. الثقافة)، برواية:

هُمُ زَوَّجوا قبلي لقيطاً وأَنْكَحوا ضراراً وهم أكفاؤنا في المناسبِ

(١٥) سورة آل عمران الآية ١٩١.

أنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾(١٦) ، أي(١٧) : ما خلقتُ ذلك إلَّا لآمر وأنهى وأثيب وأعاقب .

وقوله في سورة النساء : ﴿ سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ/ لَهُ وَلَدٌ ﴾(١٨) ، ١٢٢/ب
أي تنزيهاً له عن ذلك .

ونحو من قوله سبحان الله : « الله أكبرُ » ، أي هو أعظم من كُلِّ عظيمٍ .

وكذلك معنى « سبحان » : أي كُلُّ صفة دونَ صفاته ، وبعيدٌ منه ، غير ما وصفَ به نفسَهُ .

وأمَّا قول عيسى عليه السلام : ﴿ سُبْحَانَكَ ما يكُونُ لِي أنْ أقُولَ ما ليس لي بِحَقٍّ ﴾(١٩) ، أي سبحانك عمَّا قاله هؤلاء ، حين قالوا : إنَّ عيسى – صلى الله عليه – إلاهٌ ، وأنَّه وَلَدٌ . ثم قال : ﴿ إن كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنَّكَ أنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾(٢٠) . أي لم أقُلْه ، ولو قُلْتُه لكُنْتَ علِمْتَه ؛ أي لم أقله .

ومثل هذا قوله : ﴿ أتنبئون اللَّهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّموات وَلَا في الأرْضِ ﴾(٢١) ، أي بما لم يكن ؛ لأنه لو كانَ لعلِمَهُ ؛ وإنَّما النفي لما قالوه .

وقول القائل : ما عِلِمَ اللَّهُ أنَّه كان ذلك ؛ فإنَّما ينفي الكون ، أي لو كان لَعَلِمَهُ .

---

(١٦) سورة المؤمنون الآية ١١٥ .

(١٧) في تفسير القرطبي (١٥٦/١٢) : أي مهمَلين ، كما خلقت البهائم ، لا ثواب لها ولا عقاب عليها . قال الترمذي الحكيم : إن الله تعالى خلق الخلق عبيداً ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها ؛ فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك في دار السلام ؛ وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُبَّاق سقَّاط لئام ، وغداً أعداء في السجون بين أطباق النيران .

(١٨) سورة النساء الآية ١٧١ .

(١٩) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٢٠) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٢١) سورة يونس الآية ١٨ .

ARCHIVE

وقوله: ﴿ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ﴾[٢٠]، أي تعلم ما أخفي ولا أعلمُ ما أخفيتَهُ عنّي. ثم قال: ﴿ ما قُلْتُ لَهُمْ إلّا ما أَمَرْتَني به أن اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عليهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فيهم فلمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أنتَ الرَّقيبَ عليهم وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ ﴾[٢٢].

وقد أحكمتُ هذه المسألة في كتاب «الشهادات».

وأمّا قوله في سورة الأنعام: ﴿ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَمّا يَصِفُونَ ﴾[٢٣]، أي عمّا يصفون من الكذب. / وكذلك قوله: ١٢٣/أ
﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾[٢٤]، أي كذبَهم.

وأمّا قوله في سورة الأعراف مخبراً عن موسى صلى الله عليه: ﴿ سُبْحانَكَ تُبْتُ إليكَ وأنا أوَّلُ المُؤْمِنينَ ﴾[٢٥]، فالمعنى: تنزيهاً لك أن يكون إلّا ما أردته من أن أراكَ أو أن تمنعني ذلك. وإنّما طمِعَ موسى عليه السلام في رؤية رَبِّهِ حين كلَّمَهُ، فسألَ ما يجوز عنده، ولم يُعَنِّفْهُ اللَّهُ على ذلك، فقال: ﴿ لَن تَرَاني ولكنِ انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنِ استَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَراني ﴾[٢٥]. فلم ييأس موسى عليه السَّلام من الرؤيا، حتى رأى الجبَلَ قد صار دكّاً، وقد كان يجوز أن يستقرَّ الجبَلُ وأن يرى ربَّه، فلمَّا منعه اللَّهُ من ذلك قال: ﴿ سُبْحانَكَ تُبْتُ إليكَ ﴾[٢٥]، أي رجعتُ عمَّا كنتُ سألتُ، ﴿ وأنا أوَّلُ المُؤْمِنينَ ﴾[٢٥]، أي أوَّلُ مَنْ آمن بما توحيه إليَّ.

---

(٢٢) سورة المائدة الآية ١١٧.

(٢٣) سورة الأنعام الآية ١٠٠، وتمامها: ﴿ وَجَعَلُوا لله شُركاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُمْ وخَرَقُوا له بنينَ وَبَنَاتٍ بغيرِ عِلْمٍ سبحانه وتعالى عمَّا يصفون ﴾.

(٢٤) سورة الأنعام الآية ١٣٩. وانتصب «وصفهم» بنزع الخافض، أي بوصفهم.

(٢٥) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

وكذلك سائر الأنبياء هم أوّل أممهم إيماناً حين يأتيهم الوحيُ، ثم يبلّغون؛ فيؤمن مَن يؤمن، ويكفر مَن يكفر، وذلك متقدِّمٌ في علم اللّهِ عزَّ وجلَّ، وغيبه مَطويٌّ عن الأنبياء.

فقال اللّه: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾[٢٦]، أي خُذْهُ أَخْذَ القابِلِ له، والعامل به، وكن من الشاكرين لما آتيتك من ذلك.

١٢٣/ب وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ/ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾[٢٧]، أي ينزهونه بأسمائه ويسجدون له.

وقوله في سورة يونس: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾[٢٨]، أي هم في الجنة على تنزيه اللّه عمّا نزّه عنه نفسَه، كما كانوا في الدُّنيا، ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢٨] رضاً بما أعطوه[٢٩]، ونحو ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[٣٠].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدثنا العباس بن محمد[٣١]، قال: حدثنا أبو الرَّبيع الزَّهرانيّ[٣٢]،

---

(٢٦) سورة الأعراف، الآية ١٤٤، وتمامها: «قال ياموسى، إنّي اصطفيتك على النّاس برسالاتي وبكلامي فَخُذْ ما آتيتُك وكُن من الشّاكرين».

(٢٧) سورة الأعراف، الآية ٢٠٦، وتتمتها: «وله يسجدون».

(٢٨) سورة يونس، الآية ١٠.

(٢٩) انظر تفسير القرطبي ٨/٣١٣ ــ ٣١٤، وجاء فيه: «يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين».

(٣٠) سورة المائدة الآية ١١٩ وغيرها.

(٣١) هو العباس بن محمد بن حاتم الدوري، أبو الفضل البغدادي، خوارزمي في الأصل، ثقة حافظ، مات سنة ٢٧١ هـ (التقريب ١/٣٩٩).

(٣٢) هو سليمان بن داوود العتكيّ، أبو الرَّبيع الزَّهراني البصري، سكن بغداد. صدوق. مات سنة ٢٣٤ هـ (تهذيب الكمال ١١/٤٢٣).

قال: حدثنا سعيد بن زكريا[٣٣]، عن عَنْبَسَةَ بن عبد الرحمن[٣٤]، عن المعلى بن عُرفان[٣٥]، عن شقيق[٣٦]، عن عبد الله[٣٧]، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

« مَنْ رَضِيَ بما قَسَمَ اللهُ له دَخَلَ الجَنَّةَ »[٣٨].

وقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣٩] و ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ ﴾[٤٠]؛ كُلُّ ذلك أصلُه ما وصفته لك.

وقوله: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾[٤١]، أي نـزِّه اسْمَـه عن غير ما سَمَّى به نفسَه[٤٢].

---

(٣٣) سعيد بن زكريا القرشي، أبو عثمان، ويقال: أبو عمر، المدائني من الطبقة التاسعة. ذكره ابن حبّان في الثقات. (تهذيب الكمال ٤٣٥/١٠).

(٣٤) عَنْبَسة بن عبد الرحمن بن عَنْبَسة بن سعيد بن العاص الأموي، من الثامنة، متروك الحديث. رماه أبو حاتم بالوضع (التقريب).

(٣٥) المعلى بن عُرفان. قال ابن معين: ليس بشيء. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك الحديث. وكان من غلاة الشيعة. (ميزان الاعتدال ١٤٩/٤، لسان الميزان ٦٤/٦).

(٣٦) هو شقيق بن سلمة، أبو وائل الأسدي، الكوفي، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره. اختلف في سنة وفاته، وذكر خليفة بن خياط أنه مات سنة ٨٢هـ. (تهذيب الكمال ٥٤٨/١٢).

(٣٧) إذا أطلق «عبد الله»، فهو عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

(٣٨) روى الهندي في «كنز العمال»، عن ابن مسعود، رقم (٧١٤١): «من قنع بما رُزق دخل الجنة»، وعزاه إلى ابن شاهين في الترغيب، والديلمي في مسند الفردوس. وأخرج الإمام أحمد في المسند (٢٤/٥)، قال: حدثنا إسماعيل عن يونس، حدثني أبو العلاء بن الشخير، حدثني أحد بني سليم، ولا أحسبه إلا قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله عز وجل له، بارك الله له فيه ووسعه، ومن لم يرض لم يبارك له.

(٣٩) سورة التوبة الآية ٣١.

(٤٠) سورة يونس الآية ٦٨.

(٤١) سورة الأعلى الآية ١.

(٤٢) ذكر القرطبي في تفسيره (١٣/١٩ ــ ١٥) وجوهاً عدة في معنى هذه الآية؛ منها: عظِّم ربك الأعلى، ونزه ربَّك عن السوء وعما يقول فيه الملحدون؛ وعن الطبري أن المعنى: نَزِّه اسم ربك عن أن تسمي به أحداً سواه. وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظِّم ولذكره محترم.

وقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾(٤٣)، أي ادعُه بأسمائه، فنزهه بها عمَّا قاله المخالفون.

وكل ما كان في القرآن من قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾(٤٣) و ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾(٤١) فمعناه كلّه: نزّهه(٤٤) وعظّمه عن غير ما وصف اللّه به نفسَهُ.

وقوله في سورة الرعد: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾(٤٥)، أي كُلٌّ ينزِّهُه ويعظِّمه بأسمائه؛ وأسماءُ اللّه صفاتٌ له، وصفاتُ اللّهِ مدحٌ. وكُلُّ مَن ذكر اللّه باسْمٍ من أسمائه فقد أطاعه، إذا وصفه بصفته التي رضيها لنفسه ونَفَى سواها عنه.

وكذلك قوله في الحجر: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾(٤٦).

وقوله في/ سورة النمل: ﴿ سُبْحَانَ اللّه عمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٤٧)، أي ١٢٤/أ
تعظيماً له وتنزيهاً عن إشراكهم به.

ولست ترى ذكر «سُبْحان» في سائر القرآن إلّا ومعها إثبات ونفي؛ فالإثبات لأسمائه التي هي صفاته، والنفي فيما سوى ذلك، فتأمّله تجده في سائر القرآن.

كذلك قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾(٤٨). وقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾(٤٩)، أي تنزيهاً له وتعظيماً عن قول المكذّبين بأنبائه على ألسنة أنبيائه.

(٤٣) سورة النصر الآية ٣، وغيرها.

(٤٤) في الأصل «نزه».

(٤٥) سورة الرعد الآية ١٣.

(٤٦) سورة الحجر الآية ٩٨.

(٤٧) سورة الطور الآية ٤٣، وسورة الحشر الآية ٢٣. وأما الآية التي في سورة النمل فهي: «وسبحان الله ربِّ العالمين».

(٤٨) سورة النحل الآية ٥٧.

(٤٩) سورة الإسراء الآية ١.

ARCHIVE

وكذلك قوله: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كبيراً. تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وإن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(٥٠)؛ فهذا إثبات(٥١) منه عزَّ وعلا التسبيحَ من السماوات والأرض، وأنه لا يفقهُ تسبيحَهم إلا هو، وإن شاء أن يُعَلِّمَ بعضَ خلقه بعضَ ذلك التَّسبيح علَّمه، كما قال: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾(٥٢)، فهذا مما لا يفقهه خلقُهُ، وإن شاء أن يُعلِّمه إنساناً علَّمَه(٥٣).

حدثنا محمد بن موسى، قال: حدثنا أبو خزيمة العابدُ، قال: حدثنا عيسى بن ميمون، عن محمد بن الصَّبَّاح، عن كعبٍ، قال:

« صياحُ الدُّرَّاج(٥٤) في السَّماء: الرَّحمنُ على العَرْشِ استَوَى »(٥٥).

حدثنا محمد بن موسى، قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن، قال: حدثنا مخلد بن عبيد، عن فَرْقَد السَّبَخي(٥٦)، قال:

١٢٤/ب مَرَّ سليمان بن داوود/ - عليه السلام - بديك يصيح، فقال: أتدرون ما يقول هذا الدِّيكُ؟ يقولُ: « يا غافلين اذكروا اللَّه »(٥٧).

---

(٥٠) سورة الإسراء الآية ٤٣، ٤٤.

(٥١) في الأصل: « إثباتاً ».

(٥٢) سورة النمل الآية ١٦.

(٥٣) انظر تفسير القرطبي ١٠/٢٦٦ - ٢٦٨.

(٥٤) الدراج: نوع من الطير يدرج في مشيه.

(٥٥) أخرجه القرطبي في التفسير عن مكحول ١٣/١٦٦.

(٥٦) هو فرقد بن يعقوب السبخي، أبو يعقوب، العابد، من أهل أرمينية، وانتقل إلى البصرة، وكان يأوي إلى السبخة بها فنسب إليها. توفي قبل سنة ١٣١هـ (صفة الصفوة ٣/٢٧١، اللباب ٢/٩٩).

(٥٧) أخرج القرطبي في التفسير ١٣/١٦٦ عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: « الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين ».

وقوله في سورة مريم: ﴿ سُبْحَانَهُ إذا قَضَى أمراً فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٥٨]، فهذا مع قصة عيسى عليه السلام، وما ادُّعِيَ في أمره مما نفاه الله.

وقوله: ﴿ فَأَوْحَى إليهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾[٥٩]، أي اذكروا الله بأسمائه. والوحي ها هنا، إنَّما[٦٠] هو إعلامٌ من زكريا، وقد ضُرِبَ على لسانه، وذلك قوله: ﴿ إلَّا رَمْزاً ﴾[٦١]؛ والرَّمز: الإيماء والحركة[٦٢].
قال جرير[٦٣]:

أَمْسَى يُرَمِّزُ حاجِبَيْهِ كأنَّهُ ذِيخٌ لَهُ بِقَصِيمَتَيْنِ وِجَارُ

الذِّيخُ: ذكر الضَّبُع.

فالإيماء ها هنا في قصة زكريا: إعلام بغير كلام. وقد حكي أنَّه خطَّ لهم في الأرض. ولعمري ما تمنع اللغة من هذا أن يكون أعلمهم بأي جنس كان، من غير أن يكلِّمهم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhr.com

قال النجاشيُّ[٦٤]:

(٥٨) سورة مريم الآية ٣٥.
(٥٩) سورة مريم الآية ١١.
(٦٠) في الأصل: «وإنَّما».
(٦١) سورة آل عمران الآية ٤١.
(٦٢) الرمز في اللغة: الإيماء بالشفتين، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين، وأصله الحركة. (انظر تفسير القرطبي ٤/٨٠).
(٦٣) ديوانه ج٢ ص٨٧٤ من قصيدته المشهورة في رثاء زوجه أم حزرة، ومطلعها:
لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
والوجار: جُحْر الضبع.
(٦٤) هو قيس بن عمرو بن مالك، من بني الحارث بن كعب، من كهلان. شاعر هجاء مخضرم، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان فاسقاً رقيق الإسلام. أصله من نجران، وانتقل إلى الحجاز، ثم استقر في الكوفة، وهجا أهلها. هدّده عمر بن الخطاب بقطع لسانه، وضربه عليٌّ على السُّكْر في رمضان. كانت أمُّه من الحبشة فنسب إليها. توفي نحو سنة ٤٠ هـ. (ترجم في الشعر والشعراء ٣٢٩، واللآلي ٨٩٠، والخزانة ٤/٣٦٨).

يُخَطِّطْنَ بالبَطْحاءِ وحياً علمتَهُ   على أنّه أعْيا على كُلِّ كاتبِ

وقوله في سورة طه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا. وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ/ النَّهَارِ ﴾[٦٥]؛ يوصيه ١٢٥/أ
بالأوقات: ابتداء النهار، وآخره، وأطرافه، وآناء الليل، وهي أوقاته: واحدها إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى. [وأنشد] أحمد بن يحيى[٦٦]:

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ   بِكُلِّ إِنْيٍ حداه[٦٧] الليلُ يَنْتَعِلُ

وقوله: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[٦٨]؛ فهذه أوقات الصلاة. والصلاة الوسطى: العصر[٦٩].

وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ[٧٠] بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

---

(٦٥) سورة طه الآية ١٣٠.

(٦٦) هو أبو العباس ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، مشهوراً بالحفظ.
والبيت للمتنخل الهذلي، أبي أُثَيلة، واسمه مالك بن عويمر، من هذيل. من قصيدة يرثي بها ابنه أُثيلة، قتلته بنو سعد بن فهم، في خبر طويل ذكره صاحب الأغاني. وانظر ديوان الهذليين ٣٥/٢، وشرح أشعار الهذليين ١٢٨٣، والأغاني (دار الكتب) ١٠٤/٢٤، ومجاز القرآن ١٠٢/١، ومعاني القرآن للزجاج ٤٧٠/١، والخزانة ١٣٨/٢، واللسان والتاج (إني).
وكعطف القدح: أي يرى طُوِي كما يُطوى القدح. ومِرَّته: فَتْلُه. وينتعل: يسري في كل ساعة من الليل، من هدايته.

(٦٧) كذا في الأصل، وفي شرح أشعار الهذليين «حذاه الليل» وفي الأغاني «أتاه» وفي اللسان «قضاه».

(٦٨) سورة الروم الآية ١٧ و ١٨.

(٦٩) هذا خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن، قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾، صلاة المغرب والعشاء، «وحين تصبحون» صلاة الفجر، «وعشيا» العصر، «وحين تظهرون» الظهر؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير أيضاً. (انظر تفسير القرطبي ١٤/١٤ــ١٥).

(٧٠) في الأصل «فَسَبِّحْ».

وَقَبْلَ الغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾(٧١) ؛ فقد أمر الله عزَّ وجلَّ بالتسبيح، ثم ذكر أوقاتاً يحض على التسبيح فيها(٧٢) .

حدثني الحُنَيني(٧٣) ، قال : حدثنا أحمد بن المُفَضَّل(٧٤) ، قال : حدثنا أَسْبَاط(٧٥) ، عن السُّدِّيّ(٧٦) في قوله : ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾(٧٧) ، قال : مُسبِّح لله(٧٨) .

حدثنا إسحاق بن وَهْب العَلَّاف(٧٩) ، ومحمد بن يونُس(٨٠) ، قالا : حدثنا أبو داود الطَّيالسي(٨١) ، قال : حدثنا ورقاء(٨٢) ، عن ابن أبي نجيح(٨٣) ،

---

(٧١) سورة ق الآية ٣٩ و ٤٠ .

(٧٢) انظر تفسير القرطبي ١٧/٢٤ ــ ٢٦ .

(٧٣) هو محمد بن الحسين بن موسى، أبو جعفر الحنيني الكوفي، صاحب «المسند». محدّث حافظ، متقن. مات سنة ٢٧٧ هـ . (سير أعلام النبلاء ١٣/٢٤٣) .

(٧٤) هو أحمد بن المفضّل الحَفَريّ الكوفي، أبو علي؛ مولى عثمان بن عفان . صدوق، شيعي، في حفظه شيء . مات سنة ٢١٥ هـ (التقريب) .

(٧٥) هو أُسْبَاط بن نصر الهمْداني، أبو يوسف، ويقال : أبو نصر الكوفيّ، من الثامنة . وثقه ابن معين . قال النسائي : ليس بالقويّ . (خلاصة تذهيب الكمال ص٢٦) .

(٧٦) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كَرِيمة السُّدّي، أبو محمد الكوفي . صاحب التفسير ، صدوق يَهم، ورمي بالتشيع . مات سنة ١٢٧ هـ (التقريب ، وتهذيب الكمال ٣/١٣٢) .

(٧٧) سورة ص الآية ١٩ .

(٧٨) وفي قولٍ : إن الهاء في «له» تعود إلى داوود عليه السلام، فالطير تأتيه طائعة تسبِّح الله معه . (انظرْ تفسير القرطبي ١٥/١٦١) .

(٧٩) إسحاق بن وَهْب بن زياد العَلَّاف، أبو يعقوب الواسطيّ . صدوق . كان حياً سنة ٢٥٥ هـ (تهذيب الكمال ٢/٤٨٧) .

(٨٠) محمد بن يونس بن موسى الكُدَيْمِيّ، أبو العباس السَّامي، البصري . ضعيف . مات سنة ٢٨٦ هـ ، وقد جاوز المائة . (سير أعلام النبلاء ١٣/٣٠٢) .

(٨١) هو سليمان بن داود بن الجارود، أبو داوود الطَّيالسي، البصري . ثقة، حافظ، غلط في أحاديث . مات سنة ٢٠٤ هـ . (التقريب) .

(٨٢) هو ورقاء بن عمر اليَشْكُري، أبو بشر الكوفي، نزيل المدائن . ذكره ابن حبان في الثقات . (تهذيب الكمال ١١/١١٣) .

(٨٣) اسمه عبد الله، واسم أبي نجيح يسار، الثقفي المكي . الإمام الثقة المفسر . كان جميلاً فصيحاً، حسن الوجه، لم يتزوج قط . وهو من أخص الناس بمجاهد . توفي سنة ١٣١ هـ . (سير أعلام النبلاء ٦/١٢٥) .

عن مجاهد(٨٤)، في قوله: ﴿ ياجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾(٨٥)؛ قال: سبِّحي معه(٨٦).

/ قال أبو عبد الله: فكُلُّ مَن عظَّم اللهَ وكبَّره ودعاه بأسمائه فهو مُسبِّحٌ له. ١٢٥/ب

حدثنا أحمد بن عبد الجبَّار العُطَارِدِيّ(٨٧)، قال: حدثنا أبو مُعَاوية(٨٨)، عن الأعْمش(٨٩)، عن أبي صَالِح(٩٠)، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لأنْ أقولَ: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلاّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، أَحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ»(٩١).

قال أبو عبد الله: فقد بينت لك معنى التسبيح، ومعنى أسماء الله عزَّ وجلَّ أنَّها صفاتٌ له ومَدْحٌ، فكلُّ مَنْ دعاه باسْمٍ من أسمائه فقد أطاعَهُ ومَدَحَهُ وعظَّمَهُ وسبَّحَهُ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٨٤) هو مجاهد بن جَبْر، أبو الحجَّاج المكّي، أحد الأعلام من التابعين والأئمة المفسرين. روى عن ابن عباس، فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه. قرأ القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، ومن جملتها ثلاث سأله عن كل آية فيم كانت. مات نحو سنة ١٠٤هـ وقد نيف على الثمانين. (سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٤، طبقات القراء ٤١/٢).

(٨٥) سورة سبأ الآية ١٠.

(٨٦) قاله مجاهد وابن عباس، كما في تفسير الطبري ٤٦/٢٢ (ط. بولاق).

(٨٧) وهو أبو عمر الكوفي، ضعفه ابن حجر في التقريب، وقال: سماعه للسيرة صحيح. مات سنة ٢٧٢هـ، وله خمس وتسعون سنة. (التقريب).

(٨٨) هو محمد بن خازم التميمي، أبو معاوية الضرير، الكوفي، عمي وهو صغير. ثقة. كان أحفظ الناس لحديث الأعمش، وقد يهم في حديث غيره. مات سنة ١٩٥هـ. (تهذيب التهذيب ١٣٧/٩).

(٨٩) هو سليمان بن مهران، أبو محمد الأسدي، الكوفي، الأعمش، شيخ المقرئين والمحدثين، ثقة حافظ، ورع، لكنه يدلس، مات سنة ١٤٨هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٢٦/٦).

(٩٠) أبو صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب، اسمه باذام، ويقال: باذان. ضعيف، مدلس. قال ابن عديّ: عامّة ما يرويه تفسير، قلّ ما له من المسند. (التقريب، وسير أعلام النبلاء ٣٧/٥).

(٩١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٩٥) في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

حدثنا العبَّاس بن محمَّد، قال: حدثنا يَعْلى بن عُبَيد[٩٢]، قال: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل[٩٣]، عن عبد اللّه، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه:

«ليسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ من اللّه، ولذلك حرَّم الفواحشَ. وليس أحدٌ أحبَّ إليه المدْحُ مِنَ اللّه عزَّ وجلَّ»[٩٤].

وقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[٩٥]، أي اذكروني بأسمائي، وعند تصرفكم وأحوالكم، أذكركم برحمتي[٩٦].

حدثنا العباس بن محمد، قال: حدثنا يَعلى بن عبيد، قال: حدثنا الأعمش، عن مجاهد في قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[٩٧]؛ قال: من خاف مقام اللّه[٩٨].

حدثنا محمد بن عيسى الواسطيّ[٩٩]، قال: حدثنا عبد اللّه بن صالح/ ٢ ١٢٦/أ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٩٢) يعلى بن عبيد بن أبي أميَّة، أبو يوسف الطَّنافِسيّ الكوفيّ، ثقة، مات سنة ٢٠٩هـ. (سير أعلام النبلاء ٤٧٦/٩).

(٩٣) هو شقيق بن سلمة، أبو وائل الأسدي، وقد مضت ترجمته.

(٩٤) رواه البخاري (٢٨٠/٩) في النكاح، باب الغيرة، ومسلم رقم (٢٧٦٠) في التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، والترمذي رقم (٣٥٢٠) في الدعوات.
ولفظه في البخاري: «ما من أحدٍ أغيرُ من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش، وما أحدٌ أحبُّ إليه المدْحُ من الله».

(٩٥) سورة البقرة الآية ١٥٢.

(٩٦) انظر تفسير القرطبي ١٧١/٢ ــ ١٧٢.

(٩٧) سورة الرحمن الآية ٤٦.

(٩٨) قال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه. (تفسير القرطبي ١٧٦/١٧).

(٩٩) هو محمد بن عيسى بن السكن، أبو بكر الواسطي. قدم بغداد، وحدث بها، وكان ثقة. مات في منصرفه من بغداد إلى واسط سنة ٢٨٧ (تاريخ في بغداد ٤٠٠/٢).

ابن مُسْلم[١٠٠]، عن أبي الأحوص[١٠١]، عن منصور[١٠٢]، عن مجاهد في قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[١٠٣]؛ قال: هو أن يذكر اللّٰه عند المعصية فينحجز.

حدثنا محمد بن عبد الملك[١٠٤]، قال: حدثنا يزيد بن هارون[١٠٥]، قال: أخبرنا فُضَيْل[١٠٦]، عن عَطِيَّة[١٠٧] في قوله: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[١٠٨]؛ قال: ذِكْرُ اللّٰهِ العبدَ أكبرُ مِن ذِكْرِ العبدِ اللّٰهَ[١٠٩].

حدثنا محمد بن عبد الملك، قال: حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا فُضَيْل، عن عَطِيَّة في قوله: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾[١١٠]؛ قال: قبل ذلك.

---

(١٠٠) هو أبو أحمد العجلي الكوفي، نزل بغداد، وحدّث بها، وأقرأ بها القرآن، ثقة. (سير أعلام النبلاء ٤٠٣/١٠).

(١٠١) هو سلّام بن سُلَيم الحنفي، أبو الأحوص الكوفي، ثقة متقن. مات سنة ١٧٩ هـ. (تهذيب الكمال ٢٨٢/١٢).

(١٠٢) هو منصور بن المعتمر بن عبد الله السُّلمي، أبو عتّاب الكوفي، ثقة ثبت، من طبقة الأعمش، مات سنة ١٣٢ هـ (التقريب).

(١٠٣) سورة الرحمن الآية ٤٦.

(١٠٤) محمد بن عبد الملك بن مروان الواسطي، أبو جعفر الدَّقيقي. صدوق، مات سنة ٢٦٦ هـ. (تهذيب التهذيب ٣١٧/٩).

(١٠٥) يزيد بن هارون بن زاذان، ويقال: ابن زاذي، أبو خالد السُّلمي، الواسطي. ثقة متقن، عابد، كبير الشأن، مات سنة ٢٠٦ هـ وقد قارب التسعين. (سير أعلام النبلاء ٣٥٨/٩).

(١٠٦) هوفُضَيل بن مَرْزوق الأغر الرُّقاشي، الكوفي، أبو عبد الرحمن. صدوق، يهم، رمي بالتشيع. مات في حدود سنة ١٦٠ هـ. (التقريب).

(١٠٧) هو عطيَّة بن سعد بن جُنادة، العَوْفي، الجَدَلي، الكوفي، أبو الحسن. صدوق يخطىء كثيراً، كان شيعياً مدلّساً. مات سنة ١١١ هـ. (التقريب).

(١٠٨) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

(١٠٩) قال القرطبي في التفسير (٣٤٩/١٣): ذكرُ اللّٰه لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم، وهو اختيار الطبري. وعن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قول الله عزّ وجلّ: «ولذكر الله أكبر»، قال: «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه».

(١١٠) سورة الصافات الآية ١٤٣.

قال أبو عبد الله: يعني أنّه كان يذكُرُ اللّهَ في الرَّخاء؛ فلمَّا ذكره عند الشدَّة أنجاه؛ ألا ترى أنَّ فرعون لمَّا أدركه الغَرَقُ قال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسرائيلَ وأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١١١)؛ فقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(١١٢). فلم يكن فرعون يذكر اللّهَ في الرَّخاء، فلم يقبَلْهُ في الشدّة حين رأى بأسَهُ.

وكان يونُس — عليه السَّلام — يذكُرُ اللّهَ في الرَّخاء، فأعانه في وقت ١٢٦/ب الشدَّة، وأنجى قومَه من العذاب، بعد أن / قد أظلهم، ولم يُفْعَل ذلك بغيرهم من الأمم؛ ألا تسمع إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾(١١٣)، فقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾(١١٤)، أي هذه سنّة اللّه؛ فمن أهلكَ مِن الأمم إذا رأوا بأسَه آمنوا، ولو كانوا آمنوا بذلك الوعيد قبل وقوعه لنفعهم(١١٥).

---

(١١١) سورة يونس الآية ٩٠.

(١١٢) سورة يونس الآية ٩١.

(١١٣) سورة غافر الآية ٨٤.

(١١٤) سورة غافر الآية ٨٥.

(١١٥) ذكر القرطبي في تفسيره (٥/٩٠—٩٣) شروط التوبة وقبولها من اللّه تعالى. وذكر أيضاً (٨/٣٨٤) مانصه: «روي في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ماهم عليه، فأبَوْا، فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين، فيئس من إيمانهم، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك. فلما كان الليل تزوَّد يونس وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله، ولبسوا المُسوح، وفرَّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردّوا المظالم في تلك الحالة ... وعن ابن عباس: أنهم غشيتهم ظُلَّة وفيها حمرة، فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرَّها بين أكتافهم. وقال ابن جبير: غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر (كذا)، فلما صحَّت توبتهم رفع الله عنهم العذاب. وقال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ ﴾(١١٦)؛ ذهب ناس من الناس إلى أنَّ فيه تقديماً وتأخيراً: فأخذهم العذاب فأصبحوا نادمين، والآية يخرج معناها على ظاهره، فيكون: فعقروها فأصبحوا نادمين لمّا أظلهم العذابُ، ورأوا علامات ذلك قبل أخذه إياهم، ثم أخذَهُم.

●

تمت المسألة والحمدُ لله ربّ العالمين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١١٦) سورة الشعراء الآية ١٥٧ و ١٥٨.

جولة
جامع العلوم الأصبهاني الباقولي
مع أبي علي الفارسي في الحجَّة

للدكتور محمد الدالي

جامع العلوم[1] أبو الحسن علي بن الحسين الأُصبهاني الباقولي (ت ٥٤٣ هـ) أحد كبار أئمة العربية في المائة السادسة للهجرة.

صنّف كتباً كثيرة في فنون شتى، لم ينته إلينا منها إلا ثلاثة كتب، وهي: كشف المشكلات وإيضاح المعضلات[2]، وشرح اللُّمع[3]، والجواهر[4].

وهو من رجال المدرسة النحوية البصرية المتأخرة[5] التي عنيت بآثار أبي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ١٣/١٦٤ـ١٦٧، وإنباه الرواة ٢/٢٤٧ـ٢٤٩، وإشارة التعيين ٢١٦، ونكت الهميان ٢١١، والبلغة ١٥٥، وبغية الوعاة ٢/١٦٠، وروضات الجنات ٤٨٥، وهدية العارفين ١/٦٩٧، والأعلام ٤/٢٧٩، ومعجم المؤلفين ٧/٧٥.

(٢) كان تحقيق هذا الكتاب شطراً من رسالة جامعية نلتُ عليها درجة الدكتوراه في النحو والصرف من جامعة دمشق، وقد أحلت عليها في هذه المقالة.

(٣) هو من أجلّ شروح «اللمع» لابن جني، منه نسخة يتيمة في دار الكتب الشعبية في بلغاريا، وعندي مصورة عنها.

(٤) هو الكتاب المنشور باسم (إعراب القرآن) المنسوب إلى الزجاج. انظر المقالتين اللتين كتبهما أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ في ذلك في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤٨ ج ٤/١ـ٢٤ عام ١٩٧٣ والمجلد ٤٩ ج ١/١ـ٢٠ عام ١٩٧٤.

(٥) من أعلامها: أبو طالب العبدي (ت ٤٠٦ هـ)، وأبو الحسن السمسمي (ت ٤١٥ هـ) وأبو القاسم الدقيقي (ت ٤١٥ هـ)، وعلي بن عيسى الربعي (ت ٤٢٠ هـ)، وأبو الحسين الفارسي ←

علي الفارسي وأبي الفتح بن جني ، وأكبّت عليها وتناولتها بالدرس والشرح والتهذيب والتعليق ، وأكثرت النقل عنهما فيما صنفته من آثار .

وجامع العلوم عظيم الإجلال لأبي علي شديد الاعتداد به معنيّ بآثاره أيّما عناية بصير بها دقيق الفهم لكلامه ، وأبو علي عنده «فارس الصناعة» و«الفارس» و«فارسهم» يعني فارس النحاة[٦] .

وعوّل على ما تيسّر له من كتب أبي علي ، يستخرج منها فوائده ، ويضمّ ما تفرّق في كتبه منها ، فهو يقول[٧] : «فافهمه عن أبي علي ، ولم يهتد إليه غيره . وإنما جعلنا هذه الأجزاء وسيلة إلى جمع ما أوردناه من كلامه على نسقه في التنزيل من كتبه المتفرقة» ، ويقول[٨] : «هذه درر أخرجها فارسهم من صدف الكتاب ، فمنحناها إياك ففصلناها ونظمناها ، والفارس فرّق فيها الكلام في مواضع ، وهذا مجموعه فافهمها» ويقول[٩] : «... وكلامه مبسوط كلام فارسهم» ويقول[١٠] : «ما حوى كلامنا إلا شرح كلام أبي علي» .

وقد أتاح له اطلاعُه الواسع على كلام أبي علي في كتبه وقوةُ عقله ويقظتُه وإتقانُه لعلوم العربية أن يتنبّه على مواضع في «الحجة» سها فيها أبو علي ، وينبّه على صوابها[١١] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

← (ت ٤٢١ هـ) ، وأبو علي المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) ، وابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) ، وابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ) وغيرهم .

(٦) انظر شرح اللمع اللوح ١/٦١ و٢/٦٢ و١/٦٧ و١/٨٦ــ٢ ، والجواهر ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٨٧١ ، ٩٠٠ ، ٩٢٩ ، وكشف المشكلات وإيضاح المعضلات ٥٢ ، ٣٣٣ ، ٤١٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٥١١ ، ٥٢٧ ، ٥٦٤ ، وغيرها .

(٧) كشف المشكلات ٤٢٠ .

(٨) كشف المشكلات ٤١٩ .

(٩) كشف المشكلات ٤٧٤ .

(١٠) كشف المشكلات ٢٩٦ .

(١١) انظر شرح اللمع اللوح ٢/٨ و٢/٨٧ــ٢/٨٨ ، والجواهر ٥ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ٢٠٩ ، ٤٩١ ، ٨٥٨ ، وكشف المشكلات ٤٩٦ ، ٥٥٩ ، ٧٢٢ ، ٧٣٥ ، ٧٨٠ .

وهو معنيّ في كتبه بالتنبيه على تعدد أقوال أبي علي في كتبه واضطرابها وتناقض بعضها[١٢]. وله في الاستدراك عليه كتاب ذكره باسم «الاستدراك على أبي علي» في الجواهر[١٣] ومواضع من كشف المشكلات[١٤]، وسماه «المستدرك» في موضعين من كشف المشكلات[١٥]، ولم ينته إلينا. ذكر فيه جامع العلوم أقوالاً لأبي علي في إعراب بعض الآي لم يرضها[١٦]، وأقوالاً أجازها نصّ هو في أكثر كتبه على عدم جوازها[١٧]، وأقوالاً أجازها في بعض كتبه ثم رجع عنها في غيرها[١٨]، وأقوالاً في توجيه بعض وجوه القراءات رآه أخطأ فيها[١٩] وأقوالاً رآه منع فيها شيئاً جائزاً[٢٠].

وفي كشف المشكلات[٢١] والجواهر[٢٢] وشرح اللمع[٢٣] أمثلة لاضطراب كلام أبي علي وتعدده وتعقّب جامع العلوم له.

وجامع العلوم في ذلك ينبه على الصواب ويستدرك عليه. فإن فاته ذكر شيء من ذلك في كتابه في الاستدراك عليه طلب أن يُلحق به، قال «وليلحق هذا بالمسائل المأخوذة عليه»[٢٤].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٢) كشف المشكلات ٤٥٥، ٧٤٩.
(١٣) ص ٦٤٠، ٦٨٤.
(١٤) ص ٧٨٠، ٩٠٣، ٩٦٣.
(١٥) ص ٧٢٢، ٧٧٥.
(١٦) كشف المشكلات ٧٧٥، ٧٨٠.
(١٧) كشف المشكلات ٣٨٥.
(١٨) كشف المشكلات ٩٠٣.
(١٩) كشف المشكلات ٧٢٢، والجواهر ٦٨٤، ٨٣٥.
(٢٠) الجواهر ٦٤٠.
(٢١) ص ٣٨٥، ٤٥٥، ٤٧٤، ٤٩٦، ٥١١، ٥٥٢ــ٥٥٣، ٥٥٧ــ٥٥٨، ٧٧٣.
(٢٢) ص ١٢١، ٢٠٧، ٢٧٢، ٢٧٤، ٤٩١، ٥٢١، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٩٣، ٥٩٥، ٦٨٤، ٦٩٩، ٧٢٩، ٨٣٦ــ٨٣٧، ٩٥٩.
(٢٣) اللوح ٣٠/١ و٣٧/٢ و٣٨/١ و٤٠/١ــ٢ و٤١/١ و٧٢/١ و٧٩/١ و٨٠/١ و٨١/١ و٨٣/١ و١٥٤ــ٢ و١٥٥/١.
(٢٤) كشف المشكلات ٦٦٦.

وتزدحم أقوال أبي علي في صدر جامع العلوم ويضيق بتعددها واضطراب بعضها وتناقضها فيعيبه هذا فيقول: «... وأنا لا أطيق هذا الرجل، يَشُجُّ ويأسو ويُدْوِي ويداوي»[٢٥] على شدة حبه وإكباره له.

* * *

قرأتُ ما كتبه جامع العلوم في نقد أبي علي، ووجدته مصيباً في مواضع، فجرّدت ما كان منها في نقد كتاب «الحجة»، وسميت ذلك «جولة جامع العلوم الأصبهاني الباقولي مع أبي علي في كتاب الحجة» لأني رأيت جامع العلوم في نقده لأبي الفتح عثمان بن جني يقول[٢٦]: «... فهذا جولة مع عثمان في المحتسب ...».

واقتصرت في التعليق على ما لا بد من ذكره، لأني بسطت ذلك في تعليقي على كشف المشكلات وإيضاح المعضلات.

١ ــ قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ [سورة البقرة ٢١٩] قال أبو علي في الحجة[٢٧]: «.... وقال ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ والمعنى: في استحلالهما. ألا ترى أن المحرَّم إنما هو بعض المعاني التي فيهما. وكذلك في سائر الأعيان المحرمة....».

فقال جامع العلوم في الجواهر[٢٨]: «.... أي في استعمالهما. ووقع في

---

(٢٥) كشف المشكلات ٦١٧. يشج: يجرح الرأس ويشقّه، ويأسو: يعالج الجرح ويداويه، ويُدْوِي: يُمْرِض، ويداوي: يعالج. ومن كلام العرب: «هو يشج مرة ويأسو أخرى» و«هو يدوي ويداوي»، انظر اللسان (ش ج ج، د و ي). أراد أن أبا علي يفسد مرة ويصلح أخرى أو يخطئ مرة ويصيب أخرى.

(٢٦) كشف المشكلات ٨٠٨.

(٢٧) ٢/٣٠٨ ط دمشق، والإحالة عليها.

(٢٨) ص ٥٠.

الحجة: (في استحلالهما)، وهو فاسد، لأن استحلالهما كفر واستعمالهما إثم».

٢ ــ قوله تعالى: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ [سورة الأعراف: ٣٢].

قال أبو علي في الحجة[٢٩] في توجيه قراءة نافع وحده من السبعة ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع وقراءة باقي السبعة ﴿خالصةً﴾ بالنصب[٣٠]: «... لا يخلو القول في قوله (في الحياة الدنيا) من أن يتعلق بـ ﴿حرّم﴾ .... فيكون التقدير: قل من حرم ذلك في وقت الحياة الدنيا زينة ....».

فاستبعد هذا جامع العلوم في كشف المشكلات وإيضاح المعضلات[٣١]، قال: «فإن قلت: هل يجوز أن يكون التقدير: قل من حرّم في الحياة الدنيا، فيكون معمولاً لـ ﴿حرّم﴾ = فقد جوّز هذا أبو علي في بعض كلماته. وفيه بُعْدٌ لأنه يصير فصلاً بين الحال[٣٢] وصاحبه فيمن نصب، وبين الخبرين[٣٣] فيمن رفع».

٣ ــ قوله تعالى: ﴿اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها﴾ [سورة هود: ٤١].

قال أبو علي في الحجة[٣٤]: «فإن جعلت قوله ﴿بسم الله﴾ خبر مبتدأ

---

(٢٩) ج ٤/١٤٥ ــ ١٤٦ من مخطوطة الإسكندرية.

(٣٠) السبعة ٢٨، والتيسير ١٠٩، والنشر ٢/٢٦٩.

(٣١) ص ٣٢٠.

(٣٢) الحال قوله ﴿خالصة﴾ وصاحبها الضمير الذي في الظرف وهو قوله ﴿للذين آمنوا﴾ وهو خبر المبتدأ ﴿هي﴾.

(٣٣) الخبر الأول في الظرف ﴿للذين آمنوا﴾ و﴿خالصة﴾ هو الخبر الثاني. هذا، وقد أجاز أبو علي أن يتعلق ﴿في الحياة الدنيا﴾ بـ ﴿الطيبات﴾ وبـ ﴿الرزق﴾. قال أبو حيان في البحر ٤/٢٩١: (وتقادير أبي علي فيها تفكيك للكلام وسلوك به غير ما تقتضيه الفصاحة ....).

(٣٤) ج ٣/٢٠١ من مخطوطة مكتبة مراد ملا.

مقدماً[٣٥] في قول من لم يرفع بالظرف، أو جعلته مرتفعاً بالظرف = لم يكن قوله ﴿بسم الله مجراها﴾ إلا جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿فيها﴾ ...».

فقال جامع العلوم في الجواهر[٣٦]: «وسها أبو علي ههنا أيضاً، فقال فيه ما قال في قوله ﴿له أصحابٌ﴾ [سورة الأنعام: ٧١]، وزعم أن سيبويه يرفعه بالابتداء. فسبحان الله! أنت تنصّ في عامة كتبك على أن الحال والصفة والصلة والاستفهام بمنزلة واحدة، فمن أين هذا الارتباك؟».

وقال في كشف المشكلات[٣٧]: «ولا يجوز أن يكون ﴿مجراها﴾ مبتدأ و﴿بسم الله﴾ خبره، لأن الظرف جرى ههنا حالاً لذي حال، فكان المذهبان[٣٨] طبقاً في رفع ما بعده به[٣٩] وقد ذكر هو[٤٠] جواز ارتفاع ﴿مجراها﴾ بالابتداء. وقد ذكرناه في المستدرك».

(٣٥) وقد أجاز هذا الوجه أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٢/٩١، وأبو البركات في البيان في غريب إعراب القرآن ٢/١٣ـ١٤، وأبو حيان في البحر ٥/٢٢٤ـ٢٢٥. وكان في الحجة (خبر مبتدأ مقدم) وهو خطأ من الناسخ.

(٣٦) ص ٥٢٣.

(٣٧) ص ٣٨٤ـ٣٨٥.

(٣٨) يريد مذهب سيبويه ومن وافقه ومذهب الأخفش ومن وافقه في ارتفاع الاسم بالظرف.

(٣٩) مذهب سيبويه والجمهور في الاسم الواقع بعد الظرف أو الجار والمجرور في نحو: في الدار زيد وعندك عمرو = أنه يرتفع بالابتداء والظرف أو الجار والمجرور في موضع الخبر، ومذهب أبي الحسن الأخفش والكوفيين أن الاسم المؤخر مرتفع بالظرف أو الجار والمجرور. فإذا جرى الظرف أو الجار والمجرور خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو صلة لموصول أو اعتمدا على نفي أو استفهام = ارتفع الاسم بهما على المذهبين. وذكر ابن هشام أن الأرجح عند بعضهم أن يكون الاسم في هذه المواضع مبتدأ وأنه يجوز كونه فاعلاً، والأرجح عند جماعة منهم ابن مالك وأبو حيان كونه فاعلاً وأجازوا كونه مبتدأ.

انظر شرح الكافية ١/٩٤، والإنصاف ٥١ـ٥٥، والمغني ٥٧٨ـ٥٧٩، والهمع ٥/١٣١ـ١٣٦.

وقد عقد جامع العلوم في الجواهر ٥١١ـ٥٣٨ الباب ٢١ لما جاء في التنزيل من الظروف التي يرتفع ما بعدهن بهن على الخلاف وما يرتفع ما بعدهن بهن على الاتفاق.

(٤٠) أي أبو علي.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ ــ قوله تعالى: ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ [سورة الكهف: ٤٤].

قال أبو علي في الحجة(٤١): «يكون ن ﴿هنالك﴾ مستقراً، فيكون قوله ﴿لله﴾ حالاً من ﴿الولاية﴾ أو من الذكر الذي في ﴿هنالك﴾ في قول سيبويه(٤٢)، وعلى قول أبي الحسن ومن رفع بالظرف من ﴿الولاية﴾ فقط، ويكون ﴿لله﴾ مستقراً و﴿هنالك﴾ ظرفاً متعلقاً بالمستقر ومعمولاً له».

فقال جامع العلوم في الجواهر(٤٣): «وقوله ﴿لله﴾ حال من الذكر في ﴿هنالك﴾ أو من ﴿الولاية﴾ على قول سيبويه=سهوٌ أيضاً، كما سها في ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ [سورة هود: ٤١] وقوله: ﴿له أصحابٌ﴾ [سورة الأنعام: ٧١]...».

وقال في كشف المشكلات(٤٤): «ويجوز أن يكون ﴿الولاية﴾ مبتدأ و﴿هنالك﴾ خبر، وفيه ذكر من المبتدأ، و﴿لله﴾ حال من ذلك الذكر. ومن رفع بالظرف كان ﴿لله﴾ حالاً من ﴿الولاية﴾، ولا يكون في ﴿هنالك﴾ إذ ذاك ذكر. هذا هو الصحيح في هذه الآية كما أنبأتك. وذاك الكلام اللطيف(٤٥) المختصر الذي لا تفهمه إلا بعد التأمل ومراجعتك إياي مرة بعد أخرى=فيه سهو تفهمه إذا تأملت بما ذكرنا ههنا».

قلت: موضع السهو في كلام أبي علي أن من رفع ﴿الولاية﴾ بالابتداء وجعل الخبر ﴿هنالك﴾ كان (لله) عنده حالاً من الضمير الذي في (هنالك) ليس غير.

٥ ــ قوله تعالى: ﴿فلّما أتاها نودي يا موسى، إني أنا ربك فاخلع

---

(٤١) ٣٠/١.

(٤٢) كان في مطبوعة الحجة: «فيكون قولك لله... ومن الذكر... في قوله سيبويه» فصححته.

(٤٣) ص ٥٢٤.

(٤٤) ص ٤٩٦.

(٤٥) يريد كلام أبي علي في الحجة.

نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ [سورة طه: ١١—١٣] .

عزا جامع العلوم في الجواهر (٤٦) إلى أبي علي أنّ قوله ﴿ وأنّا اخترناك ﴾ وهي قراءة حمزة من السبعة (٤٧) محمول على ﴿ أني أنا ربك ﴾ بالفتح .

وقد قال جامع العلوم في كشف المشكلات (٤٨) : «ولم يتكلم فارسهم (٤٩) في ذا مع أن موضوع كتابه لهذا» . يريد الحجة . وقد ذكر أبو علي في الحجة (٥٠) وجهي القراءة ولم يتكلم عليهما .

وما عزاه جامع العلوم إلى أبي علي هو قول الفراء (٥١) ، ووافقه الزجاج (٥٢) ، وأجازه العكبري (٥٣) .

فقال جامع العلوم في الجواهر (٥٤) : «فسبحان الله ! إن من قرأ ﴿ أني أنا ربك ﴾ بالفتح يقرأ ﴿ وأنا اخترتك ﴾ وهما ابن كثير وأبو عمرو ، فكيف نحمل عليه ؟ إنما ذلك على قوله ﴿ فاستمع ﴾ أو على المعنى ، لأنه لمّا قال ﴿ فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ﴾ كأنه قال : اخلع نعليك لأنك بالوادي المقدس طوى . ولو قال ذلك صريحاً لصلح ﴿ وأنا اخترناك ﴾ على تقدير : ولأنا اخترناك ، أي : اخلع نعليك لهذا ولهذا» اهـ .

---

(٤٦) ص ١٢١ .

(٤٧) انظر السبعة ٤١٧ ، والتيسير ١٥٠ ــ ١٥١ ، والنشر ٢/٣١٩ ــ ٣٢٠ .

(٤٨) ص ٥٢٧ .

(٤٩) أي فارس النحاة أبو علي ، وانظر ما سلف موضع الحاشية ٦ في المتن .

(٥٠) ج ٣/٤٥٤ ــ ٤٥٥ من مخطوطة مكتبة مراد ملا .

(٥١) معاني القرآن له ٢/١٧٦ .

(٥٢) معاني القرآن وإعرابه له ج ٢/١٩٧/٢ من مخطوطة الظاهرية .

(٥٣) التبيان في إعراب القرآن ٨٨٦ .

(٥٤) ص ١٢١ . وكان في المطبوعة : «بالفتح يقرأ وأنا اخترناك» وهو خطأ من الناسخ أو الناشر

وقال في موضع آخر من الجواهر[٥٥]: «فإن قلت: ولم لا تحمل ﴿وأنّا اخترناك﴾ على ﴿نودي﴾ في قوله: ﴿نودي يا موسى. أني أنا ربك... وأنّا اخترناك﴾ أي نودي بأني أنا ربك وأنّا اخترناك؟ = قيل: ﴿أنّا اخترناك﴾ قراءة حمزة، وهو يقرأ ﴿إني أنا ربك﴾ مكسورة الألف، فكيف تحمله عليه؟ وقد ذكرنا ما في هذا في (البيان) و(الاستدراك)» اهـ.

وقال في موضع آخر من الجواهر[٥٦] أيضاً: «وأما قوله ﴿وأنّا اخترناك﴾ بالفتح والتشديد، عن الزيات[٥٧] والأعمش، وهما يقرآن ﴿إني أنا ربك﴾ بالكسر = فقد سهوا بأسرهم[٥٨] ...... وأين هم من هذا، لم يتأملوا في أول الكلام، ولم ينظروا في قراءة الزيات، والله أعلم» اهـ.

قلتُ: الحمل على المعنى ظاهر التكلف. أما حَمْلُه على (استمع) فقد تقدمه إليه النحاس في القطع والائتناف[٥٩]، والظاهر أن المؤلف لم يقف عليه. ونصَّ جامع العلوم أن اللام في (لما يوحى) بمعنى (إلى) لأنه (لا يتعدى فعلٌ واحد بحرفي جر متفقين) واختار هذا الوجه في موضع من الجواهر[٦٠]، وأجاز القولين في موضع آخر[٦١].

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦ ــ قوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذِكْر من ربهم محدثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبُهم﴾ (سورة الأنبياء: ٢ ــ ٣).

قال جامع العلوم في كشف المشكلات[٦٢]: «فأما انتصاب قوله

---

(٥٥) ص ٦٨٢ ــ ٦٨٤. وكان في المطبوعة: «وأنااخترتك» في المواضع الثلاثة و«قيل إن اخترناك» و(حمزة وهي تقرأ) وهو تحريف وخطأ والصواب ما أثبت.

(٥٦) ص ٥٩٥.

(٥٧) هو حمزة.

(٥٨) ثم ذكر أنه محمول على المعنى، وهو أحد الوجهين اللذين أجازهما في الجواهر ١٤١.

(٥٩) ص ٤٦٥.

(٦٠) ص ٦٨٣

(٦١) ص ١٢١.

(٦٢) ص ٥٥٢ ــ ٥٥٣.

﴿لاهية﴾ فعلى الحال من الضمير في ﴿يلعبون﴾، وإن شئت كان حالاً بعد حال.

ويرتفع ﴿قلوبهم﴾ بقوله ﴿لاهية﴾.... فكما لا يصح لأحد أن يزعم أن ﴿قلوبهم﴾ مبتدأ=فكذلك لا ينبغي أن يقول[٦٣] هو في الظرف إذا جرى حالاً لذي حال: إن ما بعده مبتدأ، فقال في قوله ﴿اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها﴾[٦٤] [سورة هود: ٤١]: إن ﴿مجراها﴾ يرتفع بالابتداء إذا جعلت ﴿بسم الله﴾ حالاً من الضمير في ﴿اركبوا فيها﴾، يعني الهاء المجرورة بـ (في) وكذلك لا يصح قوله في قوله تعالى: ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب﴾ [سورة الأنعام: ٧١]: إن جعلت ﴿له﴾ حالاً من الضمير في ﴿حيران﴾ كان ﴿أصحاب﴾ مرتفعاً بالابتداء في قول سيبويه.

وكيف يدّعي هذا والظرف واسم الفاعل في هذا الباب سيان؟! وهو قد سلّم هذا، ولكني لو رأيته يقتصر على موضع واحد حملته على السهو، فكنت أتجاوز عن ذا، ولكنه كرر وأصرّ عليه، وأعياني كلامه في هذا» اهـ.

وقال في الجواهر[٦٥]: «قال أبو علي: فإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿حيران﴾ ولم تجعله صفة له=ارتفع أصحاب بالابتداء في قول سيبويه، وفيه ذِكر يعود إلى المبدأ، ثم قال جامع العلوم: «وعندي في هذا نظر، لأن الحال في جريه على صاحبه....... فلا وجه لما قال عندنا» اهـ.

وقال في الجواهر[٦٦] أيضاً: «فسبحان الله! أنت تنص في عامة كتبك على أن الحال والصفة والصلة والاستفهام بمنزلة واحدة، فمن أين هذا الارتباك؟» اهـ.

---

(٦٣) يعني أبا علي.
(٦٤) انظر ما سلف موضع الحاشية ٣٥ في المتن.
(٦٥) ص ٥٢١.
(٦٦) ص ٥٢٣.

ولم أصب كلاماً لأبي علي في هذه الآية أعني آية سورة الأنعام.

٧ ــ قوله تعالى: ﴿فانظر ماذا تُرَى﴾ [سورة الصافات: ١٠٢].

قال أبو علي في الحجة(٦٧): «ولو قرأ قارئ ﴿ماذا تُرَى﴾ لم يجز لأن (ترى) يتعدى إلى مفعولين، وليس هنا إلا مفعول واحد. والمفعول الواحد إما أن يكون (ماذا) بمجموعه، وإما أن يكون الهاء التي تقدرها محذوفة من الصلة إذا قدرت (ذا) بمنزلة (الذي). فإذا قدرتها محذوفة كانت العائدة إلى الموصول، فإذا عاد إلى الموصول اقتضى المفعول الثاني، فيكون ذلك كقوله تعالى ﴿أين شركائيَ الذين كنتم تزعمون﴾ [سورة القصص: ٦٢] ألا ترى أن التقدير: أين شركائيَ الذين كنتم تزعمونهم إياهم أي تزعمونهم شركائيَ، فحذف المفعول الثاني لاقتضاء المفعول الأول الذي في تقدير الإثبات في الصلة إياه. فهو قول ويكون مثل هذه الآية.

وكذلك إن قدرت (ما) و(ذا) بمنزلة اسم واحد صار (ماذا) في موضع نصب بكونه مفعولاً لـ (ترى) ويكون المفعول الثاني محذوفاً، كأنه: ماذا ترى كائناً منك أو واقعاً منك ونحو ذلك. و(أرى) بمنزلة (زعمت) و(ظننت) ونحوه، ألا ترى أنه ذكر في هذا الباب، وذلك أنه منقول من أريتُ زيداً عمراً خير الناس، فإذا بنيته للمفعول أقمت المفعول الأول مقام الفاعل، فبقي المفعولان اللذان كانا مفعولي ظننت وخلت ونحوهما» اهـ.

فقال جامع العلوم في كشف المشكلات(٦٨): «... ووقع في الحجة سهو، وسقط من لفظ الكتاب شيء، فينبغي أن نورده في ذلك الكتيب في المسائل المأخوذة عليه. ولكني ينبغي لي أن أتفحص مرة أخرى عن ألفاظه، فربما أقع على كلام له قد نطق فيه بالصواب فآخذ به عليه ليكون أوفق وأحسن» اهـ.

---

(٦٧) ج ٤/١٩٤ ــ ١٩٥ من مخطوطة مكتبة مراد ملا.

(٦٨) ص ٧٢٢.

ولم يبيّن جامع العلوم موضع السهو والسقط.

أما السقط فلعله وقع عند قول أبي علي «فيكون ذلك كقوله تعالى... فهو قول»، فكأن قوله ﴿فهو قول﴾ جواب لكلام شرطي غير مذكور.

وأما السهو فهو أن أبا علي ذكر أن (ترى) من (أرى) المتعدية إلى مفعولين ثم ذكر أنها من المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل، ولا يجوز الاقتصار على المفعول الثاني في هذا الباب. ثم سها في قوله «فإذا بنيته للمفعول...» فلو بنيناه للمفعول لقلنا (أُري زيد عمراً خير الناس) والله أعلم.

٨ ــ قوله تعالى: ﴿إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ [سورة ص: ٤٦] قال أبو علي في الحجة[٦٩] في توجيه قراءة نافع ﴿بخالصة ذكرى﴾ مضافاً وقراءة باقي السبعة[٧٠] (بخالصةٍ) منونة: «من قال ﴿بخالصةٍ ذكرى الدار﴾ احتمل أمرين: أحدهما أن يكون بدلاً من الخالصة... ويجوز ألا تقدر البدل، ولكن يكون الخالصة مصدراً، فيكون مثل ﴿من دعاء الخير﴾ [سورة فصلت: ٤٩] فيكون المعنى: بخالصة تذكّرَ الدار... ويقوي ذلك أن من نصب خالصة أعملها في [ذكرى] الدار كأنه: بأن أخلصوا تذكّرَ الدار...» اهـ.

فقال جامع العلوم في كشف المشكلات[٧١]: «وفي الحجة سهو... فكتب موضع (أضاف) (نصب)، ولم يصلحه الرَّبَعي[٧٢] ولا البصري[٧٣]» اهـ.

---

(٦٩) ج ٤/٢٠٤ ــ ٢٠٥ من مخطوطة مراد ملا. وكان فيها «تذكير الدار» في الموضعين، وهو تصحيف.

(٧٠) السبعة لابن مجاهد ٥٥٤، والمبسوط ٣٨١. وفي التيسير ١٨٨ أنها قراءة هشام عن ابن عامر أيضاً، وفي النشر ٢/٣٦١ أنها رواية الحلواني عن هشام.

(٧١) ص ٧٣٥.

(٧٢) هو علي بن عيسى أبو الحسن الربعي صاحب أبي علي الفارسي (ت ٤٢٠ هـ). انظر ترجمته ومصادرها في إنباه الرواة ٢/٢٩٧. (ت ٤٠٥ هـ).

(٧٣) هو عبد السلام بن الحسين أبو أحمد البصري (ت ٤٠٥ هـ)، وكان إليه حفظ دار الكتب ببغداد والإشراف عليها، أخذ عن أبي علي وابن جني، انظر ترجمته في إنباه الرواة ٢/١٧٥.

٩ ـــ قوله تعالى: ﴿وآخَرُ من شكله أزواجٌ﴾ [سورة ص: ٥٨] قال أبو علي في الحجة(٧٤): «... ومن قرأ وقال ﴿وآخر من شكله أزواج﴾(٧٥) و﴿آخر﴾ يرتفع بالابتداء في قول سيبويه، وفيه ذكر مرفوع عنده، وبالظرف في قول أبي الحسن، ولا ذكر في الظرف لارتفاع الظاهر به.

وإن لم تجعل ﴿آخر﴾ مبتدأ في هذا الوجه خاصة وقلت: لأنه يكون ابتداء بالنكرة، فلا أحمل على ذلك، ولكن لمّا قال ﴿هذا فليذوقوه حميم وغسّاق﴾ [سورة ص: ٥٧]=دلّ هذا الكلام على أن لهم حميماً وغسّاقاً فحُمل المعطوف على المعنى فجعل (لهم) المدلول على خبراً (لـ) آخر=فهو قول، فكان التقدير: لهم عذاب آخر من شكله أزواج، فيكون ﴿من شكله﴾ في موضعة الصفة، ويكون ارتفاع (أزواج) به في قول سيبويه وأبي الحسن...» اهـ.

فقال جامع العلوم في الجواهر(٧٦): «... يرتفع ﴿أزواج﴾ بالظرف على المذهبين، لأن قوله ﴿من شكله﴾ جرى وصفاً على (آخر) فهو كقولك: مررت برجل في داره عمرو. وسها الفارس(٧٧) أيضاً في هذه الآية، فقال: ومن رفع بالابتداء، ولا يرفع هذا أحد بالابتداء. وهذا كما سها في قوله ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾(٧٨) [سورة هود: ٤١]، وقوله ﴿هنالك الولاية لله الحقّ﴾(٧٩) [سورة الكهف: ٤٤]. هذه ثلاث آيات سها فيها، وتردّد كلامه. وسها أيضاً في قوله ﴿له أصحاب يدعونه﴾(٨٠) [سورة الأنعام: ٧١]...» اهـ.

---

(٧٤) ج ٢١٢/٤ من مخطوطة مكتبة مراد ملا.

(٧٥) هذه قراءة غير أبي عمرو من السبعة، فقرأ وحده ﴿وأُخر﴾ بالجمع، انظر السبعة ٥٥٥، والتيسير ١٨٨، والنشر ٣٦١/٢.

(٧٦) ص ٥٣١.

(٧٧) في المطبوعة «الفارسي» والظاهر أنه خطأ من الناشر أو الناسخ. فجامع العلوم يسمي أبا علي (الفارس) أو (فارسهم) يعني فارس النحاة، انظر ما سلف موضع الحاشية ٦ في المتن.

(٧٨) انظر ما سلف موضع الحاشية ٣٥ في المتن.

(٧٩) انظر ما سلف موضع الحاشية ٤١ في المتن.

(٨٠) انظر ما سلف في موضعي الحاشيتين ٣٦ و ٦٤ في المتن.

قلتُ: ظاهر كلام جامع العلوم أن أبا علي أجاز أن يكون ﴿من شكله﴾ وصفاً لـ ﴿آخر﴾ وأن يرتفع ﴿أزواج﴾ بالابتداء. وليس كذلك، فقد نصَّ أبو علي أنه يرتفع بالظرف (في قول سيبويه وأبي الحسن) بلا خلاف في الوجه الثاني الذي أجازه، وهو أن يكون ﴿آخر﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره (لهم) وهو الوجه الذي اقتصر عليه جامع العلوم في كشف المشكلات[81].

وقد سها أبو علي في الوجه الأول الذي أجازه، وهو أن (آخر) «يرتفع بالابتداء في قول سيبويه، وفيه ذكر مرفوع عنده، وبالظرف في قول أبي الحسن، ولا ذكر في الظرف لارتفاع الظاهر به» اهـ وهو كلام مضطرب.

ومراد أبي علي أن ﴿آخر﴾ مبتدأ وقوله ﴿من شكله أزواج﴾ خبره، وفيه قوله ﴿ومن شكله﴾ ضمير مرفوع به و﴿أزواج﴾ مبتدأ ثان في قول سيبويه ويرتفع (أزواج) بالظرف (من شكله) في قول أبي الحسن. وهذا هو ما فهمه مكيّ من كلام أبي علي، ومنه أخذ في كتابيه الكشف[82] عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ومشكل إعراب القرآن[83].

وموضع السهو في كلام أبي علي إجازته ارتفاع (آخر) بالابتداء وهو نكرة وليس من المواضع التي يجوز الابتداء فيها بالنكرة، وأنه قال: إن في الظرف ﴿من شكله﴾ ضميراً و﴿أزواج﴾ رفع بالابتداء، وهذا لا يرفعه أحد بالابتداء لجري الظرف ﴿من شكله﴾ خبراً على المبتدأ.

١٠ ــ قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ [سورة الزمر: ٦٧].

(٨١) ص ٧٣٧.
(٨٢) ص ٢/٢٣٣.
(٨٣) ٢/٦٢٧ــ٦٢٨.

قال جامع العلوم في كشف المشكلات[٨٤]: «قال في الحجة: التقدير: والأرض ذات قبضته إذا كانت مجتمعة، وقال في الحلبيات: التقدير: والأرض مقبوضة إذا كانت مجتمعة. فتردد كلامه في العامل في (إذا). فعلى التقدير الذي في الحجة لا يتأتى إعمال (قبضته) في (إذا) لأنه قدره (ذات قبضته) والمضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف. ألا ترى أنهم قالوا: أنت زيداً مثل ضارب لا يجوز نصب (زيد) بـ (ضارب) لأن ما بعد المضاف لا يعمل فيما قبل المضاف.

فإن قيل: فأنتم تقولون: «أنت زيداً غير ضارب» فتنصبون زيداً بـ (ضارب) فقد ذكرنا أن قولهم: «أنت زيداً غير ضارب» محمول على النفي.

وعلى التقدير الذي في الحلبيات يتأتى إعمال (قبضته) في (إذا) لأنه بمعنى مفعول ..... والحجة صعبة، ولولا ما فيها من هذه المسائل لكان بالحرى أن يشرع فيه من له أدنى تأمّل» اهـ.

ARCHIVE

وما نقله جامع العلوم عن الحجة لم أصبه فيها. وأما ما حكاه عن الحلبيات فهو معنى قول أبي علي فيها[٨٥]: «والأرض قبضته إذا تكون جميعاً» والقبضة مصدر .

http://archive.sakhr.com

ونقل جامع العلوم في الجواهر[٨٦] كلاماً لأبي علي في التذكرة يدفع فيه التقدير الذي عزاه جامع العلوم إلى الحجة، قال أبو علي: «لا يجوز أن يكون ﴿جميعاً﴾ منصوباً على تقدير: إذا كانت جميعاً لأن (إذا) تبقى غير متعلقة بشيء، لأن القبضة مصدر فلا تعمل فيما قبلها، ولكنه على أن تجعل المصدر بمعنى المفعول أي المقبوض، والمفعول ينصب ما قبله وإن لم يعمل المصدر فيما قبله ...» اهـ.

---

(٨٤) ص ٧٤٩.

(٨٥) ص ١٩٦.

(٨٦) ص ٧٢٩. وكان في المطبوعة «أن تجعل المصدر بعني المفعول» وهو تحريف.

لكن ذهب أبو علي في الحلبيات[٨٧] إلى أن الناصب للحال ما في ﴿قبضته﴾ من معنى الفعل، وجعلت الأرض القبضة على الاتساع، ثم أجاز أن تكون (قبضته) مصدراً، والتقدير: ذات قبضته، وعمل في الظرف والحال وإن تقدم عليه، وهو ما قدره فيما نقله جامع العلوم من الحجة، فاضطرب كلام أبي علي.

١١ ــ قول تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾ [سورة الشورى: ٥١].

نقل جامع العلوم في شرح اللمع[٨٨] في كلامه على هذه الآية قول أبي علي في التذكرة: «لا أعلق قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ بـ (يكلم) المنصوب في قوله ﴿أن يكلمه﴾ لأن في ذلك إعمال ما قبل (إلا) فيما بعده، وذلك ممتنع، ولكني أعلقه بـ (يكلم) آخر مضمر لجري ذكره...... فمن نصب[٨٩] ﴿أو يرسل﴾ قدّر: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو يُكلّم من وراء حجاب أو يرسل. ومن رفع[٨٩] ﴿أو يرسلُ﴾ قدّر: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو مكلماً من وراء حجاب لأن قوله ﴿إلا وحياً﴾ في تقدير: إلا موحياً، فكأنه قال: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحياً أو مكلماً من وراء حجاب أو مرسلاً رسولاً» اهـ.

قال جامع العلوم: «فقدّر مع المرفوع اسم الفاعل في موضع الحال ومع المنصوب الفعل. هذا كلامه الصحيح في التذكرة. وقد خلّط في الحجة[٩٠]. وإذا عرض لك كلامه في موضع قد خلّط فيه فلا تقفن عند ذلك الكلام. بل تتبع كلامه، فإنه لا يقتصر على دفعة في حل المشكلات، بل يكررها في كتبه

(٨٧) ص ١٩٦.

(٨٨) اللوح ٢/٧٩ ــ ٢/٨٠. وانظر كشف المشكلات ٧٧٣، والجواهر ٨٥٧ ــ ٨٥٩.

(٨٩) الرفع قراءة نافع. واختلف عن ابن عامر، فروي عنه الرفع، وهو ما في السبعة ٥٨٢، وروي عنه النصب، وهو ما في التيسير ١٩٥، وروي قراءة باقي السبعة، وانظر النشر ٢/٣٦٨.

(٩٠) ج ٤/٢٥٤ ــ ٢٥٩ من مخطوطة مراد ملا.

مرة بعد أخرى وأنت إذا وقفت واقتصرت على كلامه في موضع لم تَحْلَ / بطائل ولم يجد عليك ولم يعبق بك من فوائده شيء، وينبغي أن تعرف حقي عليك وتشكرني على ما أمنحكه من فوائده وتدعو لي آناء ليلك ونهارك، فربما يمتعك الله بذلك، وإلا لم يكن فيما استفدت تمتُّع.

وأعجب من هذا أنه خلّط في الحجة في تعليق (مِنْ) ولم يذكر كلاماً مفهوماً. وذلك لأنه أراد أن يقول مثل ما حكيته لك، فقال بعد ذلك الكلام[٩١]: ويمتنع أن يتصل به الجار من وجه آخر، وهو أن قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ في صلة (وَحْي) الذي هو بمعنى (أن يوحي). فإذا كان كذلك لم يجز أن تحمل الجار الذي هو (مِنْ) ([في] قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ على ﴿أو يرسل﴾ لأنك تفصل بين الصلة والموصول بما ليس منهما، ألا ترى أن المعطوف على الصلة في الصلة؟ فإذا حملت العطف على ما ليس في الصلة فصلت بين الصلة والموصول بالأجنبي الذي ليس منهما.

قلتُ[٩٢]: تصحيح هذا الكلام أنّ (مِن) لو كان في صلة (يكلم)، وكان (يرسل) عطفاً على (وحي) لكان فصلاً بين الصلة والموصول.

وقوله «لم يجز أن تحمل الجار الذي هو (مِنْ) في قوله ﴿من وراء حجاب﴾ على (يرسل)»= سهوٌ، وإنما هو على (يكلم). هكذا وقع في جميع النسخ[٩٣] وهذا إصلاحه.

ثم قال قبل هذا الكلام في قوله ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ (سورة هود: ٢٧): إن انتصاب ﴿بادي الرأي﴾ إنما هو بقوله ﴿اتبعك﴾ وإن كان قبل (إلا) فجاز أن يُعمل فيما بعده، قال: لأن ﴿بادي

---

(٩١) الحجة ج ٤/٢٥٦ ـ ٢٥٧ من مخطوطة مراد ملا.

(٩٢) القائل جامع العلوم.

(٩٣) أي نسخ الحجة.

الرأي﴾ ظرف، والظرف يكتفي فيه برائحة الفعل(٩٤). فسبحان الله! أليس قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ ظرفاً(٩٥) أيضاً؟ فما بال ﴿بادي الرأي﴾ يعمل فيه ﴿اتبعك﴾ قبل (إلا) ولا يعمل في قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ قوله ﴿أن يكلم﴾؟ أليسا ظرفين؟ فلم جاز هناك ولم يجز ههنا؟.

وإن كان كلامك على الامتناع فلمَ لمْ تحمل ﴿بادي الرأي﴾ على المصدر دون الظرف؟ ولا تعمل فيه اتبعك لتتخلص من إعمال ما قبل (إلا) فيما بعد (إلا)، ولم يكن في كلامك نقض.

فهَبْكَ استقر كلامك على ما ذكرته في التذكرة، ففهمنا بذلك أن الذي وقع في الحجة تخليط، فلم ناقضت في هذا فذكرت في (عسق)(٩٦) خلاف ما ذكرت في (هود)؟.

وعلى الجملة فقد عفا الله عنك، إذ لولاك لَماَ فُهم كتاب سيبويه ولا مشكلاته، وإذا كان كذلك فبك نأخذ عليك» اهـ.

١٢ ــ قوله تعالى: ﴿وتبارك الذي له ملكُ السموات والأرض وما بينهما وعنده عِلْمُ الساعةِ وإليه تُرجَعُون. ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ اللهُ فأنَّى يؤفكون. وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ [سورة الزخرف: ٨٥ ــ ٨٨].

قال أبو علي في الحجة(٩٧) في توجيه قراءة عاصم وحمزة من السبعة(٩٨)

---

(٩٤) عبارة أبي علي في الحجة ج ٣/١٩٣ ــ ١٩٥ من مخطوطة مراد ملا: (... والعامل في هذا الظرف هو قوله ﴿اتبعك﴾ والتقدير: ما اتبعك في أول رأيهم أو فيما ظهر من رأيهم إلا أراذلنا، فأخر الظرف وأوقع بعد إلا، ولو كان بدل الظرف غيره لم يجز ...).

(٩٥) في الأصل: ظرف، وهو خطأ.

(٩٦) هي سورة الشورى.

(٩٧) ج ٤/٢٧٦ من مخطوطة مراد ملا.

(٩٨) انظر السبعة ٥٨٩، والتيسير ١٩٧، والنشر ٢/٣٧٠.

﴿وقيلِه﴾ بالجر: «وجه الجر في قوله ﴿وقيلِه﴾ على قوله ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: يعلم الساعة ويصدق ويعلم قيله، ومعنى (يعلم قيله): أي يعلم أنّ الدعاء مندوب إليه...» اهـ.

فقال جامع العلوم في كشف المشكلات[٩٩]: «وكان أبو علي يقول ﴿وقيلِه﴾ يعني الدعاء إليه، وليس بالوجه، وقد تقدم في الاستدراك» اهـ.

وقال في الجواهر[١٠٠]: «قول أبي علي هذا فيه نظر، لأن الضمير في قوله ﴿وعنده علم الساعة﴾ يعود إلى الله سبحانه، هو العالم بوقت حلولها. وإنما التقدير: وعنده علم وقوع الساعة. ولا يتوجه على هذا عطف ﴿وقيلِه﴾ على موضع ﴿الساعة﴾ على معنى ما قال أبو علي «ويعلم قيله أي يعلم أن الدعاء مندوب إليه» لأن هذا مما الأشبه به أن يكون من صفة الرسول.

وبعدُ فليُعلم أن المصدر الذي هو (قيل) مضاف إلى الهاء وهي مفعولة في المعنى لا فاعلة، أي وعنده علم أن يُقال (يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) والمصدر هنا مضاف إلى المفعول لا إلى الفاعل» اهـ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٣ ــ قوله تعالى: ﴿نٓ والقلم﴾ [سورة القلم: ١].

قال أبو علي في الحجة[١٠١] في الاحتجاج لإظهار النون من ﴿نٓ﴾: «وجه إظهار هذه النونات[١٠٢] أنها من حروف ينوى بها الوقف. وإذا كانت

---

(٩٩) ص ٧٨٠.

(١٠٠) ص ٤٩١. وكان في المطبوعة: «وبعد أن يعلم» وهو خطأ صوابه ما أثبت من المحتسب ٢/٢٥٨ــ٢٥٩، وعنه نقل المؤلف قول: وبعد... إلى آخر كلامه.

(١٠١) ج ٣٨٩/٤ من مخطوطة مكتبة مراد ملا.

(١٠٢) في قوله تعالى ﴿ن والقلم﴾ و﴿يس. والقرآن الحكيم﴾ [سورة يس: ١ــ٢] و(طسٓمٓ) [سورة الشعراء، والقصص: ١].

وقد قرأ بإدغام النون في الواو في (ن والقلم) و(يس والقرآن) الكسائيُّ وهشام عن ابن عامر من السبعة، واختلف عن ورش عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وأبي بكر عن عاصم فروي عنهم الإدغام والإظهار، وقرأ الباقون بالإظهار. انظر السبعة ٦٤٦، والتيسير ١٨٣، والنشر ←

موقوفة بدلالة اجتماع الساكنين فيها نحو (لام) (كاف) (صاد) = كانت في تقدير الانفصال مما قبلها ...» اهـ.

فقال جامع العلوم في كشف المشكلات[١٠٣] : «.. وفي هذا الفصل سهو في كتاب[١٠٤] أبي علي لأنه قال حيث قلنا «مما بعدها» : «مما قبلها» اهـ.

١٤ ــ قوله تعالى : ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ [سورة القيامة: ١].

قال أبو علي في الحجة[١٠٥] : «فأما قول ابن كثير[١٠٦] ﴿لأقسم بيوم القيامة﴾ فإن اللام يجوز أن تكون التي تصحبها إحدى النونين في أكثر الأمر. وقد حكى ذلك سيبويه وأجازه. وكما لم تلحق النون مع الفعل في الآي كذلك لم تلحق اللام مع النون في نحو قول الشاعر[١٠٧] :

وقتيلُ مرَّةَ أثأرنَّ فإنَّه ... فرغٌ وإنَّ أخاهم لم يُثأرِ

يريد لأثأرن، فحذف اللام.

ويجوز أن تكون اللام لحقت فعل الحال. فإذا كان المثال للحال لم يتبعها النون، لأن هذه النون التي تلحق الفعل في أكثر الأمر إنما هي للفصل بين فعل الحال والفعل الآتي.

← ٣٨٩/٢، ١٨. وأما النون في (طسم) فأظهرها حمزة وحده من السبعة وأدغمها الباقون. انظر السبعة ٤٧٠، والتيسير ١٦٥، والنشر ١٨/٢.

(١٠٣) ص ٨٨٠.

(١٠٤) هو الحجة.

(١٠٥) ج ٤١٨/٤ ــ ٤١٩ من مخطوطة مكتبة مراد ملا.

(١٠٦) في رواية قنبل كما في السبعة ٦٦١، وهي رواية البزي أيضاً كما في التيسير ١٢٦، والنشر ٣٩٣/٢، ٢٨٢ فلا اختلاف عن ابن كثير عندهما.

(١٠٧) وهو عامر بن الطفيل. والقافية مغيرة، وصوابها «لم يُقْصَدِ» انظر ديوانه ص ٥٦، وشرح أبيات المغني ٣/٨ ــ ٥. وقوله «فرغ» معناه: هَدَرٌ، يُقال: ذهب دم فلان فرغاً أي باطلاً هدراً لم يُطلب به، عن اللسان (ف ر غ). وقوله «وقتيلُ» بالرفع على الابتداء، وينشد «وقتيلِ» بالجر على أن الواو للقسم، ويُنشد بالنصب أيضاً بالعطف على موضع «مالك» المجرور بالباء الزائدة في قوله قبل هذا البيت:

ولأثأرن بمالك وبمالك ... وأخي المروراة الذي لم يُسْنَدِ

وقد يمكن أن تكون اللام ردّاً لكلام... » اهـ.

فقال جامع العلوم في كشف المشكلات[١٠٨] : « وروي عن ابن كثير ﴿لأُقسم﴾ وهو لام القسم، والتقدير: لأُقسمنّ، ولكنه جاء أيضاً بلا نون. كذا ذكره[١٠٩] في الحجة، ورجع عنه في التذكرة، وزعم أن اللام زيادة لأن القسم لا يدخل على القسم. وقد اشبعت القول فيه في الاستدراك... » اهـ.

وذهب جامع العلوم في الجواهر[١١٠] إلى أن الصحيح أن التقدير: (لأنا أقسم، فاللام لام المبتدأ، والمبتدأ محذوف اهـ. وهذا قول ابن جني في المحتسب[١١١]. ولعل هذا هو مراد أبي علي في قوله في الحجة: « ويجوز أن تكون اللام لحقت فعل الحال ».

١٥ ــ قول امرئ القيس[١١٢]:

فلما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينك منظرا

نقل جامع العلوم في كشف المشكلات[١١٣] عن أبي علي أنه ذهب إلى أنه « لا يجوز انتصاب (منظر) على المصدر لأن الغرض منه التقليل حيث قال (ولم تنظر) فلا يؤكد بالمصدر ما أريد به النفي والتقليل » وقال جامع العلوم « قال ذلك في الحجة ثم فار فائره فذكر في التذكرة ما منع منه في الحجة » اهـ.

قلت: لم يتكلم أبو علي في الحجة على قول امرئ القيس إلا في موضع واحد منها[١١٤]، وذهب ثمة إلى أن منظراً مفعول به.

(١٠٨) ص ٩٠٣.
(١٠٩) أي أبو علي.
(١١٠) ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧.
(١١١) ٣٤١/٢.
(١١٢) ديوانه ص ٦١.
(١١٣) ص ٤٥٥.
(١١٤) الحجة ج ٣٥٨/٤ من مخطوطة مكتبة مراد ملا (الورقة المكررة الترقيم).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وما عزاه جامع العلوم إلى أبي علي قاله أبو علي في البصريات[١١٥]، قال: «ألا ترى أنه لا يحسن أن تؤكد إذا أردت تقليله وانتفاءه» اهـ.

١٦ ــ قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي[١١٦]:

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترا قبلي أسيراً يمانيا

قال جامع العلوم في كشف المشكلات[١١٧]: «... والأصل: كأن لم ترَ فأشبع الفتحة فتولدت منها ألف. هكذا قال[١١٨] في عامة كتبه إلا في موضع واحد، وهو أنه زعم أن أصله (كأن لم ترأى)... فلما حذف الألف وصار (ترأ) أبدل من الهمزة ألفاً بعد نقل فتحتها إلى الراء فصار (كأن لم ترا). ثم رجع عنه في أوائل الحجة وقال: هذا يؤدي إلى توالي إعلالين. وتوالي إعلالين مرفوض في كلامهم» اهـ.

وما عزاه إلى عامة كتب أبي علي هو في الحجة[١١٩]، والعسكريات[١٢٠].

وقوله «إلا في موضع واحد» يريد في الحلبيات[١٢١].

وما عزاه إلى الحجة هو فيها[١٢٢]، وقد حكى المؤلف كلامه بتصرف.

●

---

(١١٥) ص ٢٨٠.

(١١٦) المفضليات ص ١٥٨، وسر الصناعة ٧٦ ــ ٧٧، وضرورة الشعر ١٦٢، وشرح أبيات المغني ٥/١٣٧ ــ ١٣٩، وانظر استقصاء تخريجه في ضرورة الشعر.

(١١٧) ص ٥٤٥.

(١١٨) أي أبو علي.

(١١٩) ١/٩٣ و٢/٣٢٥، ج ٣/٤٧١ من مخطوطة مكتبة مراد ملا.

(١٢٠) ص ١٤٩.

(١٢١) ص ٨٤ وما بعدها.

(١٢٢) الحجة ١/٩٤ ــ ٩٥.

مصادر البحث

إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، لعبد الباقي اليماني، تحقيق الدكتور: عبد المجيد دياب، الرياض ١٩٨٦.

إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة ١٩٦٣. وهو كتاب «الجواهر» لجامع العلوم الأصبهاني.

إعراب القرآن، للنحاس، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، مطبعة العاني ببغداد ١٩٧٨ — ١٩٨٠.

الأعلام، للزركلي، أشرف على الطبعة الرابعة زهير فتح الله، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩.

إنباه الرواة على أنباء النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ١٩٥٠.

الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، ط ٤، ١٩٦١.

البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، مطبعة السعادة بمصر، طبعة مصورة، دار الفكر بيروت ١٩٧٨.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٤.

البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٩.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٦.

التيسير في القراءات السبع، للداني، عني بتصحيحه أوتو برتزل، استانبول ١٩٢٠.

الجواهر، لجامع العلوم الأصبهاني = **إعراب القرآن** المنسوب إلى الزجاج.

الحجة، لأبي علي الفارسي، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٤. ونسخة محفوظة في مكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٣٥٧٠، وأخرى محفوظة في مكتبة مراد ملا باستانبول برقم ٦ ــ ٧.

ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٦٩.

روضات الجنات، للخوانساري، ايران ١٣٤٧ هـ.

السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٢.

سر صناعة الإعراب، لابن جني، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم بدمشق ١٩٨٥.

شرح أبيات مغني اللبيب، للبغدادي، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث بدمشق ١٩٧٣.

شرح الكافية، لرضي الدين الاستراباذي، طبعة مصورة، دار الباز للنشر بمكة المكرمة.

شرح اللمع، لجامع العلوم الأصبهاني، مخطوطة محفوظة بدار الكتب الشعبية بصوفية في بلغاريا برقم OP 1863.

ضرورة الشعر، للسيرافي، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٥.

كشف المشكلات وإيضاح المعضلات، لجامع العلوم الأصبهاني (تحقيق ودراسة) رسالة جامعة نال بها الدكتور محمد الدالي لقبه العلمي من جامعة دمشق ١٩٨٧.

لسان العرب، لابن منظور، دار صادر بيروت.

المبسوط في القراءات العشر، لابن مهران الأصبهاني، تحقيق سبيع حاكمي، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤٨ ج ٤ عام ١٩٧٣، والمجلد ٤٩ ج ١ عام ١٩٧٤.

المحتسب، لابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح شلبي، القاهرة ١٣٨٦ هـ.

معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، مخطوطة محفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم ١٨١.

معجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبعة مصورة، دار المستشرق ببيروت.

معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، طبعة مصورة، مكتبة المثنى ودار إحياء الكتب العربية ببيروت.

مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر ببيروت، ط ٥، ١٩٧٩.

المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط ٥، ١٩٧٦.

النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه الشيخ علي محمد الضباع، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، طبعة مصورة، دار الكتب العلمية ببيروت.

نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعة الأستاذ أحمد زكي، المطبعة الجمالية بمصر ١٩١١.

هدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي، استانبول ١٩٥١.

همع الهوامع، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٥.

آراء وأنباء

استقبال ثلاثة أعضاء عاملين في المجمع

تمَّ في شهري أيار وحزيران ١٩٨٩م استقبال السادة الأساتذة أعضاء المجمع العاملين :

الدكتور مختار هاشم
والدكتور محمد زهير البابا
والدكتور محمد احسان النص

في رحاب المدرسة العادلية التي اختارها المجمع مقرّاً له يوم تأسيسه، وأمضى فيها سنواتٍ خصبةً غنيةً بالأعمال والمآثر. إنها سنوات النشأة والتفتح والنماء بكل ما يصحبها من الحماسة والاندفاع والنشاط، تدفقت بالخير وزخرت بالعطاء، فآتت أُكُلَها جَنىً شهياً، ورزقاً طيباً، وفتحت للعربية المبينة أبواباً كانت مُوصدة.

وقد حضر الاحتفالات ثُلّةٌ كريمة من كبار رجال الفكر والأدب واللغة، عبّروا بمشاركتهم عن المكانة العالية التي يحتلها المجمع في النفوس، والتجلة التي يحاط بها.

ويُسعد مجلة المجمع أن تنشر على صفحاتها الكلمات التي أُلقيت، وهي تمور برموز الترحيب والتحية والتقدير التي استُقبل بها الأعضاءُ الزملاء، وتُفصح عن الكفايات العلمية التي يتحلّوْن بها، والأعمال الجليلة التي اضطلعوا بها، وتترقرق فيها عبارات الثقة والتفاؤل والأمل بمسيرة المجمع، وقد استمدَّ عزماً

وتصميماً جديدين، بانضمام الأساتذة الجلّة، ليمضوا معاً مع زملائهم في سبيل تحقيق أهداف المجمع التي وضع أسسها وبذر نواتها الرواد الأوائل حين تأسيسه:

النظر في إصلاح لغة المنشئين والمؤلفين، ووضع ألفاظ للمستحدثات العصرية، وتنقيح الكتب، وإحياء المهم مما خلّفه الأسلافُ منها، والترغيب في المعرفة والتأليف والتعريب (الترجمة)، حتى يكون اللسان العربي لغة حية نامية تستقي من ينابيعها القديمة السائغة، وتسير مع المدنية الحديثة سيراً محكماً لا تردد فيه، ولا خلل في متونه وحواشيه[١].

ولقد جرت هذه الاحتفالات، ومجمع الخالدين قد أُكمل السبعين من سنيه: نشأ مع نشأة الدولة العربية يوم خفقت أعلامها في سماء الشام سنة ١٩١٨م، كان بذرة طيبة سميت بشعبة الترجمة والتأليف (٢٨/١١/١٩١٨ ــ ١٢/٢/١٩١٩م)، ثم غدت ديوان المعارف (١٢/٢ ــ ٨/٦/١٩١٩م)، فلما استوت على ساقها، وأنبتت نباتاً حسناً أعجب الزرّاع قام مجمع الخالدين (يوم الأحد التاسع من رمضان سنة ١٣٣٧هـ/الثامن من حزيران ١٩١٩م)[٢].

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وها هو ذا المجمع اليوم يستقبل عامه الحادي والسبعين، أشدّ ما يكون نشاطاً، يخطو خطوة الواثق في بردَي شاب مكتهلٍ في شبيبته، يؤمّل أن تستعيد العربية ازدهارها، والأمة مجدها، يزيده وثاقةً بصدق أمله المراحلُ التي قُطعت، والتقدم الذي أحرز، والحماسة التي تتوقد في الصدور، والإيمان الذي يملأ النفوس. وكل آت قريب ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم ﴾.

---

(١) التقرير الأول سنة ١٩٢٢م، ص٣ ــ ٤، التقرير الثاني سنة ١٩٢٣م، ص٣٢، التقرير الثالث سنة ١٩٢٤م، ص٥٦.

(٢) التقرير الأول سنة ١٩٢٢م، ص٣، تاريخ المجمع العلمي العربي: ٣ ــ ٨.

حفـل استقبـال
الزميـل الأستـاذ الدكتـور مختـار هاشـم

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق في جلسته الأولى المنعقدة في ١٤٠٥/١٢/٢٠ هـ ــ ١٩٨٥/٩/٤ م (الدورة المجمعية ١٩٨٥ ــ ١٩٨٦) الأستاذ الدكتور مختار هاشم عضواً عاملاً في المجمع للكرسي الذي شغر بوفاة الأستاذ محمد المبارك. وقد صدر بذلك المرسوم ذو الرقم (٤٩٦) تاريخ ١٤٠٩/٥/١٩ هـ ــ ١٩٨٨/١٢/٢٧ م.

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الأستاذ الدكتور هاشم في جلسة علنية عقدها في قاعة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ببناء المدرسة العادلية مساء يوم الخميس ٦ شوال ١٤٠٩ هـ/١١ أيار ١٩٨٩ م، حضرها نخبة من رجال الفكر والعلم والثقافة.

افتتح الحفل الأستاذ الدكتور شاكر الفحام نائب رئيس المجمع بكلمة رحب فيها بالعضو الجديد وبارك انضمامه لزملائه المجمعيين ليشاركهم في مسيرتهم التي وقفوا أنفسهم لها، ألا وهي خدمة اللغة العربية والذود عنها، ثم ألقى الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب أمين المجمع كلمته في استقبال زميله المجمعي، نوّه فيها بمزاياه العلمية والخلقية، وذكر أطرافاً من سيرته. ثم ألقى الأستاذ الدكتور مختار هاشم كلمته التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ محمد المبارك.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل.

كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

أرحّب بكم أجمل الترحيب وأجزله في رحاب هذا الصرح العلمي الشامخ، وأشكر لكم تفضلكم بالمشاركة في حفل استقبال الزميل العزيز الدكتور مختار هاشم، ينضمّ إلى مجمع الخالدين.

لقد اختار الزملاء الأجلاء أعضاء المجمع، في جلسة نظامية، الدكتور هاشم زميلاً كريماً، وصدر المرسوم الجمهوري ذو الرقم ٤٩٦ تاريخ (١٤٠٩/٥/١٩هـ — ١٩٨٨/١٢/٢٧م) بتعيينه عضواً عاملاً في المجمع.

واني لأهنىء الدكتور هاشم بثقة زملائه، وأهنىء المجمع بانضمام عالم عامل، تشهد أعماله العلمية بكفايته ومقدرته ليشارك المشاركة الجادة النافعة في مسيرة المجمع.

لقد أُسس بنيانُ هذا المجمع يوم قامت الدولة العربية بدمشق، فقد راعها ما آلت إليه العربيةُ المبينة، قد انزوت في ركن قصيّ ضيق لا تعدوه، لتحلّ محلها العثمانيةُ التركيةُ، تحتجنُ لنفسها ميادين العلم والتعليم، والادارة، والحياة العامة. وأدرك دعاة العروبة الأوفياء أن كيان الأمة إنما هو لسانها الناطق، ولغتها الحية، فسارعوا إلى تعريب الدولة، وأنشؤوا شعبة الترجمة والتأليف، فديوانَ المعارف، ليرفعوا، من بعد، قواعد هذا المجمع الخالد في الثامن من حزيران سنة ١٩١٩م (٩ رمضان ١٣٣٧هـ)، إيماناً بأن الأمة ولسانها توأمان لا ينفصلان، ينهضان ويزدهران معاً.

لقد كان المجمع هو المؤسسة العلمية الأولى التي أنشأتها الدولة العربية الفتية. وكلت إليه نشرَ الثقافة، وتصحيح الأساليب العربية، واحياء التراث، وإيجاد المصطلح في شتى فروع المعرفة، وتعريبَ الكتب، والعمل على النهوض بالعربية حتى تحتل مكانتها في حياة الأمة وثقافتها وتعليمها وعلمها. واستجاب المجمع ولبّى، وعمل ليلَ نهارَ، ومضى يحثّ الخطا في أداء رسالة العربية لا يزداد على الأيام إلا عزماً ومضاء.

إن المجمع الخالد هو أول مؤسسة علمية في بلاد الشام نشأت في ظلال الحرية، وأشرقت عليها شمسُها، فكان بذلك أوّلَ ثمرة من ثمار اليقظة العربية، وباكورةَ جناها الطيب، يرمز بعمله ونشاطه إلى أصالة هذه العربية المبينة وحيويتها واستيعابها ومرونتها وقدرتها على مواكبة التطور والحياة المتجددة بكل متطلباتها.

وها هم أولاء أعضاء المجمع، كالعهد بهم دائماً، قد أعدُّوا واستعدوا، وبرزوا فرساناً مُعْلِمين، يتلقَّون الراية باليمين، يتبارون في خدمة العربية وتراثها، لا ينون ولا يفترون، إذا قَضَى منهم سيّدٌ خلفه سيد، يسيرون على الجادة، يؤدون حق الأمانة التي حملوها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتنقضي اليوم سبعون سنة من عمر المجمع المديد، تشهد على تاريخ المجمع الحافل بالعمل والنشاط والدأب والانجاز، يكمل لاحق ما بدأه سابق.

وها هو ذا حفل اليوم دليل صدق على هذا التواصل في رسالة المجمع.

واني ليسعدني أن يتقدم الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب الأمين العام لمجمع اللغة العربية فيلقي كلمة المجمع في استقبال الزميل الجديد، ليتلوه الأستاذ الدكتور مختار هاشم بكلمة يتحدث فيها عن سلفه أستاذنا الكبير محمد المبارك الذي كشف ببحوثه القيّمة في فقه اللغة عن جوانب من عبقرية العربية وبيانها، وحاول استكناه أسرارها المعجزة، فجزاه الله الجزاء الأوفى بما أسدى إلى لغة القرآن من أياد سابغة، ورحمه الرحمة الواسعة.

ولنا واسع الأمل أن ينهض الأستاذ الدكتور هاشم في ميدانه بمثل ما نهض به سلفه، وهو أهل لحمل رسالة المجمع، جدير بالقيام بما نيط به من مهام في خدمة العربية والذود عن حماها.

خطاب الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب

الأمين العام لمجمع اللغة العربية

في حفل استقبال الدكتور مختار هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

سادتي المحترمين ، سيداتي الفاضلات :

١ ــ آل هاشم بدمشق

قال الحصني ، صاحب منتخبات التواريخ لدمشق[١] :

« ومن الأسر التي اشتهرت في دمشق بالتجارة ، آل هاشم العَبجيّ ، وقد اشتهر من رجال هذا البيت ، في عمل الخير ، وإيواء أبناء السبيل ، واسعاف الفقير ، الحاج راغب ... والحاج حسن[٢] ....

وقد تفرع من رجال هذا البيت ، جماعة استوطنوا في مكة ، واشتهروا في الوجاهة والتجارة بها . وقد تركوا من بعدهم ذريّة كبيرة بارك الله فيهم » .

سادتي :

من لطائف المعارف :

---

(١) محمد أديب تقي الدين ج٢ ص٩٠٠ دمشق في ١٣٤٦ هـ ــ ١٩٢٨ م .

(٢) زميلنا الجديد هو : الدكتور مختار بن عارف بن مصطفى بن حسن المذكور .

أنّ أسراً نبيلة ، في أقاليم متباعدة ، لها تقاليدها الأصيلة ، تحافظ عليها ، وتعتز بها ، لا تفرّط فيها ، ولا تتخلى عنها ؛ إذا نبغ من أبنائها ثلاثة ، أمراءَ حربٍ كانوا ، أو قضاةً مستشارين ، سفراءَ أو شعراءَ كانوا ، أو علماء نابهين ، يشار إليهم بالبنان ، كانت تفاخر بهم ، وتُعلي عمَدَ بيوتها أو جُدُرَها ، بما يدلّ على فائق اعتزازها ، ويُنوِّه بفضل الثلاثة من أبنائها .

واليوم يتم للدماشقة من آل هاشم الكرام ، ما كانت تحلم به عشائر عديدة في غابر الأيام ، وما تتمناه في عصرنا ، أسر مرموقة في أرق البلاد ، لقد كان بيننا من أمد غير بعيد ، رائد فلسفة وحكمة[٣] ، وافتقدنا من زمن قريب لغوياً متمكناً ، كان كبحر علم عميق وهادئ[٤] ، والساعة ينضم إلى مجمعنا ، الثالثُ من آل هاشم ، نطاسيٌّ حاذق ، علمه واسع ، وهو على خلقٍ قويم ، وأدبٍ مختار .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ ــ مولد المختار ونشأته

إن كنتَ يوما في غربيّ دمشق القديمة[٥] ، وجعلتَ خلفك باب الجابية[٦] ، مولياً وجهَك شطرَ بابها الشرقيّ ، كنتَ على رأس طريق ، كاد أن

(٣) افتقد المجمع في ١٩ من حزيران سنة ١٩٨٢ الدكتور حكمة هاشم ، وكان قد انتخب عضواً عاملاً في المجمع خلفا للأستاذ محسن الأمين وقد استقبله في جلسة ٢٥ من آذار سنة ١٩٥٤ الأستاذ شفيق جبري .

(٤) فجع المجمع في ٨ من كانون الثاني سنة ١٩٨٨ م بالأستاذ عبد الهادي هاشم ، وكان قد انتخب عضواً عاملاً في المجمع خلفا للأستاذ عز الدين التنوخي ، وقد استقبله في جلسة ٢٤ من نيسان سنة ١٩٦٩ م الدكتور عدنان الخطيب .

(٥) دمشق القديمة ونعني بها دمشق داخل السور ، ومعالم سورها ما زالت واضحة معروفة .

(٦) أحد أبواب دمشق التاريخية ، ينسب إلى مدينة الجابية في الجولان وكان لها دور كبير في حوادث التاريخ ، والباب في عصرنا الحاضر لصيق جامع السنانية الشهير ، وهو على بعد خطوات إلى الجنوب من مدخل سوق مدحت باشا البديل الحديث للطريق المستقيم الذي كان يمتد بين بابي دمشق الغربي والشرقي .

يكون، في غابرِ الأيام، مستقيماً[٧].

تتلوى الدروبُ على جانبي الطريق، وتكتظ الأحياء فيما بينها بالسكان، وتتشعب فيها الأزقةُ والحارات، حيث تتجاورُ بيوتُ الفقراء وبيوت الأغنياء، كما يتفرع منه العديدُ من أسواقِ المدينة، يضمّ الواحد منها تجارَ صنفٍ واحد، وأحياناً ما كان متشابهاً من الأصناف، فإذا ما بدأت تمشي في طريقك رويداً رويداً، رأيتَ عن يمينك بوابةَ دربٍ ضيق، يعرفُ بزقاق البرغل، يؤدي بالداخلِ فيه إلى أطراف حيّ القصاعين الشهير، فإذا رحت تمضي قُدُماً بضعَ خطوات، فقد اجتزت سوق النسوان متداخلا بسوق القطن وتاليه سوق الصوف، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تقف مشدوها بجمالِ مأذنةٍ عن شمالك رائعةِ البناء[٨].

وترى قبالة المأذنة مدخلَ حيِّ الخضيرية العريق، وهو يؤدي بالسالك فيه، إلى مسجد كان في يومٍ من الأيام جزءاً من «دارِ القرآنِ الخيضرية»[٩]،

---

(٧) تذكر كتب التاريخ أن اسم الشارع كان (القسقار) وورد هذا الاسم في بعضها محرفا (النسقار مثلا في خطط الشام ج٦) ويقول صلاح الدين المنجد نقلاً عن سوفاجه: إن القسقار تعريب لكلمة Foscarion التي تدل على مكان صنع الفسقة وبيعها، والفسقة شراب. كان الجنود الرومانيون مولعين به (انظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المجلدة ٢ ص٥٦).

(٨) وهي تعلو الجامع المنسوب إلى (القلعي) ومن الغريب أن أكثر المؤرخين الذين تصدوا لتعداد مساجد دمشق أغفلوا اسم هذا الجامع وكان آخرهم عبد القادر بدران، وبعضهم اختلطت عليه الأسماء فظن انه جامع ابن هشام الذي هو على بعد بضع عشرات من الأمتار إلى الشرق منه، على أن الدكتور أسعد طلس محقق كتاب (ثمار المقاصد في ذكر المساجد ليوسف بن عبد الهادي) ألحق به ذيلا قال فيه: «مسجد القلعي نجده مذكوراً بكثرة في كتاب خلاصة الأثر للمحبي ويظهر أنه كان في ذلك العصر من أعظم مساجد المدينة ولا نعرف شيئاً عن القلعي المنسوب إليه، وهو الآن مسجد صغير بمحراب ومنبر عاديين وبجانب بابه تقوم المنارة الحجرية المربعة الرائعة ذات الزخارف البديعة والمقرنصات والنقوش وهي من أروع مآذن العالم الإسلامي. وهذه المأذنه تؤيد ما قلناه من أن المسجد كان أعظم بكثير مما هو عليه الآن» انظر ص٢٤٦ من طبعة بيروت ١٩٤٣.

(٩) أنشاها سنة ٨٧٨هـ قاضي القضاة ابن خيضر الشافعي ــ انظر وصفها في كتاب دور القرآن في دمشق للنعيمي تحقيق صلاح الدين المنجد ص٣ بيروت.

غير أن العامة قلبت ترتيب ثاني الحروف مع ثالثها، عندما أطلقت الكلمةَ اسماً لحيّها.

فإذا تابعت سيرك عشرات قليلة من الأمتار، وقفت وأمامَك دربان، درب عن اليمين وآخر عن الشمال.

إن انحرفت شمالاً فأنت في سوق الصوف الجديد، وإن شئت تسللت إلى سوق مدحت باشا بديل الطريق المستقيم، لترى باب مسجد سيدي هشام ومأذنته الجميلة(١٠)، وقد حجبتهما عنك أبنية لم يخطط لها.

أما إذا انعطفت إلى اليمين، فأنت تشرف على نزلة طاحونة السجن(١١)،

فإن أخذتَ نزولاً، انتهيتَ إلى طاحونة يحركُها ماءٌ ينصبُ من أحدِ فروعِ بردى انسرب نحوها متخفياً عبرَ الأسواق والبيوت.

وترى على جانبي طريقك أبواباً إن ولجت أحدَها ولجت بيتاً دمشقياً أصيلا:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دهليز طويل، ثم ساحة سماوية، تتوسطها بحرةٌ يجري فيها الماء ليل نهار، وقد فرشت الساحة بالأحجار الملونة أو بالرخام المقطع الناصع البياض، تتناثر فيها قِصاعُ الزهور وأصائصُ الشمشير، تظلُّلها أشجارٌ من الكبادِ والنارنج والليمون، ويتسلق حيطانها الليلكُ وأنواعٌ من الياسمين، وعلى سطوحِ غرفها الشتوية نصبت العرائشُ، تمدُّ أهلَ البيتِ بـ(اليبرق) من أوراقها في الربيع، وبالعنب من ثمارها في الصيف وفي الخريف.

---

(١٠) كتب على بابه: مسجد هشام جدده سنة ٨٣١ هـ القاضي بدر الدين بن مظهر قال أسعد طلس في هامش تحقيقه ثمار المقاصد لابن عبد الهادي: (له مناره عجيبة الصنع انظر سوفاجيه ص٧٧) ثم أضاف في الذيل ص٢٥٨ (وللمسجد منارة حجرية مثمنة بديعة في بنائها وزخرفتها).

(١١) لم أعثر فيما قرأت على ما يبرر هذه التسمية، وكنت أعتقد أنها ترجع إلى القرون الأخيرة، غير أني وجدت ابن عساكر مؤرخ دمشق الكبير المتوفى سنة ٥٧١ هـ يذكرها في تاريخه مما يدل على أنها تسمية قديمة.

وفي واحدٍ من تلكَ البيوت، رأى زميلنا المختارُ النورَ[١٢]. وعلى رحابِ سجادةِ الفريش حبا، وعلى بلاطه وبين الخمائل والرياحين درج.

فلما يفع حُمل على الذهاب إلى المدرسة، مروراً بسوق الخياطين فإلى ما (بين البحرتين) حيث (العلميةُ الوطنيةُ) إلى اليوم، تقوم.

●

٣ ــ تحصيل المختار وطلبه العلم

وأمضى صاحبُنا سنته الأولى في المدرسة، يتعلمُ مبادئ القراءة والكتابة، فلما أتم الثانيةَ، كان قد ختم القرآن الكريم. وفي حفل الاختتام، وقد اعتادت المدرسةُ اقامتَه في كلِ عام، كان نصيبُه القاءَ قصيدةٍ من نظمِ مؤسسِ المدرسة[١٣]، يقول فيها:

سمعتُ سُويجعاً في الشرق يشدو بصوت ماله في الحسن حدُّ
يقول إلى متى، والعلم طبٌّ بكم داءُ الجهالة يستبدُّ

ويبدو أن الوزن في الكلام، صادف موقعاً في طبعه، فوعى معنى الشعر قبل الأوان، فأخذ يَدنُ تارةً وينغّم أخرى، فإذا به يصبحُ شاعراً، قبلَ أن يعرفَ العروضَ ويدرسَ الأوزان.

فلما كان تلميذاً للخليل، شاعرِ دمشقَ الكبير، أثار اعجابَه كيف يقول مختارٌ الشعر وهو صغير! فسأله: هل تكتبُ الكلام نثراً، ثم تحوله إلى

(١٢) ولد زميلنا على ماهو مسجل في مصحف الأسرة، في ٢٤ من رمضان سنة ١٣٣٣ للهجرة وهذا التاريخ يوافق ٤ من آب سنة ١٩١٥ للميلاد.

(١٣) هو محمد خير الشهير بأبي الخير الطباع عالم مربٍ أديب ثقة، أسس المدرسة العلمية الوطنية، وكان أهل دمشق في أمس الحاجة إلى مثلها، فنمت نمواً سريعاً، مولده ووفاته بدمشق (١٢٩٨ــ١٣٢٩هـ ١٨٨٠ــ١٩١١م) انظر الأعلام للزركلي ج٦ ص ١١٩٠ طبعة ١٩٨٠ وقام بعد وفاته تلميذه الفقيد أحمد عبيد بجمع شعره في ديوان صغير شرحه محمد سليم الجندي وصدر عن مطبعة الفيحاء بدمشق سنة ١٣٣٠هـ.

شعر ؟ أجابه : لا ، إنما يزدحم القولُ في صدري ، ولا ارتاحُ إلا إذا نطقتُ به .

قال الخليل في نفسه : إنه جوابُ شاعر ، والتفت إليه يقول : سيّد مختار إذن أنت شاعر .

ويذكر شاعرنا هذا الحوار يوماً ، فإذا بقصيدة تجري على لسانه ، وفيها يقول :

وكان أستاذُنا فيها الخليلُ فهل
ألامُ يوماً إذا ماجئتُ مفتخرا
وجئت يوماً بأبياتٍ مهلهلةٍ
قدمتُها بحياءٍ خائفاً حذرا
فقال: مختارُ أقبل، جئت سدّتَهُ
فقال: قل لي نظمُ الشعر كيف جرى؟
هل تكتب القولَ نثراً ثم تنظمُهُ
وَفْقَ العروضِ، وفيه صرتَ مقتدرا
فقلت: كلا، يجيش الشعرُ في خَلَدي
أضيقُ صدراً به إلّا إذا صدرا
فقال: يُفتحُ ديوانٌ بصفِّكم
فيه يسجّلُ مايأتي به الشعرا
وهذهِ أولُ الأشعارِ فاتحةٌ
إني أرى الغيثَ بعدَ اليومِ منهمرا

إلى أن يقول حفظه الله :

وأين أستاذُنا بل أين رفقتُنا
من راحَ منهم ومن مازالَ منتظرا

٤ ـــ المختار يتابع دراسته الثانوية والجامعية

وأتقن صاحبنا الفرنسيةَ في المدرسة الأرثوذكسية، وكان أن استهوته دروسُ مديرِها زميلنا الراحل جميل صليبا، فأجاد الفلسفةَ، وأبدعَ فيها، فكان الأوّلَ بين رفاقِهِ، كدأبه عاماً بعد عام.

حتى إذا ما أنهى تحصيله الثانويّ، اتجه إلى المعهدِ الطبيِّ العربيّ[١٤]. ففجأهُ الطبُّ بوفرة المصطلحاتِ اللاتينية فيه، فعَمَد إلى تعلمِها بلا معلم، ولكن اللاتينية لم تغنه عن الإغريقية، فشدا من هذه ما استطاع.

وكان على مقاعدِ السنة الثانية، عندما أجاز أساتذة الطبّ، نشرَ مقالٍ دبَّجه عن مصطلحات مقترحةٍ اطلع عليها في مجلة مجمع القاهرة مع رأيٍ يراه في بعضها، وصدَّرته مجلة المعهد[١٥] بقولها:

(وردت علينا هذه الرسالةُ المفيدة من الطالب السيد مختار هاشم، فنشكر له عنايته بتنقيةِ لغةِ الضادِ العلميةِ من الشوائب).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعندما أُجيز صاحبُنا، فحمل لقبَ طبيب[١٦]، لم يجِدْ، وقد سَدَّت الحرب العالمية عليه، طرق السفرِ إلى بلاد التخصص، بُداً من تسجيل نفسه طبيباً في وزارة الصحة والإسعاف العام، ومن ثُمَّ من أن يخدُمَ في مشافيها المرضى والمتوجعين. حتى إذا ما انطلق السفر إلى أوربة عبرَ البحار، وكان من الناجحين في مسابقات البعثات الحكومية، أقلته باخرة إلى الغرب، موفدا للتخصص في طبِّ الأطفال[١٧].

---

(١٤) كان انتساب صاحبنا إلى معهد الطبّ العربيّ بدمشق سنة ١٩٣٤م.

(١٥) نشرت المقال مجلة معهد الطب. انظر ص ٣٨٠ ــ ٣٨٣ و ٣٧٢ ــ ٣٧٩ من مجلدها العاشر سنة ١٩٣٥م.

(١٦) تخرّج صاحبنا في معهد الطب العربي من الجامعة السورية سنة ١٩٤٠م.

(١٧) كان السفر في كانون الثاني سنة ١٩٤٦م.

٥ ــ أوبة الزميل المختار إلى الوطن

وعاد صاحبنا إلى الوطن[١٨]، وقد غنم من أوبة خيرَ ما يُغنَمُ منها، يطبب الأطفال انتظاراً لإسناد الدولة له المنصب الذي تأمّل له، غير أن النضالَ السوريّ، وقد انتهى بطرد جيوش الغزاة، تحت اسم الانتداب[١٩]، أدى إلى إنشاء جيشٍ سوريّ مستقل، فاندفع صاحبُنا مثلَ كثير من الشباب، إلى الانخراط في خدمة القوات المسلحة[٢٠]، فاستأثرت هذه القوات بجهوده، بعد أن اكتشفتْ بعضَ مزاياه، حتى كان مندوبَها خبيراً في لجنة المصطلحات الطبية، التي عُهد إليها بوضع (المعجم العسكري)[٢١] وكانت برياسة المجمعي الكبير، الأمير مصطفى الشهابيّ، كما كان مندوبها في لجنة المصطلحات الطبية العسكرية في القيادة المشتركة[٢٢].

٦ ــ اهتمامات زميلنا العتيد وبحوثه

لم تترك خدمةُ الدولةِ باخلاصٍ واستقامة، لصاحبنا وقتاً ضافياً للاهتمام بما يهواه من بحوث، أو للعمل على تحقيق ما يصبو إلى إحيائِه من مخطوطات، أو للقيام بنشر ما يرغب في نشرِهِ من أعمال، حتى إذا ما أحيل على التقاعد[٢٣]، بدأ يمارسُ هواياتِه، وينجزُ تطلعـاتِه، في البحثِ والتحقيقِ والنشر.

لقد نشر زميلُنا الفاضل، بحوثاً ومقالاتٍ وتحقيقات نشراً استوفى فيه، ما يحبُّ كلُ قارئٍ أن يجدَه فيما يقرأ، من عمقٍ ومتابعةٍ وتوثيق.

---

(١٨) في أيلول ١٩٤٨م.
(١٩) تم انسحاب الجيوش الغازية في ١٧ من نيسان ١٩٤٧م.
(٢٠) تطوع للخدمة في الجيش السوري في ١٦ من أيلول سنة ١٩٤٩م برتبة رئيس.
(٢١) صدر هذا المعجم في شباط سنة ١٩٦١م.
(٢٢) كان ذلك في سنة ١٩٧٠م.
(٢٣) أنهيت خدماته في القوات المسلحة بتاريخ ١٩٧٠/٥/٣١م برتبة عميد.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد قرأتُ جلَّ ما نشرَه الزميل، ودونت ملاحظات على ما قرأت، وهاكم بعضَ ما قرأت، وشيئاً مما علقتُه على ما قرأت:

لقد قرأتُ لك ياأخي، بحثَك المستفيض، عن «أوزانِ الأطباءِ ومكاييلهم[٢٤]»، وراعني فيضُ الكلماتِ التي وردت في كتب الطبِّ العربيِّ، للتعبير عن المقادير الطبية، في مداواة الأمراض المختلفة.

لقد أعجبني تفصيلك أطرافَ البحث، وحُسنُ عرضِك لمختلفِ المصطلحات، وزدتني ثقةً في دقة تحريكَ المصادرَ، لما نقدتَ ما بين أيدينا من معجمات، في قصورِها عن تحديثِ أساليبها في التعريفِ بالمصطلحات، وبلغ اعجابي بنقدِك هذا مبلغَه، في الانصاف الذي وجهتَه، لأحد زملائنا القدامى الراحلين، إذ قلتَ: «ويقتضي الانصافُ، أن استثنيّ من هذا الحكم، معجم مَتْنِ اللغة[٢٥] تأليفَ الشيخ أحمد رضا، فإن ظهوره كان خطوةً مباركةً، في طريقِ العملِ المعجمي، ويكفيه فخراً أنه عرَّفَ الأوزان، بلغةٍ يفهمُها أبناء هذا العصر وذلك بمقارنتها بالنظام المتري»[٢٦].

ARCHIVE

ولا أخفي عنك التقديرَ العظيم، الذي اكتنتُه لك ولتواضعِك، إذ ختمتَ بحثَك القيمَ الطويلَ بقولك: «وإذا قدّر لي أن ألقي بصيصاً من الضوء على هذا الموضوع، فإن ما يكتنفُه من ظلمات لا يمكن تبديدُه إلا بتضافرِ جهودِ الباحثين، وأملي في ذلك كبير»[٢٧].

٧ ــ حوار مجمعي مع الزميل المختار

أخي: هل تسمح لي بمحاورتك حواراً مجمعياً بحتاً، عن «مشاكلَ معجميّاتٍ معقدة»؟

---

(٢٤) نشرته مجلة مجمع دمشق افتتاحية للمجلد ٦١ ج١ ص٣ سنة ١٩٨٦م.

(٢٥) طبع في بيروت سنة ١٩٥٨م.

(٢٦) المجلد ٦١ من مجلة مجمع دمشق ص٨.

(٢٧) المرجع السابق ص٤٨.

لقد قرأت البحث الذي عنونته «ألفاظٌ حائرة»[٢٨]، وتمتعتُ بقراءته، كما أني أعدت قراءته، ابتغاءَ تكوين فكرةٍ واضحةٍ محددة، فاحترت، كيف حارت الكلمات بين يديك؟ هل كانت حائرةً لأنها حارت حَوْراً وحؤوراً فرجعتْ من حالٍ إلى حال، أم كانت حائرةً لأنها حارت حَيْرةً وتحيّرتْ فكانت حيرانةً وحيرى، إذ غَشِيَ بصرُها فضلتْ سبيلها ولم تهتدِ إلى قرار، أم إنّ المعاني اثقلتْها فتحيّرتْ، كما تتحيُّر الأرضُ إذا امتلأتْ بالماء، أو تحيّرت مدلولاتُها، كما يتحيّر السحابُ إذا لم تسقْه الريحُ إلى جهةٍ ما، أو أنها كانت حائرةً بائرة لا تدلّ على شيء؟

لقد وجدتُ في بحثِك، شبهَ مدخلينِ مقتضبين، كأنهما كتبا من قبل عالمين مختلفين أحدهما مختصّ بعلمِ «المعدنيات» والآخر بعلم «النباتات» إلى جانب عالمٍ معجميٍّ متعمق، يوازنُ بين مختلف المعجمات، العربيِّ منها والاعجميّ، سواء أكانت وحيدةَ اللغةِ، أو ثنائيتها أو ثلاثيتها، يُصدر آراءَه، واقفاً على صخرٍ أصم، كقوله عن أدّى شير[٢٩]: إنه متسرع في إرجاع الكلمات العربية إلى أصل فارسيّ لمحض التشابه، حتى إنه جعل كلمة السراب فارسية الأصل[٣٠].

لقد انطلقتَ في بحثِك، من جمعِ ما قيل في تعريف ثلاثِ كلماتٍ هي: المَعْدِن والفِلِزّ والجَوْهَر، من «المعدنيات» وثلاثِ أخريات هي: الأُشْنَة والطُحْلُب والحزاز[٣١] من «النباتات».

---

(٢٨) نشر البحث في المجلد ٥٩ ج٣ من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٨٤م.

(٢٩) رئيس أساقفة سعرد الكلداني مؤلف كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) طبع الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٠٨م.

(٣٠) انظر ص٨٨ في المرجع الآنف الذكر. وانظر بحثنا عن (حرف الباء رمز للماء في المعجم العربي) في مجلة المجمع بدمشق سنة ١٩٦٨ ـــ ١٩٧٠م.

(٣١) في صفحة ٣٩١ من معجم الألفاظ الزراعية، قال الأمير مصطفى الشهابي: «لم يميز العرب قديماً نباتات Mousses و Algue و Lichen بعضها من بعض. وقد جرينا في تسميتها على ما هو معروف في الشام منذ بدء النهضة الحديثة فقلنا على التتابع: طحلب فأشنة فحزاز، أما في مصر فقد أقر مجمعها كلمة طحلب مقابل Algue ورأيه بعد التحقيق أقرب إلى الصواب. ودرج بعض أساتذ ←

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن التردد والاضطراب في معاني الكلمات الستِّ التي ذكرتُها، حيرَّ كثيراً من العلماء قبلك، وهو سبب قوي في الاختلاف والبلبلة بين المصطلحات في مختلف جامعات الوطن العربي ومن أسباب تأخر تدريس العلوم بالعربية في كثير منها. ودعوتُكَ إلى توحيد المصطلحات وتحديدِ الألفاظِ الدالةِ عليها، دعوةٌ خيِّرةٌ كانت من أهمِ الدوافع إلى إقامة اتحاد المجامع العربية.

إن اتحادَ المجامع العلميةِ العربيةِ يعملُ منذ قيامِه على التفريقِ بين لغة الشعرِ والأدب، ولغة العلمِ التي تقتضي تحديدَ معاني الكلمةِ الواحدةِ تحديداً دقيقاً لالبسَ فيه ولا غموض، ولايكون هذا، إلا باغفال المترادفات واستبعاد الأضداد الناشئة في أمهات المعجمات العربية عن جمعِ مختلفِ اللهجاتِ العربية على ما بينها من تباعد.

لقد قامَ اتحادُ المجامعِ العربيةِ بخطواتٍ جيدةٍ في سبيلِ تحقيقِ ما يصبو إليه من أهداف، غير أنها خطواتٌ بطيئة، والحضارةُ اليوم تسير بسرعة الصواريخ، والسببُ في هذا معروف، فالنظر وان كان من حديد، غير أن اليَد قصيرةٌ وتكادُ تكونُ مشلولة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٨ ــ الزميل العتيد محققاً

إنّ من أهم ما صنعَه زميلُنا الجديد، تحقيقه لرسالةٍ طبيةٍ هامة، ولعثوره على تلك الرسالة قصة، يجدرُ بي أن أرويها لكم، قبل أن أتحدثَ عن نشرها.

لقد اعتاد الطبيب الشاعر، إذا ما زار باريس، أن يمرّ بدار الكتب

← النبات في الجامعات المصرية على جعل الأشنة أمام Lichen والحزاز أمام Mousse. وكل ذلك اصطلاح لأن الحقيقة كما قلت غير واضحة تماماً. ولا بد لنا من الاتفاق على التوحيد. نباتات دنيا تتألف من تكافل فطر وأشنة، أي فطر وطحلب في مصر، وهي تعيش على الصخور والحيطان والتراب وقشور الشجر» ومن العجيب أن المعجم الوسيط معجم مجمع مصر لم يتعرض لذكر الحزاز!

الوطنية للاطلاع على ما فيها من جديد، أو على ما في كنوزها من مجاهيل المخطوطات.

وفي زيارةٍ غيرِ بعيدةِ العهد، عثر في فهارسِ الدار، على اسم مخطوطةٍ جاءت فيه كلمةُ (ابوريّة؟)، متبوعةً باشارةِ استفهام، تدلُّ على جهلِ المفهرسِ معناها، وأحبَّ طبيبُنا الاطلاع على المخطوطة، فإذا بها رسالةٌ تحمل هذا العنوان: (العبوريّة الودّيّة في الأبحاث الوردية) فاستشعر على غموضِ هذا العنوان: بأن الرسالةَ قد تكون ذاتَ قيمةٍ طبيةٍ أو نباتية، فطلبَ نسخةً مصورةً عنها، وكان شديد الأسف، لما وجدَها (مخرومةً) تفتقد صفحاتٍ من أولِها، ولولا أن مصنفها اختتمها بقصيدة، أبان فيها عن نفسه، لظلَّتْ مجهولةَ النسب.

لقد قام الزميل الكريم، بتحقيقِ الرسالة ونشرِها[٣٢]، بعد أن عثر على ترجمة وافية لمصنفِها[٣٣].

بدأ التحقيق بالاجابة على اشارة الاستفهام، الموضوعة عقب كلمة (ابوريّة؟) فقال: «إن المؤلف يشيرُ إلى الهوة القائمةِ بين الناس، وتقطّعِ أسبابِ الودّ بيهم، حتى أصبح كلُّ فردٍ كوكباً يدورُ في مدارِه الخاص، هذا في عهدِ المؤلفِ حين كان عبورُ هذه الهوةِ ممكنا بطريق الوردِ والازهار. أليس التعبيرُ ضرورياً لسريانِ الودِ بين الناس؟ وتعبيرُ الوردِ لا يقتصرُ على ما ينشرُ من عبير، فللأزهارِ لغةٌ تتجاوزُ الشمَّ إلى النظر، وتتجاوزُ النظرَ إلى معانٍ أخرى، وهذا ملحظٌ لطيف للمؤلف محمود بن يونس في تسميةِ كتابه «العبوريةُ الوديّةِ في الأبحاثِ الورديّة».

---

(٣٢) مؤلف الرسالة طبيب دمشقي اسمه هو محمود بن يونس الملقب شرف الدين، الخطيب الطبيب الشهير بالحكيم الأعرج، قرأ في الفقه على عبد الوهاب، وفي الطب على أبيه، وفي القراءات والتجويد على الشهاب أحمد الطيبي، وولي إمامة المقصورة بالأموي وولي خطابته أيضاً. درّس بالخاتونية وبالجقمقية وكان حسن الصوت والقراءة وله شعر حسن ولد وتوفي بدمشق في شعبان سنة ١٠٠٨ هـ انظر خلاصة الأثر للمحبي ج٤ ص٣٢٤.

(٣٣) نشرت الرسالة في مجلة التراث العربي العدد ٢٢ كب. دمشق اتحاد الكتاب العرب كانون الثاني سنة ١٩٨٦.

أخي الدكتور مختار :

لقد كنت واضحاً ، موفقا إلى حدّ كبير ، في تحديث رسالةٍ كتبتْ بلغة القرن العاشرِ الهجري الطبية ، إلى لغةِ القرنِ الخامس عشر ، لغةٍ يفهمها غيرُ الأطباء ، ويفهمها غيرُ المختصين ، لقد كنتَ موفقاً في التعريف بمؤلفِ العبورية ، وفي عرض ماوردَ فيها من أنواعِ النباتات ، وذكرِ الأسماءِ العلميةِ والشائعةِ ، لأصنافِ الزهورِ والورودِ التي ذكرت فيها .

لقد استوقفتني تعليقاتُك اللطيفة ، على ماوردَ في الرسالةِ ، من ألفاظٍ أعجمية ، فقد ذكرتَ «دَبيدَ الورد» وقلت : «ذكرَ داود الأنطاكيّ أن الطبيبَ الذي ركّبَ هذا المعجونَ ، كان يبيعهُ بثقلهِ ذهباً ، وضنَّ به حتى سُلبَ اغتيالاً على يدِ خادمِه ، ذكر داود اخلاطه ، فبلغتْ عشرينَ مادة ، إلا أنها لا تزيدُ عندَ ابن سينا ، على ثمانية .

ونجد في كتابِ العبوريةِ تركيبَها ، مطابقاً لتركيبِها في القانون .

أما تسمية «دَبيد الورد» فيزعم داود أنها بربرية ، معناها (المأخوذ فيه الوردُ بوزنه) ، إلا أن ابن سينا أوردها (أقراص الورد وتسمى دَبيدُوردا) ولا يخفى أن الكلمة سريانية ، من دَبِي بمعنى حَب ، الدال التي هي من علامات الإضافة ، وردا بمعنى ورد . ومع ذلك فإنها ترد في أكثر المخطوطات بصيغة دَبيدْ بحرف الياء بدلاً من حرفِ النون ، وهذا من قبيل التحريف الشائع الذي يؤدي إلى قراءة الكلمة في المخطوطة ، من خلال الصورةِ المشوهةِ التي ارتسمت في ذهن القارئ »[٣٤] .

٩ ـ زميلنا الجديد شاعراً وكلمة ختامية

سادتي :

إذا كان الشعرُ الجيد ، يعتمُد أولَ مايعتمد ، على الموهبةِ والروحِ

---

(٣٤) انظر ص١٨٤ من مجلة التراث العربي الملمع إليها سابقاً .

الشاعرية، فإن الموهبةَ، ولا شك، أوّلُ أركانِ الشعر، غير أن الموهبةَ وحدَها لا تُغني، لاجادتهِ ونباهةِ الشأنِ فيه، فلا بدَّ لعلوِ الكعبِ فيه، والتجلية في مضمارِه، من صقلِهِ بالممارسةِ والمرانِ عليه، فإن لم يتوافر لذي الموهبةِ هذا، ظلَّ شعرُهُ مقبولاً ومسموعاً لوضوحِ الشاعريّةِ فيه.

ولا أجد ختاماً لكلمتي، في التعريفِ بزميلِنا الجديد، خيراً من أعيدَ على مسامعكمْ، قصةَ (العبوريةِ الوديّةِ في الأبحاثِ الورديّة) في أبيات من قصيدةٍ فاضتْ بها قريحةُ طبيبنا الشاعر، وقد بكى فيها، ما ضاعَ أو سُرِقَ من كنوزِ تراثِنا، ومن مؤلفاتِ علمائنا الأوائل، مع إشارةٍ لطيفةٍ، إلى ما يجب على علمائِنا المعاصرين، بذلُه من جهودٍ لاحياءِ ما في التراث من كنوزٍ غالية.

قال حفظَه الله في قصيدة له:

عبوريّـةٌ وديّـةٌ طوّحـــتْ بها صروفُ النوى حتى استقرّ اغترابها
بشارع ريشليو أقيمتْ وسُميتْ أبوريّـةَ، ما أنْ يهون مصابهــا
تقول جعلتُ الوردَ مني رسالـةً إليكم ولكن لم يَعُدْ لـي جوابها
وهِنتُ على أهلي ولم ألْقَ عندهمُ مُقامــا وهرّتنــي بداري كلابها
تلقفني شخصٌ غريبٌ وحطَّ بي بدارٍ ودادٍ لا تضيــقُ رحــابها
ولكنني خلّفت بعضـي بجلّق وقد ضاع لم يحفظه مني كتابها
وكم ضاعَ مثلي من كرائمِ يعربٍ إلى الغرب زُفّت حيثُ تمّ انتهابها
وكم من سبايا للتراثِ قد اختفتْ ولم يدرِ أهل الدار أين جنابهـا
فأينَ حماةُ الدارِ من آل يعربٍ لمن تُقْتَنَى أسيافُهـا وحـرابها؟
سلامٌ على شهمٍ أحسُّ بغربتي وغربـة نفسٍ يستجـدُّ عذابهـا

والآن أدعو الزميل الكريم إلى إلقاء خطابه الموعود والسلام عليكم.

*

* *

خطاب الأستاذ
الدكتور مختار هاشم
في حفل استقباله

سيدي نائب رئيس المجمع
سادتي أعضاءَ المجمع
أيها السيداتُ والسادة

لم أتوقّع فيما غبر من أيامي أن يأتي يومٌ أقف فيه موقفي هذا لا مستقبل عضواً عاملاً في هذا الصرح الشامخ من صروح أمتنا المجيدة ولا أن يكون استقبالي في هذه القاعة التاريخية التي تحمل اسم مؤسس المجمع الأستاذ محمد كرد علي، في هذه القاعة التي كنت قصدتها يافعاً لأول مرة بغية الاستماع إلى محاضرة للشيخ عبد القادر المغربي عنوانها (الشعوبية)، كان استاذنا خليل مردم بك[1] قد أشار علينا بحضورها والاقتباس من مادتها في كتابة وظيفة الانشاء.

وهذه ساعةٌ من ساعات العمر التي تلتبس فيها المشاعر وتصطرع فيها الأفكار ولم أعتد تنميق الكلام وتزوير العبارات فلا غرو إذا عُمّيت عليّ وجوهُ الكلام، ولكن لا بدّ أولا من شكر السادة الزملاء على ثقة منحوني إيّاها قد أكون غير جدير بها ولكن ثقتي باستقامتهم واخلاصهم لرسالة المجمع تميل بي إلى تصديقهم والاعتزاز بهذه الثقة. واخصّ بالشكر الدكتورَ شاكرَ الفحّام نائبَ رئيس المجمع، الذي عقد هذه الجلسةَ العلنية ودعا إليها زمرة مختارة من أصدقاء العلم والأدب، وتولّى شؤون انعقادها بنفسه شخصياً، ولم يلهه عن

(١) مازالت صورة هذا الاستاذ العظيم تلوح لخيالي حتى ذكرته في قصيدة (ذكريات المدرسة).

ذلك ما حاز من مجد عظيم بنيله جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي لهذا العام. كما اخصّ بالشكر. الدكتور عدنان الخطيب الذي تطوّع بالتنويه باسمي فاتعب نفسه بالتنقيب عن حسناتي القليلة، وكذلك الكريمُ: يرتاح للعطاء ويجد في التعب لذّة ورضى. وانني ما زرت المجمع يوماً إلّا انست بمجلسه فهو أمينه الوفيّ بعهده.

ثم أقول: انني إذا لم اطمح يوماً إلى التشرّف بزمالكتم فقد كنت توّاقاً إلى حضور مجالسكم والاستماع إلى طيِّب أحاديثكم، إلّا انني كنت منهمكاً في شؤون معاشي منصرفاً إلى خدمة مرضاي، ولكنّ وجه العربية المُضريه ظلّ يداعب خيالي وحبُّها يعصف بجوانحي فما وجدت فراغاً إلا ملأته بمناجاتها ولالاحَ لي درب إلا سلكته في اقتفاء آثارها حتى أذِن الله لي بزيارة دارها، وكان ذلك قبل ثماني سنوات أو أكثر حين التقيت استاذي الدكتور حسني سبح رحمه الله، رئيس مجمع اللغة العربية وبادلته الحديث في احياء التراث العلمي، وحين ودّعته دعاني لزيارته في مجمع اللغة لاتمام الحديث، وتمّت الزيارة وتكرّرت وعاد الاتصال باعضاء المجمع وموظّفيه المخلصين، وانجزت ما يسّر الله لي من خدمة لغة القرآن. ولمّا عرض عليّ سدنة المجمع مشاركتهم في حمل الأمانة الثقيلة لم اتمالك عن الاستجابة لامرهم، لأن حبّ العربية قد استخفّني، والزهو بها استجهلني، فأرجو من الله العلي القدير أن يشدّ أزري وأن لا يجعلني من الظالمين[٢]، وان يوفقني لأكون من الناصحين.

فنصحي لكم قاد الهوى من بلاده إلى مَنْبت الزيتون من منبت النخلِ

منّ الله علينا بقطرات منْ زيت هذه الشجرة المباركة التي ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾[٣].

وبعدُ، لما كان من تقاليد المجمع وصلُ الحاضر بالماضي، فانني أتشرف

---

(٢) اشارة إلى سورة الاحزاب: ٧٢.
(٣) سورة النور: ٣٥.

باحياء ذكرى الأستاذ العظيم محمد المبارك الذي خلفتهُ في عضوية المجمع، وإذا كان الحظ لم يسعدني بأن أكون على صلة شخصية به، فقد أتاح لي شرفَ لقائه في محاضرة ألقاها عام ١٩٤١ في نادي الكشّاف السوري الذي كان في ذلك الوقت مثابة فريق من الشباب المؤمنين بعروبتهم. كان عنوان المحاضرة (أثر صاحب الرسالة في وحدة العرب وتوسّعهم)(٤) وقد افتتحها بقوله (اننا نعجب اليوم كيف كانت ذكرى الرسول العربي ـــ وهي ذكرى ثورة وحياة وايمان ـــ بعيدةً كل البعد عن أن تثير فينا شيئاً من روح محمد ﷺ القوية ومن تعاليم رسالته، تلك الرسالة التي لاتقبل ظلم الظالمين واستغلال المستغلين وبغي المستبدين ثم يأخذ في تعريف الوحدة والتوسع (فالوحدة شعور جماعة من الناس بانها تؤلف جسماً حياً واحداً يعمل جميعُ أفراده أعمالاً منسجمة، تؤدي إلى تحقيق غاية واحدة، فإذا حصلت هذه الوحدة حصلت وتولّدت جميع مظاهر الوحدة من سياسية واجتماعية وفكرية، وكانت نتائج طبيعية لها، وألّف أولئك الأفراد شيئاً جديداً يسمى أمة، تتميز من غيرها كما تتميز الأجسام الحيّة بخصائصها، هذه هي مرحلة الوحدة في تطوّر الأمة، وتلي هذه المرحلة مرحلة التوسع الحيوي. وهي مرحلة تشعر فيها الأمة بقوتها وتؤمن بظفرها ونجاحها، وإذا كانت روح الأمة قويّة تمثّلت البشرية جميعاً في نفسها وأصبح جسمها على حال من القوة والسلامة تمكنه من تمثّل العناصر الأخرى تمثّلاً حقيقياً، ليست القوة وحدها هي الأساس فيه، وأصبحت مشرّعة لنفسها ولغيرها).

وعند الكلام عن العرب قبل الاسلام يقول: (إذا أطلّ المؤرخ من شرفته على الزمن ورجع القرون القهقرى وجد أن العرب من أقدم الأمم التي عُرفت وأقواها. فإننا إذا ألقينا نظرة شاملة على تاريخهم وجدنا ان العرب أسسوا مدنيات قديمة متعاقبة، تبتدئ بما ظهر في ما بين النهرين ثم تتلوها مدنيات في اليمن وفي البتراء والأردن وتدمر والحيرة والشام، ولكن لم تكن قد نشأت بعد وحدة عامة

(٤) نشرها في كتاب الأمة العربية في معركة تحقيق الذات.

تشعرهم شعوراً واضحاً قوياً بانهم أمة واحدة ولا ظهر بعدُ الشعور المشترك العام الذي يشملهم جميعاً) .

ويقول أخيراً :

(وهنا نقف باجلال أمامَ هذه المعجزة الإلهية التي قضى الله أن يجعلها في تاريخ العرب ، أمامَ تلك الرسالة التي شرفهم الله بها . ولا تشكّ ان الله قدّر أن يكون النبي منحدراً من أشرف الآباء ، وقدّر كذلك في احكام غيبه أن يكون العرب من أشرف الأمم وأطهرها ليجعل منهم حملة دينه وقرآنه ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربياً غير ذي عوج ﴾ .....

إن في فهم العرب رسالتهم عامة خالدة موضوعة في دستور تريد ان تشرعه لجميع الناس لدليلا على ان العرب قدّر لهم أن يصلوا إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه أمة من الأمم في الحياة .

عمدت إلى تلخيص هذه المحاضرة لأنها معلّمٌ على طريق التفكير القومي من جهة والاسلامي من جهة أخرى التقى عنده التفكيران وكان كلٌّ منهما يسير على حدة . إنها تعبّر عن مفهوم جديد يأخذ القومية مأخذ الاعتبار ولم يكن لها مكان في التفكير الاسلامي في عهد الخلافة العثمانية فقد كان الايمان بالقومية يبدو نقيض الايمان بالدين(٥) ولا يمكن فهم هذه المشكلة إلا بالرجوع إلى تاريخها(٦) والامعان في فهم تاريخ الاصلاح الاسلامي(٧) وقد ظهر للفيلسوف المسلم التركي رضا توفيق في مجلة الثقافة (دمشق ٥ أيار ١٩٣٣) مقال(٨) بعنوان (المدنية والثقافة والاصلاح) اقتطف منه فقرات تتصل بهذا الموضوع :

---

(٥) انظر مجلة المجمع العلمي مجلد ٣٥ ص٦٧١ .

(٦) انظر المسألة الشرقية في ادوارها المختلفة وظهور محمد علي الكبير في (تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا) لمحمد قاسم وحسين حسني .

(٧) انظر (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبي .

(٨) ترجم المقال الدكتور جميل صليبا .

(الثقافةُ هي إذنْ بهذا المعنى صورة شخصية وطابع جنسي، لا بل هي قوة حيوية تصان بها عبقرية الشعب ووحدته).

(فللعرب مزايا شخصيةٌ ناشئةٌ عن ثقافتهم. وكما تجعل المزايا الجنسيةُ ملامح العربي مختلفة عن صورة الآخرين فكذلك يولِّد المزاجُ الجنسي والاستعداد الطبيعي صورةً شخصيةً من الثقافة مختلفةً عن غيرها. ولولا صفاتُ العربي الجنسيةُ وثقافتهُ واخلاقُه التالدةُ ولغته المهذّبةُ وجمالُ أدبه وروعةُ تاريخة المجيد، لما استطاع أن يحافظ على شخصيته الجنسية بالرغم من تقلبات الزمان وطارئ الحدثان. بل مما هو جدير بالاعجاب ان العربي استطاع أن يتغلب بثقافته ودينه على جميعِ الأمم الحربية التي غلبته بالسيف والقوة الغاشمة.

بعد هذا التمهيد أشرع في ترجمة الأُستاذ محمد المبارك:

ولد سنة ١٩١٢ للميلاد في دار ملاصقة للمدرسة العادلية الحقت فيما بعد بمقر المجمع العلمي العربي بدمشق. سمّاه ابوه عبدُ القادر المباركُ محمداً وكنّاه منذ صغره بأبي هاشم أما امرته فيطيب لي أن انقل ما ذكره في مقدمة كتابه (الأمة العربية في تحقيق الذات) حيث قال (استمر تفكيري في هذا الموضوع، واعانني على ذلك دافع داخلي، تكوّن مما لقّنني إيّاه أبي رحمه الله منذ كنتِ يافعاً، من اننا هاجرنا من الحجاز فيمن هاجر من ابناء الحسن بن علي، وأقمنا في شتى أنحاء المغرب إلى أن استقر بنا المطاف في الجزائر، ثمّ غادرناها مع عدد كبير من سكانها بعد دخول الفرنسيين إليها عِقبَ حربٍ دامت بضعَ عشرةَ سنةً، إلى بلد العروبة والاسلام دمشق حيث استقرّ بنا المقام منذ قرن وربع وطالما كنت اقلّب صفحات الرسائل المتبادلة بين جدّي ومن بقي من أسرته في الجزائر، وبينه وبين اخيه الذي هاجر بعد ذلك إلى اليمن، وأتأمل فيما في تلك الرسائل من أخبار هجرتنا وأجدادنا. لقد بقي كل ذلك كامناً في النفس ولكنه كان يدفعني من حيث أشعر ولاأشعر إلى البحث والتفكير في كثير من الموضوعات دفعاً شديداً، ويحمّلني ألواناً من العواطف والمشاعر).

هذه هجرة أسرة المبارك، بين تغريب وتشريق، والهجرة قدَرُ كثير من

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

الأُسَر والقبائل العربية، ولكن عدمَ الاستقرار هذا في المكان يقابله استمرارٌ عجيب في الزمان، حتى ان سيرة محمد المبارك لاتتجلّى لك إلا بالعودة إلى سيرة أبيه وجدّه، لذلك أقول:

إن محمد المبارك من دوحة بارك الله لدمشق برجالها أولهم جدّه الشيخ محمد المبارك الكبير الحسني[٩] نشأ في عصر كان علماؤه لا يُعنَـون إلا بالنحو والصرف والفقه والحديث والتصوف فبرُزَ بينهم، وكان أول من أحيا قراءة مقامات الحريري، شرَحَ عشر مقامات منها[١٠] فانتفعوا بها وحبّبهم بلغتهم العربية في دولة كان موظفوها يتفاخرون بالتراطن بالتركية ولفت انظار شيوخ الدين إلى كتب اللغة العربية التي لا يُفهـمَ كتاب الله وسنة رسوله إلا بدراستها والوقوف على أسرارها وكان من ولعه بالعربية واهتمامه بنشرها بين أبنائه أنه بعدَ طبع لسان العرب دخل منه دمشق نسختان فاشترى احداهما وأهداها لابنه وخليفته في اللغة والأدب الشيخ عبد القادر المبارك واهدى إليه معها تاج العروس.

وللشيخ محمد من الآثار الأدبية: نضرة البهار في محاورة الليل والنهار، بهجة الرائح والغادي في محاسن الوادي، مقامة في المفاخرة بين الغربة والاقامة.

وترك لورثة علمه وأدبه خزانة كتب طيبة في اللغة والنحو والفقه والتصوف ومنها كتاب الحِسبة لابن تيمية الذي كان يحاربه الحشويّون المقلّدون.

وبفضل رعاية الوالد لولده وما كان يُقبِسه إيّاه من دروس العلم والأدب نشأ الشيخ عبد القادر المبارك مفتونا باللغة وآدابها وما زال يستضيء بمشكاة والده حتى أصبح علمـاً من أعلام اللغة فاهتمّ بتدريسها والتأليف فيها فشرح المقصورة الدُريدية واعان في تحقيق المخطوطات النفيسة كسيرة ابن سيّد الناس فقد كان من علماء السيرة وقلما يجاريه أحد من شيوخ البلد في هذا العلم.

ومن ذكرياتي في الكلية العلمية الوطنية عندما كنت طالباً فيها: أن رفيقاً

(٩) انظر: المعاصرون لمحمد كرد علي ترجمة ٣٩.

(١٠) طبعها بعنوان (المقامات العشر لطلبة العصر).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لنا في المدرسة نقل من رفيق له في (مكتب عنبر) القصيدة القافية (احدى العِبَر بين البشر أو أنشودة الألباب في عالم الأسباب) من نظم استاذ اللغة عبد القادر المبارك

لِمَ ياتهيب الجَدِّ هيبَ الـراقي ... أَلِحُسن منظر ثوبـه البـرّاق
لِمَ سادك الراقي سيادة قاهـر ... طَبٍّ بما تلفيـه غير مُطـاق

وفي القصيدة بيت أثار استغرابنا وجعلنا نحفظ المثل القائل: مخرنبقٌ لينباع

فاخرنبقـوا دهـراً يريشون التي ... طاروا بهـا من بعـد الاخرنباق

يذكر محمد المبارك مدى علاقته بأبيه قائلاً[١١]: (أُلفيتُ في الاقبال على الأبحاث اللغوية احياء لميل قديم موروث وحفظاً لجهد كنت بذلته في هذا السبيل، فطالما قضيت الساعات الطوال مع والدي رحمه الله في شرح المعلقات أو لامية العرب للشنفرى أو المقصورة الدريدية أو مقامات الحريري أو أمثالها من آثار لغتنا. وقد طفقت منذ كنت نَاشئاً أعبّ من معين روايته الواسعة وأنهل من ينبوع لغته العذبة في جلسات خاصة أو مع زملائي في تجهيز دمشق أي مدرستها الثانوية أو في مدرسة الأدب العليا لكلية الآداب. إلى أن يقول: ولم يكن شأنه مع اللغة العربية شأن عالم يدرسها أو يعلّمها ولكنه كان معها في حالة وجدانية نفسية يعيش مع شعرائها الأولين ورواتها السابقين).

قوله: ميل قديم موروث يستحق النظَر فكأنه يعتقد بوراثة بيولوجية وانني أراه أثراً من آثار الجوّ الذي تنسّم هواءه والكنف الذي نشأ في حِماه، أما كان هو القائل[١٢]: لقد أتيح لي أن أعيش في حداثتي منذ ثلاثين سنة في ذلك الجوّ المجمعي فقد كان والدي رحمه الله عضواً عاملاً في المجمع منذ أوائل انشائه، فكنت أصحبه في بعض تلك الندوات الخاصة بالأعضاء، واسمع منه

(١١) مقدمة فقه اللغة لمحمد المبارك صفحة ج وفيه تقرأ النصّ كاملاً.
(١٢) كلمة الأستاذ محمد المبارك في حفل استقباله في مجمع اللغة العربية بدمشق.

حكاية ما يدور بينهم من مناقشات وأبحاث، واتلقّى مغتبطاً اعداد المجلّة قارئاً أو متصفّحاً ... إلخ.

نشأته

وفي كنف هذا الوالد المسلم العالم نشأ محمد المبارك فدرس العربية وعلومها على أبيه كما درس العلوم الدينية على المحدّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني الذي كان متفرداً في عبادته وتقواه بل درس عليه العلوم الدنيوية من حساب وهندسة وحكمة طبيعية كما عُرفت عند العلماء الأقدمين ولازمه حتى توفّاه الله سنة ١٩٣٥م فبكى عليه بكاء مرّاً. أنهى دراسته الثانوية بتفوق ملحوظ وحصل على البكالوريا الثانوية ــ قسم الرياضيات ــ ثم قدّم أوراقه لدخول كلية الهندسة في بيروت إلا انه عدل عن رأية فدرس الحقوق وتخرّج سنة ١٩٣٥م. وعمل فترة قصيرة في مكتب المحامي أسعد المحاسني ثم أُوفد للدراسة في باريس فدرس الأدب العربي في السنة الأولى والأدب الفرنسي في السنة الثانية فحصل على الاجازة في الآداب سنة ١٩٣٧م ثمّ حصل على دبلوم علم الاخلاق والاجتماع في السنة التالية. أفاد من دراسته في فرانسا افادة كبيرة بالاطلاع على أصول الثقافة الغربية فقد كان اساتذته في قسم علم الاجتماع من تلاميذ (دوركهايم) Durkheim الذي حاول تأسيس علم اجتماع مستقلّ في موضوعه وطريقته تحقيقاً للهدف الذي رمى إليه أوغست كونت Auguste Comte لا جَرَمَ ان هذا الاتجاه قد اصطدم بالاتجاه الاسلامي الذي نشأ عليه فحاول العثور على صيغة جديدة يرتاح إليها.

ثم رجع إلى دمشق فعمل مدرّساً للغة العربية في المدارس الثانوية في حلب سنة ١٩٣٨م وبعد سنتين انتقل إلى دمشق فدرّس اللغة العربية في ثانويتها الكبرى (التجهيز) وفي دار المعلمين. وفي عام ١٩٤٥م، عيّنه المشرف العام على وزارة المعارف الاستاذ ساطع الحصري مفتشاً عاماً على سورية لمادتي اللغة العربية والدين (بل واللغة الفرنسية أحياناً) فوضع مناهج هاتين المادتين لجميع سنوات التعليم الثانوي بأسلوب علمي جديد.

نشاطه السياسي

في عام ١٩٤٧ استقال من وظيفته في وزارة التربية ليتمكن من ترشيح نفسه للانتخابات ففاز فيها ودخل مجلس النواب نائباً عن مدينة دمشق كما شغل منصب وزير الأشغال العامة والمواصلات سنة ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠م ثم منصب وزير الزراعة سنة ١٩٥١.

وبعد سقوط الشيشكلي انتخب مجلس نيابي جديد فرشّح نفسه نائباً مستقلاً عن مدينة دمشق ونجح في الانتخابات واستمر نائباً حتى عام ١٩٥٩ حين قامت الوحدة بين مصر وسورية فانصرف إلى العمل العلمي ولم يشارك منذ ذلك الحين في العمل السياسي.

عمله في التدريس الجامعي

لم يحُلْ النشاط السياسي عن استمراره في التدريس فقد درّس سنة ١٩٤٨ مادة فقه اللغة ثم الدراسات القرآنية في قسم اللغة العربية في كليّة الآداب بجامعة دمشق. وعندما أسست كلية الشريعة بجهود العالم المفكر مصطفى السباعي رحمه الله في عام ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ الدراسي، شارك في وضع خطّتها ومناهجها واقترح لأول مرة تدريس مادة (نظام الاسلام) ومادة (حاضر العالم الاسلامي) وعيّن فيها استاذا بكرسي أولاً ثم أسندت إليه عمادتها منذ عام ١٩٥٨.

وفي عام ١٩٦٦ انتدب من جامعة دمشق إلى جامعة أم درمان الاسلامية في السودان ليشغل منصب استاذ ورئيس قسم الدراسات الاسلامية. ثم عيّن استاذاً محاضراً في جامعة الخرطوم في كلية الحقوق (قسم الشريعة) منذ عام ١٩٦٧ وقد أحبّ السودان واحبّه أهلها لوعيه الاسلامي ونشاطه المستمر.

وفي عام ١٩٦٩ اقترح عليه وزير المعارف في المملكة العربية السعودية العمل فيها فرحّب بالاقتراح واختار مكة المكرمة فعيّن استاذاً ورئيساً لقسم الشريعة والدراسات الاسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة، وشارك في وضع

مناهجها وخطتها، كما كان عضواً للمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.

ثم أصبح مستشاراً واستاذاً باحثاً في جامعة الملك عبد العزيز بجدّه سنة ١٩٧٣ وفي عام ١٩٧٨م انتدبته جامعة الملك عبد العزيز بجدّه للتدريس في الجامعة الأردنية ليعمل فيها استاذاً للثقافة الاسلامية وعلم الاجتماع بالفصل الدراسي الثاني من كل عام، واستمر في هذا العمل إلى حين وفاته.

مشاركاته

كان عضواً في لجنة الثانويات الشرعية في سورية سنة ١٩٤٢ م كما شارك في عام ١٩٥٤ م في وضع مناهج ومخططات كلية الشريعة بدمشق.

وفي عام ١٩٦٠م، اختاره مجلس جامعة دمشق ممثلاً لها في المجلس الأعلى للتخطيط الجامعي للجمهورية العربية المتحدة في القاهرة، ثم كان عضواً في لجنة التخطيط في جامعة الأزهر.

ARCHIVE

وفي عام ١٩٦٤م، شارك في وضع خطة لكلية الشريعة في مكة المكرمة، ولكلية التربية من جهة الثقافة الاسلامية، وكان أول من اقترح جمع الكليتين وتسميتهما بجامعة أم القرى. وفي صيف عام ١٩٦٦م، اشترك في وضع خطط الكليات في جامعة أم درمان الاسلامية، وفي عام ١٩٧١م، دُعي للمشاركة في وضع خطّة للدراسة في معهد القضاء العالي في الرياض.

كما شارك في أكثر المؤتمرات الاسلامية التي عقدت في العالم الغربي والاسلامي في كراتشي، ولاهور، ودمشق، ومكة المكرمة، ومقديشو، والقدس، وطرابلس الغرب، والجزائر، والمغرب، والأردن، واندونيسيا، وفرنسا، وايطاليا.

كما كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق والقاهرة وبغداد.

كما شارك في اللقاءات الاسلامية المسيحية، وأشهرها اللقاء الذي مثّله

وفد كبير من العلماء والمفكرين من المملكة العربية السعودية في دولة الفاتيكان ثم في باريس واسبانيا وذلك سنة ١٩٧٤ م.

اتصل بعدد من المفكرين الغربيين الذين انصفوا الاسلام واعترفوا بفضله على الحضارة الانسانية مثل (زيغريد هونكه) المستشرقة الألمانية، وموريس بوكاي، وروجيه غارودي الفرنسيين.

وفاتـه

كان كعادته ــ رحمه الله ــ يقصد المدينة للزيارة فقصدها مع زوجته وابنته يوم الاثنين ١٤٠٢/٢/٤ وفي صبيحة يوم الخميس ١٤٠٢/٢/٧هـ الموافق ١٩٨١/٢/٣ م أدركته الوفاة بالسكتة القلبية، وهو في طريقه إلى الطبيب مع أحد أخوانه وبعد وقت قصير من عبارة قالها وهو يمرّ من أمام مقبرة البقيع: (هنيئاً لمن يُدفَن في البقيع) يرحمك الله ياأبا هاشم، كأنّي بك صدقتَ الله وعده، فاختارك في هذه الأرض الطيّبة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آثاره ومؤلفاته

خلّف لنا مجموعة من الكتب والرسائل النافعة هي:

١ ــ فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ طبع سنة ١٩٤٠ م.
٢ ــ رسالة في عبقرية اللغة العربية طبع ١٩٥٦ م.
٣ ــ نظرة الاسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة ١٩٥٨ م.
٤ ــ القرآن عربي الخطاب انساني الرسالة ١٩٥٩ م.
٥ ــ من منهل الأدب الخالد (دراسة تحليلية أدبية لنصوص من القرآن) ١٩٥٩ م.
٦ ــ رسالة في عبقرية اللغة العربية.
٧ ــ فقه اللغة ١٩٦٠ م.
٨ ــ خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ١٩٦٠ م.
٩ ــ الامة العربية في معركة تحقيق الذات الطبعة الأولى ١٩٥٩ م.

١٠ ــ سلسلة نظام الاسلام صدر منها : العقيدة والعبادة ، الاقتصاد ، الحكم والدولة .
١١ ــ المجتمع الاسلامي المعاصر .
١٢ ــ الفكر الاسلامي في مواجهة الأفكار الغربية ١٩٦٩ م .
١٣ ــ نحو انسانية سعيدة .
١٤ ــ العقيدة في القرآن الكريم .
١٥ ــ ذاتية الاسلام أمام المذاهب والعقائد ــ المحاضرات العامة خلال عام ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ جامعة دمشق .
١٦ ــ نحو وعي اسلامي جديد (محاضرة ألقاها في الأزهر) .
١٧ ــ المشكلة الثقافية في العالم .
١٨ ــ مذكرات في الثقافة الإسلامية .
١٩ ــ الاسلام والفكر العلمي .
٢٠ ــ بين الثقافتين الغربية والاسلامية .
٢١ ــ الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية (بحث قدمه إلى اسبوع الفقه الاسلامي) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا ماعدا عدداً من المقالات في كثير من المجلات الاسلامية العلمية ، وكان آخر مقال له في مجلة الأمة[١٣] الصادرة من دولة قطر بعنوان (موضوع الأمة بين النظريات الاجتماعية والتصور الاسلامي) .

إطلالة على معالم فكره

لما كان اهتمامه الفكري يدور حول ثلاثة محاور اللغة العربية والقومية العربية والاسلام فانني اقتطف نبذاً من أقواله أو أشير إلى بعض أفكاره في هذه الموضوعات الثلاثة .

(١٣) الأمة السنة الثانية ــ العدد الأول ١٠ ــ ١ ــ ١٤٠٢ هـ .

١ ــ اللغة العربية[١٤]

١ ــ يقول المبارك في اللغة : (للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فانها الأداة التي تحمل الأفكار وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة، وبها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم. ان القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي. أضف إلى ذلك ان الأمة العربية أمة بيان والعمل فيها مقترن دوماً بالتعبير والقول، فللغة في حياتها شأن كبير وقيمة أعظم من قيمتها في حياة أي أمة من الأمم).

٢ ــ كان من أثر الاصطدام بالحضارة الأوربية وماتلاها من حرب ثقافية على اللغة العربية ظهور دعوات فاسدة نشير إليها فيما يلي:

أولاً : الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة العربية وهي تنطوي على اغفال مقصود أو جهل لخصائص اللغة العربية في تكوين الكلمة وبنائها ونبوّها عن الطريقة اللاتينية في رسم الكلمات وكتابتها.

ثانياً : الدعوة إلى العاميّة وهي بطبيعة الحال دعوة إلى الاقليمية فليس ثمّة عاميّة واحدة بل لهجات أو لُغيّات، وقبول العاميّة يؤدي إلى انطلاق هذه اللهجات في طرق مختلفة في تطوّرها وتنتهي بها إلى ما انتهت إليه اللاتينية في فرنسا وايطاليا واسبانيا.

ثالثاً : الدعوة إلى اغراق العربية في سيل من الألفاظ الأعجمية دون قيد أو شرط، سواء أكنا نستطيع أن نجد لها لفظاً يقابلها جديداً أو قديماً أم لم نستطع ودون أن نراعي أوزان العربية وحروفها وأصواتها. إن هذه الدعوة تشبه الدعوة إلى فتح الأبواب مُشرّعة أمام البضاعة الأجنبية دون قيد بحجة رفع مستوى الحياة الاجتماعية وهي دعوة تخفي وراءها طبعاً قتل الصناعة الوطنية والقضاء على الاقتصاد القومي. إنها شعوبية جديدة في الميدان اللغوي.

(١٤) انظر (خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان من آثار هذه الدعوات ظهور نزعة محافظة اتصفت بكثير من التزمّت والتشدّد ولكنها قامت بوظيفة الدفاع عن اللغة الموروثة فصدّت عنها عبث العابثين وعدوان المعتدين، ولكنها لم تميّز بين الأصل الثابت من عناصرها وبين العارض المتبدل منها. فاستنكرت كلمات فصيحة أصبحت اليوم شائعة رغم معارضتها اذكر منها مثلاً: النقد والاكتشاف والفنّان والمجهر. رُفض هذا المصطلح الأخير لأنه صيغ على وزن اسم الآلة، واسم الآلة بزعمهم سماعي لا يجوز القياس على وزنه فيجب أن نستعمل (الجاهرة) بديلاً منه. وهذا مما دعا (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) إلى اصدار قرار بقياسية اسم الآلة.

يقول أستاذنا المبارك: (لقد انتهى الأمر بالوعي اللغوي إلى ما انتهى إليه الوعي الذاتي في سائر ميادين الحياة: تحرّر من الانحطاط ورواسبه، تحرّر من العُجمة الجديدة والشعوبية الحديثة، استعادة للخصائص الأصيلة والصفات الذاتية واستشعار بها، اتصال بالماضي وتمثل لعناصره الأساسية الخالدة بعد احياء آثاره المهملة المنسيّة، تقارب بين الفصحى والعاميّة بارتفاع العاميّة واقترابها من الفصحى ونزول الفصحى إلى ميادين الحياة واتصالها بها بعد ان اعتزلت كثيراً من ميادين الحياة قروناً طويلة؛ ثمّ قدرة على التجديد والتوليد والبناء في ظروف الحياة الجديدة المتبدلة، ذلك هو الوعي اللغوي في المراحل التي قطعها والتي وصل إليها.

ثم يقول: (إن هذا الوعي اللغوي لا بدّ من انضاجه وتغذيته وتقويته ليشتد ويستحكم ويكمل، وليكون أوسع أفقاً وأشمل لعدد أكبر من الناس وليكون أرسخ وأعمق في النفوس) ما أحرانا اليوم بقبول هذه التوصيات وتنفيذها إلى أقصى مداها وأن لا نقنع بما حققناه من انتصارات إذ سقطت الدعوة إلى رسم لغتنا بحروف لاتينية وحلّ محلّها في نفوس الأوربيين اعجاب بالخط العربي وطاقته الفنّية الخلاقة[١٥]، كما سقطت الدعوة إلى العاميّة واستعادت الفصحى

(١٥) انظر وصف الخط العربي في شعر أراغون (مجنون إلسا).

مكانتها وشهد لها مستشرق كبير قائلاً : إنها لغة الحريّة العُليا ووحي الحبّ وان من حق العرب أن يعتزوا بهذه الآلة اللغوية الصافية والصالحة لنقل الفكر عَبْرَ الدُوَل[١٦] ولكن الحملات السابقة تركت في نفوس العرب كُلُوماً لم تندمل بعد ولا يليق بهم الاستنامة إلى هذه الانتصارات بل ان الوعي اللغوي يدعوهم إلى مواجهة الواقع وادراك أن الحرب الثقافية لم تضع أوزارها ولكنها سلكت سُبُلاً أشد خفاء واتّبعت أساليب أكثر مكراً فليواجهوها بروح واثقة، محرّرة من الشعور بالنقص، مؤمنة بالنصر النهائي .

فانظر إلى اللهجات العاميّة في البلاد العربية فقد بقيت دراستها وقفاً على المستشرقين لأن العربي يخشى تهمة الترويج للعاميّة مع انه لا ضير في هذه الدراسة إذا تولّاها عربي مؤمن بلغة القرآن[١٧]، بل انها تؤدي إلى تقارب العاميّات وتعانقها في حضن أمها الفصحى حيث ترتضع الفصاحة من لبانها مما يعود على الأمة العربية بالخير العميم . وانظر إلى مشكلة تعريب التدريس الجامعي وما يعقد من مؤتمرات في سبيلها تكون مسرحاً يتبارى فيه العلماء واللغويون في تقديم دراسات تختلف عمقاً وسعة في قدرة العربيةِ على الوفاء بما تتطلبه لغة العلوم . ثم ينتهي كل مؤتمر إلى اصدار توصيات كأنها طمأنة المريض حتى يأذن الله له بالشفاء لا إلى استصدار قرارات باتخاذ العربية لغة تدريس العلوم .

وانظر إلى طرائق التوليد اللغوي من اشتقاق وتعريب ونحت وكيف استخدم بعضهم النحت[١٨] بغير قيود وحسبوا ان فيه حلاً لمشكلة التوليد اللغوي في العربية وغاب عنهم ما تمتاز اللغة العربية به من أصالة بينا لا يرى العرب بأساً في قبول اللفظ الأعجمي في لغتهم بعد تغيير في حروفه أو حركاته يجعله مجانساً لالفاظهم فهل للعرب أن يتفقوا على استراتيجية تحمي اللغة العربية وتصدّ عنها كيد الكائدين وشتان بين استراتيجية تجاري اللغة في تقلباتها الحيّة

(١٦) لويس ماسينيون في مقدمته لكتاب المعجزة العربية للمستشرق ماكس فانتاجو .
(١٧) انظر مقالات الأستاذ شفيق جبري بعنوان (بقايا الفصاح) .
(١٨) انظر مقال الأستاذ المهندس وجيه سمّان (النحت) في مجلة مجمع اللغة العربية مجلد : ٥٧ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وترصد ما يعترضها من عقبات في المجال الاجتماعي وبين خطة جامدة تعامل اللغة معاملة ميكانيكية بعيدة عن حياة الأمة. وإذا صح ان العرب أمة واحدة فيجب ان يواجهوا مشكلة اللغة مواجهة وحدوية مؤتلفة، لا مواجهة قطرية مشتّتة وان يبادروا إلى اقالة لغتهم من عثرتها، وإلا فإن المنظمات الدولية التي تعمل في مجال المصطلحات سوف تثبت الأوضاع اللغوية السقيمة وتضع أصحاب اللغة أمام أمر واقع لا محيص لهم عن قبوله.

وهل يجوز التخاذل أمام التحديات الهائلة التي تواجهنا بها المسيرة الحضارية المتسارعة التي تجاوزت المرحلة التقنية إلى المرحلة الاعلامية والتي ظهر فيها (العلم المعرفي) الذي أفاد من علم اللغة كثيراً وهو حريٌّ أن يعود على دراسة اللغة العربية بالخير العميم.

٢ ــ القومية العربية

يقول المبارك: (لقد مضى الزمن الذي كان فيه أكثرنا يفهم الاستقلال فهما ماديّاً ضيّقاً ويقصره على الأرض ويقنع بان تسلم له يتصرّف بها، أو ليس لنا مع أرضنا ملك آخر هو تراثنا المعنوي واستقلالنا الفكري وحريتنا في طريقة البناء في هذه الأرض؟).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقول:

(إن الانسانية كلها في أزمة فقد رقّى الانسان الوسائل ولم يسمُ بالأهداف والغايات. تحسنت وسائل العيش وتردى الضمير الانساني، وغدا الانسان عبداً للآلة التي صنعها بيده، وطغت الأهداف الماديّة على البشرية جمعاء، وطبعت الحضارة الحديثة بطابعها، وهي على اختلاف أشكالها لاتُعرف إلا باسم ماديّ فهدفها ــ سواء كانت رأسمالية أو ماديّة ــ المادةُ وحدَها.

فهل نستطيع بما عندنا من تراث أن نساهم في حلّ معضلة الانسانية؟).

ثم يقول[١٩] :

(لنسرّح الطرف عبر القرون ولنبحث عن العناصر الانسانية والقيم الخالدة من تراثنا . ان الايمان بالقيم الخلقية والمعاني المثالية في الحياة هو أول خطّ من خطوط هذا التراث . فقد عرف العربي منذ الجاهلية بالإباء والمروءة، والعفة عن الأعراض، والكرم وحماية الجار والحليف، والايثار ومشاركة الناس . ومن أجمل ما قيل في هذا الموضوع قول عروة بن الورد[٢٠] :

اتهزأ مني أن سمنتَ وان ترى ... بجسمي مسّ الجوع والجوع جاهد

فاني امرؤ عافي انائي شركة ... وانت امرؤ عافي انائك واحد

اقسّم جسمي في جسوم كثيرة ... واحسو قراح الماء والماء بارد

وبالجملة فان العربي كان متجهاً اتجاهاً مثالياً ولو اخطأ الهدف وضلّ السبيل فاسرف وبالغ ووضع الأمور في غير نصابها وبذلك استحق ان يوصف بالجهل[٢١] الذي هو ضدّ الحلم والحكمة . زد على ذلك ان الاتجاه المثالي كان في اطار القبيلة وفي نطاق الصحراء ولما ظهرت رسالة الاسلام واستجاب لها العرب، تجاوب الاستعداد المثالي العربي مع مثاليتها فأصبحت التضحية بالنفس في سبيل احقاق الحق وتحقيق العدالة وأصبح الكرم مالاً يجبى ويوزّع بالعدل وبحسب الجهة والحاجة وغدا الإباء غضباً للحق وثورة على الظلم . وعاد التضامن مع القبيلة تضامناً مع المجتمع كله والعصبية للقبيلة عصبية للحق . لقد نقل الاسلام مثاليّة العرب من صعيد الصحراء إلى صعيد البشرية، ومن إطار القبيلة إلى اطار الانسانية ومن الاتجاه غير المحدّد الهدف إلى مثالية منظمة رائعة . فتحققت معجزة أراد الله أن يكون العرب أداتها والمنفذين لها .

٣ ــ الاسلام[٢٢]

كان بين العرب كقومية وأمة والاسلام كصورة للمثل الأعلى، تلازم

---

(١٩) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ص١١٣ .

(٢٠) المرجع السابق ص١١٨ .

(٢١) يقال: إن الذي نبّه إلى معنى الجهل هذا هو الأستاذ المرحوم سليم الجندي .

(٢٢) المرجع السابق ص١٣٠ .

طويل تمثّل في تاريخ حافل وفي حضارات أينعت وأثمرت ونالت الانسانية منها أطيب الثمرات. ولئن كان كل مسلم يعتبر الاسلام دينه الذي يدين به في هذه الحياة، فإن كل عربي مهما كان دينه ينظر إلى الاسلام على انه تراثه القومي وتاريخه الضخم وإن الغرب وحده ـ والذين تأثروا به في ارائهم ـ هو المسؤول عن سوء فهمه للمسيحية والاسلام وقصوره وعجزه عن إدراك معانيهما السامية وكم سعى المستشرقون العاملون في خدمة الاستعمار الأوربي في اثارة العصبيات الطائفية، والقرآن الكريم يقول:

﴿ لا اكراه في الدين، قد تبيّنُ الرشد من الغيّ ﴾[٢٣]

﴿ ولتجدنّ اقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورُهباناً وانهم لا يستكبرون ﴾[٢٤]، فالاسلام[٢٥] ـ بغضّ النظر عن كونه دين القسم الأكبر من الشعب العربي ـ هو تراث الأمة العربية القوميّ، من روحه واتجاهاته العامّة تستمدّ مُثُلها ومبادئ تشريعها. فمن يستطيع أن يتهم الشاعر القروي بالتعصب الطائفي للاسلام حين يقول:

عِش للعروبـــة هاتفـــاً ... بحياتهـــا ودوامهـــا
وامـــدد يميـــن الحبّ يا ... لبنانهـــا لشآمهـــا
انظـــر إلى آثارهـــا ... تنبئـــك عـــن أيامهـــا
هـــذا التـــراث يمتّ معـــ ... ـظمـــه إلـــى إسلامهـــا

ويقول:

أنا العروبةُ لي في كل مملكة ... انجيلُ حبّ ولي قرآن إنعام
سَل عهد شامي وبغدادي واندلسي ... عن عمق فلسفتي، عن عدل احكامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت ... عروبتي مثلي الأعلى واسلامي

(٢٣) البقرة: ٢٥٦.
(٢٤) المائدة: ٨٢.
(٢٥) المرجع السابق ص٨٢.

وشامتٍ بي مسرور بحزني مستشفٍ بدائي، ملتذٍّ بآلامي
قولوا له عربٌ تقضوا عليه فان يسلمْ فتنّوا بقـرآن واسلام

أو ليس ينهل كاتب عربي كالدكتور أديب نصور من ينبوع الدينين حين يقول:

مشكلتنا أعمقُ بكثير من السياسة والاقتصاد، هي مشكلة أمة فقدت مُثُلاً قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مثلاً أخرى تتفق عليها، واني اعتقد ان العمل الجديد يجب أن يكون اخلاقياً روحياً قبل كل شيء.

ويختم كلامه هذا بقوله:

إن دعوتي ليست أقلّ ولا أكثر من العودة إلى الله، ولله المثل الأعلى كما جاء في القرآن الكريم ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾[٢٦].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢٦) سورة الروم: ٢٧.

حفل استقبال
الزميل الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق في جلسته الأولى المنعقدة في ١٤٠٥/١٢/٢٠هـ ــ ١٩٨٥/٩/٤م (الدورة المجمعية ١٩٨٥ــ١٩٨٦) الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا عضواً عاملاً في المجمع للكرسي الذي شغر بوفاة الأستاذ الدكتور ميشيل الخوري. وقد صدر بذلك المرسوم ذو الرقم (٤٩٧) تاريخ ١٤٠٩/٥/١٩هـ ــ ١٩٨٨/١٢/٢٧م.

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الأستاذ الدكتور البابا في جلسة علنية عقدها في قاعة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ببناء المدرسة العادلية مساء يوم السبت ٢٢ شوال ١٤٠٩هـ/٢٧ أيار ١٩٨٩م، حضرها جمعٌ من أعلام الفكر والعلم والثقافة.

افتتح الحفل الأستاذ الدكتور شاكر الفحام نائب رئيس المجمع بكلمة رحب فيها بالأستاذ الدكتور البابا وبارك انضمامه إلى مجمع الخالدين، ثم ألقى الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان عضو المجمع كلمته في استقبال زميله المجمعي، أشاد فيها بمباحثه العلمية ومزاياه الخلقية وذكر أطرافاً من سيرته. ثم ألقى الأستاذ الدكتور البابا كلمته التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ الدكتور ميشيل الخوري.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل.

كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

باسم الله العلي القدير نفتتح هذه الجلسة، نستقبل فيها الزميل العزيز الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا عضواً عاملاً في مجمع الخالدين.

لقد انتخب مجلسُ المجمع الأستاذ البابا في جلسة رسمية، وصدر المرسوم الجمهوري ذو الرقم (٤٩٧) تاريخ (١٩/٥/١٤٠٩هـ — ٢٧/١٢/١٩٨٨م) بتعيين الدكتور محمد زهير البابا عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإننا لنكرر تهنئة الأستاذ الكريم بثقة زملائه المجمعيين، وانضمامه إلى مسيرتهم في خدمة العربية المبينة، يشاركهم في الاضطلاع بالأمانة، وتعاونهم مع المجامع العربية والجامعات، لتكون الفصحى لغة العلم والتعليم والإدارة والحياة اليومية في الوطن العربي إن شاء الله.

وأبدأ فأرحب بكم أجمل الترحيب وأكرمه لتفضلكم بتلبية الدعوة. وإننا لنعتز بحضوركم وشهودكم حفل الاستقبال، ونعتدُّ ذلك تعزيزاً للمجمع، بل تعزيزاً للغة الضاد، لغة الفصاحة والبيان، التي كرَّمها الله، فأنزل بها كتابه المعجز ليكون هدى للعالمين.

يقول أبو العلاء المعري:

تشتاق أيارَ نفوسُ الورى ... وإنما الشوقُ إلى وَرْدِه

وها نحن أولاء نستقبلُ بحمد الله في شهر أيار (ونظيره شهر شوال) زميلين كريمين، نشدُّ بها الأزر: الأستاذ الدكتور مختار هاشم الذي استقبلناه في الحادي عشر من أيار (١٩٨٩م)، والأستاذ البابا الذي نستقبله اليوم (٢٧ أيار) في هذا الصرح العلمي الشامخ، الذي يحمل ذكريات التاريخ، ويروي قصة الماضي المجيد، فتطالعنا رؤاه منذ أن أقامه الملك العادل ليكون منارة للعلم والعرفان، وتشخص أمام أبصارنا أطيافُ أولئك العلماء الأعلام الذين انتصبوا في قاعاته يدرّسون ويؤلفون، لينهل الطلاب من نمير معارفهم العذبَ الزلال، فتتمثل القاضي جمال الدين المصري، وجمال الدين بن مالك، وشمس الدين بن خلكان، وتقي الدين السبكي وأمثالهم من أكابر العلماء وأجلائهم، الذين يسَّروا العلم لطالبيه، فتخرَّج بدرّوسهم ومؤلفاتهم العديدُ الأوفر.

ثم شاء الله أن تكون المدرسة العادلية الكبرى مقرَّ المجمع، أقام فيها السنوات الطوال، قبل أن ينتقل إلى مقره الجديد، عقد فيها الجلسات والحلقات، وألقى المحاضرات العامة، واستقبل كرام الوفود. ومن منا لا يذكر هذا الماضي القريب من نشاط المجمع في مختلف جوانب الحياة العلمية والأدبية والثقافية.

ومن منا لم يقرأ ما سطرته الأقلام من أخبار الحفاوة البالغة التي قوبل بها أميرُ الشعراء أحمد شوقي، وشاعرُ النيل حافظ إبراهيم (تاريخ المجمع العلمي العربي: ٨٦، ٨٩) اللذان ما زالت أناشيدهما الرائعة تتردد في أبهاء المجمع وقاعاته.

إن المجمع، باختياره المدرسة العادلية الكبرى ذات التاريخ الثقافي العريق، مقراً له، إنما كان يرمز إلى الصلة الوثيقة بين حاضر هذه الأمة وماضيها، وأن نهضتها المرجوة تقوم على أساسين من التراث والمعاصرة.

وها هو ذا المجمع يشق طريقه في خدمة العربية، أميناً على تراثها، ملبياً لحاجاتها في المصطلح والحداثة، كاشفاً عن أسرار العربية وعبقريتها وقدرتها على الاستجابة لكل ما جدَّ ويجدُّ من كشوفٍ في مجالات العلوم البحتة والتطبيقية والتكنولوجية والانسانية. إنه في عامه السبعين أشد ما يكون نشاطاً، وأقوى ما يكون تمرساً بمهماته، وأقدر ما يكون نهوضاً لتحقيق أهدافه: يكمل لاحق ما بدأه سابق. وهل الحياة إلا سلسلة متصلة الحلقات من النشاط والعمل لا توقف فيها ولا ركود. فمن خالف سنة الحياة فمصيره الجمود ثم الموت.

●

وإني في مقامي هذا لأستمطر شآبيب الرحمة على السابقين من أعضاء المجمع الذين خطُّوا لنا الطريق، ودمَّثوا عقابه، وراضوا صعابه، فكانوا الموطِّئين لنا، نمضي على سَنَنهم ونتأسى بسِيَرهم، وننهج على غرارهم، لتظل راية العربية المبينة عالية خفاقة، تظلِّل الوطنَ العربي، وتجمع أبناءه، وتحرس حضارته، وما ذلك على الله بعزيز.

سيلقي كلمة المجمع الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان يقدم بها الزميل الجديد الدكتور محمد زهير البابا.

ويتلوه الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا يتحدث عن سلفه الأستاذ الدكتور ميشيل خوري.

وإننا لعلى ثقة بأن ينهض الأستاذ البابا بالمهام التي يتطلبها المجمع على خير الوجوه وأفضلها.

أخذ الله بيدنا جميعاً لنؤدي واجبنا كاملاً غير منقوص.

خطاب الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان
في حفل استقبال الأستاذ الدكتور زهير البابا

سيدي نائبَ رئيسِ المجمع
سادتي أعضاءَ المجمع
أيها السيدات والسادة

لقد كلفني مجلسُ مجمعِ اللغة العربيةِ بدمشق أن أقدم إليكم اليوم عضوه العامل الجديد السيدَ الأستاذَ الدكتورَ محمد زهير البابا . وإن لي في هذا لسعادةً وشرفاً ذلك أن هذا الصرحَ العريقَ ، مجمعَ اللغة العربية بدمشق ، يحرص على ألا ينظِم في عقده إلا المتميزين خُلقاً وعلماً وتضلعاً من التراث العربي المجيد ومن اللسان العربي المبين . والأستاذ الدكتور زهير عالم يُجل اللغة العربية وخدم التراث العلمي العربي خدمة تستحق الإعجاب والتقدير . وإن في انضمامه إلى مجمع اللغة العربية بدمشق لكسباً لهذا المجمع وعوناً له على تحقيق أغراضه .

ولد الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا في حي القيمرية بمدينة دمشق عام ١٩٢١ ، وحينما بلغ السادسة من عمره ، ألحقه والده بالمدرسة الجوهرية ليتعلم قراءة القرآن الكريم . ولما أتم السابعة سجله والده في مدرسة التطبيقات التي فتحت أبوابها في ذلك العام في الحي الذي كان يقطنه ، وبقي في تلك المدرسة إلى أن نال شهادة الدراسة الابتدائية . وفي عام ١٩٣٣ انتسب إلى (مدرسة التجهيز) (التي كانت مشهورة آنذاك باسم مكتب عنبر) لمتابعة الدراسة الثانوية ، وحينما تم بناء مدرسة التجهيز عام ١٩٣٧ (بناء ثانويتي جودة

ARCHIVE

الهاشمي وابن خلدون) انتقل إليها وأتم دراسته فيها ونال شهادة بكالوريا التعليم الثانوي بقسميها الأول والثاني في شعبة الفلسفة.

وفي عام ١٩٤٠ قُبل طالباً في السنة الإعدادية في المعهد الطبي العربي، قسم الصيدلة وتابع الدراسة في هذا المعهد مدة خمس سنوات نال بعدها الإجازة في علوم الصيدلة والكيمياء.

وحينما أعلنت رئاسة الجامعة السورية عن رغبتها في إيفاد أحد الصيادلة، بالمسابقة، للتخصص في علم العقاقير والنباتات الطبية، تقدم الدكتور البابا لذلك الامتحان وحصل على الدرجة الأولى فيه، وصدر قرار وزاري بإيفاده إلى جامعة بروكسل في بلجيكة للحصول على شهادة الدكتوراه في الاختصاص المذكور.

وتسجل الدكتور البابا في قسم العقاقير بكلية الصيدلة بجامعة بروكسل، وكان الموضوع الذي اختاره لأطروحته دراسة أحد النباتات الطبية السورية المسمى علمياً داتورة إِنُكْسِيَة Datura Inoxia. وكان هذا النبات منتشراً انتشاراً عفوياً في القسم الجنوبي من سورية ومعروفاً فيه باسم (البَرْش). وكان الدكتور البابا قد شاهد هذا النبات في أطراف مدينة بصرى حينما زارها في صباه. ورأى بعض المزارعين (يدخنون) أوراقه الجافة ممزوجة بالتبغ. ولما سأل عن سر هذا الاستعمال أجابوه بأن في ذلك مزيجاً من النشوة والخدر.

وفي بروكسل، تلقى الدكتور زهير من أهله في سورية كمية من أوراق ذلك النبات الجافة مع كمية من البذور لاستنباتها في بلجيكة، وقام بدراسة تصنيفية ونسيجية وكيماوية ووراثية لهذا النوع النباتي كما قام بمقابلة أوصافه بصفات أنواع أخرى تنتمي إلى الجنس (داتورة)، وجدها مزروعة في حدائق النباتات المنتشرة في أنحاء بلجيكة. وقد استطاع الدكتور البابا أن يقوم بدراسة وراثية وتهجينية بين تلك الأنواع وحصل على سلالات ذات صيغة صبغية متعددة، ثم قام بعد ذلك بفحوص مجهرية وكيماوية لمساحيق أوراق الأنواع

والسلالات التي حصل عليها وتمكّن من التفريق بين تلك المساحيق بالطرائق الكيماوية والمجهرية، كما استطاع عزل المركّبات الكيماوية الفعالة الموجودة في أوراق الأنواع السورية من نبات الداتورة.

وفي عام ١٩٤٨ تقدم السيد البابا لامتحان الدكتوراه في العلوم الصيدلية فنجح بدرجة جيد جداً، مع تهنئة اللجنة الفاحصة.

وعاد الدكتور البابا بعد ذلك إلى دمشق وعُين مدرساً في كلية الطب قسم الصيدلة، وكُلّف تدريسَ مقرر علم العقاقير الذي أنشئ حديثاً في ذلك القسم ثم تدرّج بعد ذلك في الهيئة التدريسية حتى أصبح أستاذاً ذا كرسيّ في عام ١٩٦٢.

ولقد استقل قسم الصيدلة في ذلك العام عن كلية الطب فأصبح كلية الصيدلة وعُين الأستاذ الدكتور البابا وكيلاً لهذه الكلية ورئيساً لقسم العقاقير فيها. وسعى الدكتور البابا منذ تعيينه عضواً في الهيئة التدريسية إلى إنشاء مُتحف لحفظ نماذجَ من العقاقير المحلية والأجنبية. وكان من اهتماماته أيضاً إنشاءُ حديقة للنباتات الطبية في الجامعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان الدكتور البابا منذ عام ١٩٦٠ يقوم بالإشراف الفني على أول معمل للخميرة في سورية. وقد تمكن من رفع إنتاج المعمل من طُنين في اليوم إلى ثمانية أطنان، وذلك بزيادة عدد أحواض التخمر وبإنتاج سلالات محلية من الخميرة تتلاءم مع جو المعملِ وطريقة العمل.

وفي عام ١٩٦٣ أعير الدكتور البابا إلى جامعة الملك سعود بالرياض، وعين فيها رئيساً لقسم العقاقير وعضواً في مجلس كلية الصيدلة، وعضواً منتدباً في مجلس الجامعة وبقي على تلك الحال حتى انتهت مدة إعارته عام ١٩٦٨. وكان الأستاذَ الوحيدَ الذي أُجيز له أن يلقي محاضراته في الكلية باللغة العربية.

وبعد مضي عامين على عودته إلى دمشق صدر قرار بتعيينه عميداً لكلية الصيدلة.

ولقد قام الدكتور البابا بترجمة عدة مؤلفات أجنبية تبحث في علمي العقاقير والنباتات الطبية، وكان لا بد له من أن يفتش عن المصطلحات العلمية العربية التي تقابل المصطلحات الأجنبية. ولهذا لجأ إلى الكتب العربية القديمة التي تبحث في علم النبات وفي علم الأدوية والأقرباذينات وهكذا عرف كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وكُتُب النبات لابن بَصَّال وابن العوام وابن الرومية والشريف الادريسي، بالإضافة إلى مؤلفات ابن ميمون والغافقي وابن البيطار وداوود الأنطاكي وغيرهم ممن ألفوا في الأدوية المفردة. وكذلك فقد اعتمد على معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي وعلى معجمي الدكتورين أحمد عيسى ومحمد شرف.

ولقد استفاد الدكتور البابا من مؤلفات بعض الأوروبيين، الذين درسوا العقاقير والنباتات المنتشرة في بلاد الشرق الأوسط، لمعرفة أماكِن وجودِ بعض النباتات الطبية ومعرفة أسمائها المحلية.

وبعد جهود دامت عدة سنوات تمكن الدكتور البابا من إنجاز أول كتاب يظهر باللغة العربية في علم العقاقير وتشخيصها المجهري والكيماوي ويتألف من جزأين، جزء في الدروس النظرية وجزء في الدروس العملية ولقد صدر هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة في عامي ١٩٦٤ و١٩٦٥ ثم أعيد طبعه في عامي ١٩٧٠ و١٩٧١.

وحينما كُلف الأستاذ الدكتور البابا تدريس تاريخ الصيدلة وتشريعها وآدابها، بدأ بتأليف كتاب يجمع بين تلك الموضوعات. وفي عام ١٩٧٥ وافقت رئاسة جامعة دمشق على طبع الكتاب ثم أعيد طبعه بعد التنقيح في عامي ١٩٧٨ و١٩٨٦.

ومن النشاطات العلمية التي قام بها الأستاذ الدكتور البابا إلقاؤه كثيراً من البحوث في أسابيع العلم التي ينظمها المجلس الأعلى للعلوم منها بحثٌ عن الصناعة الصيدلية وأهميتها في سورية (عام ١٩٦٩)، وبحث عن الأكحال

والشّيافات في طب العيون عند العرب (عام ١٩٧٨) وبحث عن تاريخ علم السموم في المؤلفات العربية (عام ١٩٧٩).

ولقد درّس الأستاذ الدكتور البابا في معهد التراث العلمي العربي الملحق بجامعة حلب وأسهم في أعمال الجمعية السورية لتاريخ العلوم، وشارك في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات الإقليمية والدولية.

لقد ألقى محاضرة عنوانها (الطب العربي بين الأصالة والتجديد) في مؤتمر دولي لتاريخ الحضارة العربية أقيم في الجامعة اللبنانية في بيروت في شهر آذار عام ١٩٧٥.

وألقى في الندوة الدولية الأولى لتاريخ العلوم بإشراف معهد التراث العلمي العربي في مدينة حلب محاضرة عنوانها (الأقرباذينات أو دساتير الأدوية العربية) (عام ١٩٧٦).

وألقى في الندوة الدولية الثانية (عام ١٩٧٩) محاضرة عنوانها (الفحوص المخبرية في المؤلفات الطبية العربية).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وألقى في الندوة الدولية الثالثة التي أقيمت في الكويت عام ١٩٨٣ بحثاً عن (علاقة علم العقاقير بعلم الفلاحة عند العرب).

وكان ألقى في ندوة علمية تراثية عقدت عام ١٩٨٢ في جامعة الفاتح في الجماهيرية العربية الليبية، تحت شعار (الطفل العربي) بحثاً عنوانه (علم الجنين بين اليونان والعرب).

وفي ندوة أقيمت في مدينة تونس في تشرين الأول عام ١٩٨٣ احتفالاً بالعيد الألفي للطبيب أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار، تكلم الدكتور البابا عن الأدوية المفردة والمركبة الموجودة في مؤلفات هذا الطبيب القيرواني المشهور.

وقد شارك الدكتور زهير في المؤتمر الذي عقدته الجمعية السورية لتاريخ

العلوم في مدينة طرطوس في منتصف هذا الشهر احتفالاً بالذكرى الألفية لتأليف محمد بن اسحق النديم الوراق كتابه الفهرست.

وفي العام ١٩٨٠ ــ ١٩٨١ تفرغ الأستاذ الدكتور البابا للبحث العلمي وقصد مدينة باريس واطلع في مكتبتها الوطنية على جميع ما فيها من مخطوطات طبية عربية وقام بفهرستها وتصنيفها وفقاً لأسماء المؤلفين واطلع أيضاً على فهارس المخطوطات الطبية العربية المحفوظة في أشهر المكتبات العالمية من شرقية وغربية فأضحى في مستطاعه أن يعرف من الرجوع إلى الفهارس التي قام بتسجيلها، أماكن وجود النسخ النادرة من التراث الطبي العربي.

وحينما عاد الدكتور البابا إلى سورية حمل معه عدداً من صور بعض المخطوطات التي بدأ بدراستها وتحقيقها في مدينة باريس. وكان أول كتاب أتم دراسته وتحقيقه هو أقرباذين القلانسي الذي يعتبر أكمل دستور للأدوية في الطب العربي. ويعود الفضل إلى إدارة معهد التراث العلمي العربي ورئاسة جامعة حلب في طبع هذا الكتاب ونشره عام ١٩٨٣. وبعد ذلك بعام قام معهد التراث العلمي العربي بالتعاون مع معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بنشر كتاب آخر قام الأستاذ الدكتور البابا بإنجاز ما يتعلق به من دراسة وتحقيق وعنوانه (من مؤلفات ابن سينا الطبية) وهو يضم ثلاث مخطوطات من تأليف ابن سينا هي: (دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية ــ أرجوزتان في الطب ــ كتاب الأدوية القلبية).

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وكان الأستاذ الدكتور البابا قد سمي عضواً في اللجنة الوطنية السورية للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم بقرار وزارة التعليم العالي ذي الرقم ٥٦١ المؤرخ في ١٩٨٢/١١/٢١.

ولقد كان للدكتور البابا اهتمامات بالنواحي المهنية والتنظيمية المتعلقة بأمور الصيدلة والصيادلة وحضر اجتماعات لجمعيات عربية ولاتحاد الصيادلة العرب، وألقى فيها بعض البحوث. وحينما عُقد المؤتمر الرابع عشر لاتحاد

الصيادلة في مدينة القاهرة عام ١٩٧٤ منح الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا الوسام الذهبي تقديراً لجهوده.

وفي عام ١٩٨٦ قامت هيئات علمية سورية عديدة بترشيح الأستاذ الدكتور البابا لجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. وبعد أن درست إدارة المؤسسة إنتاج المرشحين اتخذت القرار التالي:

تقديراً للدراسات القيمة والبحوث الأصيلة التي نشرها الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا حول الصيدلة والكيمياء في التراث العربي الإسلامي فقد تقرر منحه جائزة الكويت لعام ١٩٨٦ في إحياء التراث العربي الإسلامي..

وكذلك فقد منحته الجمعية الصيدلية الكويتية الدرع التذكاري بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيسها.

أيها السيدات والسادة.

هذه لمحة عن المنجزات العلمية التي قام بها الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا في أثناء عمله الجامعي الذي دام نحو أربعين عاماً. وإن الذين عرفوا الدكتور زهير جميعَهم سواء أكانوا أصدقاء أم زملاء في الجامعات أم طلاباً في كلية الصيدلة وغيرها قد أدركوا في الوقت نفسه ما يتميز به من أخلاق سامية وعلم غزير وتفكير عميق ورأي سديد.

أيها الأخ الكريم الدكتور زهير، إنني ليسعدني ويشرفني أن أنقل إليك الآن ترحيب مجلس المجمع بك راجياً لك التوفيق في تحقيق كل ما يعلّق عليك من آمال وفي كل ما عقدتَ أنتَ نفسُكَ العزم على بذله من جهود في سبيل خدمة التراث العلمي العربي الجليل ولغتنا العربية الخالدة.

خطاب الأستاذ الدكتور محمد زهير البابا
في حفل استقباله

السيد الأستاذ نائب رئيس مجمع اللغة العربية .
سادتي الزملاء أعضاء المجمع ــ سيداتي سادتي .

إن التقدير المعنوي الذي يحظى به المرء من زملائه ومجتمعه ، هو بنظري أعلى ما يسمو إليه طموح الإنسان المثقف . وتتفاوت حظوظ البشر ، فيما يتعلق بالزمن الذي يشعر به الأفراد والمجتمع بالمحبة والتقدير لأحد مواطنيهم . فمن الناس من عاش ومات مغموراً مقهوراً ، بالرغم مما بذله من جهد وقام به من خدمات وتضحيات . ومنهم من نال التقدير والتكريم باكراً ، فتمتع بالمزية التي حصل عليها ، فازداد عطاؤه وكثر إنتاجه . ومنهم من يأتيه التكريم متأخراً ، فيجدد شبابه ، ويعيد إليه نشاطه ، وينسيه ما عانى في الأيام الماضية من مشقة ونصب في سبيل الحصول على تلك المحبة والثقة .

أيها السيدات والسادة : إنه لمن دواعي سروري واعتزازي أن أقف أمامكم محاضراً ، بمناسبة انتخابي من قبل السادة أعضاء المجمع اللغوي الموقر ، والذين منحوني ثقتهم وتقديرهم ، وشرفوني بترشيحهم لي عضواً عاملاً ، لأشارك في أداء رسالة هذا الصرح العلمي العظيم ، فلهم أقدم احترامي وشكري رئيساً وأعضاء عرفاناً بالفضل والجميل .

وإنني أنتهز هذه الفرصة لأتقدم بالشكر الجزيل لسيادة الرئيس القائد ، على إصداره مرسوم التعيين ، وهو الذي يعود إليه أكبر الفضل في دعم

المؤسسات العلمية وتشجيع البحث العلمي وتكريم العلم والعلماء.

كما أشكر الأخ الكريم الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان، وذلك لتقديمي إليكم، معدِّداً ما قمت به من خدمات وإنجازات متواضعة في حقل التدريس والتأليف الجامعي وتحقيق التراث العلمي العربي.

وإنني إذ أشكره على ما أسداه لي من معروفٍ أرجو من الله أن يشدّ أزري ويساعدني على بذل الجهد في خدمة لغتنا الحبيبة.

لقد شاء القدر أيها السادة أن أكون منذ حداثتي قريب السكن والدراسة من المدرستين الظاهرية والعادلية. ولما كان الدخول في حرمهما مباحاً أيام العطلِ الأسبوعية، لذلك كثر ترددي عليهما طفلاً ويافعاً وطالباً جامعياً.

لقد أنشئ متحف الآثار في مدينة دمشق عام ١٩١٩، وأُلحق بالمجمع العلمي العربي، وأصبح مقرّهما هنا في المدرسة العادلية. وكثيراً ما كان الفضول وحب الاستطلاع يدفعاني للدخول إلى هذا الفناء الجميل لمشاهدة تلك الآثار القديمة، والتي تعشقتها منذ الصغر.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحينما انتسبت إلى مدرسة التجهيز كان من حسن حظي أن يكون أكثر أساتذة اللغة العربية فيها من قدماء أعضاء المجمع. وهذا ما كان يشجعنا، أنا وزملائي الطلاب، على حضور بعض تلك المحاضرات التي كانت تعقد أيام الجمعة، وبهذه الصورة تعرفت عن بعد على أكثر الأعضاء المؤسسين لهذا المجمع.

لقد كان المرحوم الأستاذ محمد البزم أول مجمعي درسنا اللغة العربية في السنة الأولى في مكتب عنبر. وكان يحمل في جيب ردائه، عند حضوره، دفتراً ممتلئاً بأبياتٍ مختارة من الشعر، أطلق عليها اسم الفوائد في اللغة. وقد وجد في حفظنا لها خير وسيلةٍ لتدريبنا على الإعراب، وعلى معرفة قواعد اللغة العربية وحسن النطق بها.

وخلال السنتين التاليتين رعانا أستاذ مجمعي آخر هو الشيخ عبد القادر المبارك، وكان رحمه الله مشهوراً بسرعة الخاطر وسعة الاطلاع. وقد تولّى تدريسنا إلى جانب اللغة العربية علوم الدين والسيرة النبوية. وفي السنتين الأخيرتين من مرحلة التعليم الثانوي أكرمنا الله فكان من أساتذتنا المرحومين: الدكتور كامل عياد أستاذ الأخلاق والمنطق، والدكتور جميل صليبا أستاذ علم النفس، والدكتور يوسف العش أستاذ تاريخ الحضارة، والدكتور محمد المبارك أستاذ الترجمة والنصوص اللغوية، وجميعهم كانوا من أعضاء هذا المجمع العاملين أو المؤازرين.

وحينما انتقلت إلى الجامعة السورية عام ١٩٤٠ التحقت بفرع الصيدلة، وكان قد مضى على تأسيس المعهد الطبي العربي عشرون سنة. لقد تعهد أساتذة هذا المعهد بفروعه الثلاثة الطب والصيدلة وطب الأسنان على القيام بمهمة التدريس باللغة العربية، كما سعوا إلى جعل لغتنا تتسع لجميع ما استحدث في علوم الطب والصيدلة. ويقول المرحوم الأمير مصطفى الشهابي «إن كل أستاذٍ من أساتذة هذا المعهد قد عكف على نخل المصطلحات التي جاءت في كتب الطب القديمة وفي الكتب المصرية والتركية وكتب الكلية الأمريكية. وألف هؤلاء شبه مجمعٍ لغوي ينظر فيما يعرضه عليه كل أستاذ من ألفاظ العلم الذي يُدرِّسه. وهكذا استطاع أساتذة المعهد الطبي العربي أن يؤلفوا كتباً جليلة في فروع الطب المختلفة».

ومن الأمور التي ساعدت على توحيد المصطلحات العلمية في ذلك المعهد بكامل فروعه اشتراك أعضاء الهيئة التدريسية، في تحرير مجلة دورية تولى رئاستها المرحوم الأستاذ الدكتور مرشد خاطر. وقد انتشرت هذه المجلة، إلى جانب المؤلفات العلمية لأساتذة المعهد، في أرجاء الوطن العربي، فشجّعت المجامع والمؤسسات التعليمية على تبني ما ورد فيها من مصطلحات، كما شجعت حملات التعريب، والتي لمّا نزل نسمع صداها يتردد في جميع الأقطار العربية.

سيداتي سادتي

لقد نص النظام الداخلي لمجمع اللغة العربية على أن يقوم العضو الجديد، حينما يستقبله زملاؤه رسمياً في جلسة عامة، بإلقاء خطاب يترجم فيه عن سلفه المتوفى، ويأتي على ذكر سيرته وما أنجز من مؤلفات وأعمال علمية ولغوية.

وبما أنني انتخبت خلفاً للأستاذ المرحوم الدكتور ميشيل الخوري، لذلك يطيب لي ويشرفني أن أقوم بهذه المهمة، نظراً لما كان يربطنا من صداقة وودّ، ولما كنت أشعر نحوه من تقدير واحترام.

كان الدكتور الخوري رحمه الله مثالاً للعالم المتواضع والباحث المدقّق. عفيف اللسان، سليم القلب، دمث الأخلاق. حريصاً على اتقان اللغة العربية والنطق الصحيح بها، كحرصه على إتقان اللغتين الانكليزية والفرنسية. انتُخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٧١، خلفاً لعضو راحل هو المرحوم الأستاذ الدكتور مرشد خاطر. وقد شاءت الصدف أن يكون كل من العضو الراحل والعضو المنتخب لبناني الأصل، جامعاً للثقافتين العربية والأجنبية.

ــ لقد امتاز هذان العالمان باعتزازهما بعروبتهما، وشغفهما باللغة العربية، وكان لدخولهما سلك التدريس في المعهد الطبي العربي، مع زملاء آخرين من القطر اللبناني أهمية تعليمية وأخرى لغوية. ذلك لأن أساتذة الرعيل الأول في ذلك المعهد كانوا من خريجي المدرسة الطبية العثمانية في الاستانة أو في دمشق، حيث كان التدريس باللغة التركية. وبهذه الصورة جمع المعهد الطبي كفاءات علمية ولغوية، نمت وترعرعت في أقطار عربية وأجنبية منذ أواخر القرن الماضي.

ــ ولد الدكتور ميشيل الخوري عام ١٩٠٢ في البترون، وهي إحدى قرى لبنان الساحلية. وأنهى دراسته الابتدائية في مدرسة تابعة للآباء المرسلين الأمريكان في مدينة جبيل. ثم تابع دراسته الثانوية في مدينة طرابلس، حيث تعلم اللغات الثلاث: العربية والانكليزية والفرنسية في مدرسة أمريكية. وفي عام

١٩٢٣ نال شهادة الدكتوراه في جراحة وطب الأسنان، بدرجة الشرف، من الجامعة الأميركية في بيروت.

لقد صرّح الأستاذ الخوري رحمه الله، في الحفل الذي أُعد لاستقباله، عند انتخابه في مجمع اللغة العربية، أن الفضل يعود لأساتذته الذين رعَوْه وثقّفوه، وزيّنوا له حب العلم وحب اللغة العربية.

لقد مهّد هؤلاء الأساتذة أمامه الطريق إلى دمشق، فأتاها كما قال مسحوراً بعروبتها، مفتوناً باللغة العربية، لغة التعليم في جامعتها ومعاهدها. ففتحت له دمشق صدرها، وبسطت له جامعتها كفيها مرحبة. وفي تشرين الأول من عام ١٩٢٤ صدر قرار تعيينه رئيساً لمخبر صناعة الأسنان. ثم رُفّع بعد سنتين لوظيفة مدرّس لعلم مداواة الأسنان. وأخيراً حاز على كرسي الأستاذيّة لذلك المقرر عام ١٩٤٧.

عمل الأستاذ الخوري، أثناء خدمته في الجامعة السورية، طبيباً في المستشفى العسكري (١٩٢٥ـ ١٩٤٥)، كما عُيّن فاحصاً لأطباء الأسنان في وزارة الصحة. وانتُخب نقيباً لأطباء الأسنان بدمشق في عامي (١٩٥٨ـ ١٩٥٩).

ـ أُعير إلى كلية طب الأسنان بجامعة بغداد عام ١٩٦٢، حيث قام بتدريس مقرر ترميم الأسنان ومداواتها باللغة الانكليزية لمدة عامين.

لقد شارك المرحوم الأستاذ الخوري في تأسيس مجلة طب الأسنان السورية، والتي أصدرتها نقابة أطباء الأسنان عام ١٩٦٥، فكان في أول الأمر عضواً بارزاً في هيئة التحرير، ثم تولى رئاسة الهيئة عام ١٩٦٨، لكنه تخلّى عنها بعد انتخابه عضواً في مجمع اللغة العربية.

أسهم الأستاذ الخوري بصورة فعالة في تحرير تلك المجلة منذ صدور العدد الأول منها، فنشر موضوعاً متسلسلاً تحت عنوان (صفحة من تاريخ طب

الأسنان في سورية) . تكلم فيه عن المراحل التي مرّت فيها هذه المهنة ، بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كما تكلم عن أقدم وأشهر من عمل في هذه المهنة في سورية .

كان قلع الأسنان عملاً مارسه أصحاب حرفٍ مختلفة ، من حلاقين ونجارين وحدادين . ثم تحول إلى مهنةٍ مستقلةٍ أخذ يمارسها أناسٌ تعلموها عن طريق التلمذة والملازمة . وفي أواخر القرن الماضي تحوّل بعض قالعي الأسنان إلى صناع أسنان ، وذلك بعد أن اكتشف استعمال المطّاط المتصلّب والأسنان الخزفية ، في صناعة الأسنان المستعارة . ويقول الأستاذ الخوري إن هذا الإختصاصي الجديد لم يلبث أن أُطلق عليه اسمُ طبيب الأسنان ، تشبيهاً له بأطباء الجسم .

كان عدد العاملين في هذه الصناعة الجديدة قليلاً ، وكانوا حريصين على الاحتفاظ بأسرار صناعتهم ، لكنهم كانوا يبوحون بها لمن يُلازم في عياداتهم ، بعد دفع مبلغ كبير من المال لهم .

لهذه الأسباب كلّها افتتح المعهد الطبي العربي في تشرين الأول من عام ١٩٢١ شعبةً لطب الأسنان ، وجعلت مدة الدراسة فيها أربع سنوات ؛ بعد الدراسة الثانوية . وقد عمل الأستاذ الخوري ، منذ تعيينه في هذه الشعبة ، على تقدّم الدراسة وتطويرها ، بالاشتراك مع زملائه الأساتذة ، فأدّت جهودهم إلى تحويل تلك الشعبة إلى كليةٍ مستقلةٍ عام ١٩٥٩ .

كان للدراسات العلمية التراثية مكانة خاصة في نفسِ المرحوم الأستاذ الخوري ، لذلك كان يسعى جهده للاطلاع على المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبات القطر . كما سعى للحصول على نسخ مصورةٍ من نفائس كتب الطب العربي المحفوظة في المكتبات العالمية .

ــ وخلال الجلسة الثامنة لدورة ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ بحث مجمع اللغة العربية في الكتاب الوارد من المجلس الأعلى للعلوم ، بخصوص الاحتفال بذكرى

المائة التاسعة لميلاد الطبيب ابن زهر الأندلسي. وتقرر تكليف المرحوم بإلقاء كلمة المجمع في ذلك الاحتفال.

لقد قام الأستاذ الخوري في تلك الجلسة بتقديم حديث عن حُنين بن اسحق الترجمان، فذكر نسبه الذي يعود في أصوله إلى العباديين، وهم قوم الشاعر عديّ بن زيد. ومن أولئك العباديين كان النساطرة واليعاقبة، الذين نقلوا إلى العربية تراثاً رائعاً من اللغتين اليونانية والسريانية. ثم تحدث بعد ذلك عن مدينة الحيرة، بلد حنين، وتعرّض بحديثه إلى حياته ونشأته وإنتاجه، من ناحيتي الترجمة والتأليف.

أشار المرحوم الأستاذ الرئيس الدكتور حسني سبح، أثناء تلك الجلسة، إلى وجود مخطوطٍ لحنين بن اسحق، عنوانه: (حفظ صحة الأسنان وإصلاحها) محفوظ في دار الكتب الظاهرية، وأنه كتاب يستحق العناية والدراسة. فأسرع الأستاذ الخوري إلى الاطلاع على ذلك المخطوط، فوجده ثميناً نادراً (ويحمل الرقم ٤٥١٦).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـــ وحينما أعلن المجلس الأعلى للعلوم عن إقامة أسبوعه الثاني عشر (عام ١٩٧١)، قدّم المرحوم موضوعاً عنوانه (طبيبُ الأسنان حنين بن اسحق)، تكلم فيه عن ذلك المخطوط، وبيّن أنه أقدم رسالة وضعت باللغة العربية في حفظ صحة اللثة والأسنان. وأنها تضم كثيراً من المصطلحات العلمية والتي لم نزل نستعملها حتى اليوم.

ـــ وخلال أسبوع العلم الثالث عشر، والذي عُقد في مدينة حلب (عام ١٩٧٢)، وبمناسبة الاحتفال بالذكرى التسعمائة لمولد الطبيب عبد الملك بن زُهر الإيادي، تحدث الأستاذ الخوري عن لغة هذا الطبيب وسيرته ومؤلفاته، كما تكلم عن عائلة ابن زُهر التي كانت تضم عدداً من الأطباء والطبيبات، ثم شارك بعد ذلك في تحرير كتاب ابن زهر الذي صدر عن المجلس الأعلى للعلوم احتفالاً بتلك الذكرى.

ـــ وحينما عُقد أسبوعُ العلم الرابع عشر (عام ١٩٧٤) في مدينة دمشق، احتُفل فيه بالذكرى الألفية لميلاد العالم الشهير أبي الريحان البيروني. ولما كانت مؤسسة همدار الوطنية قد أتمت تحقيق وطبع كتاب (الصيدنة في الطب للبيروني) في مدينة كراتشي، لذلك استفاد المرحوم من ذلك الكتاب وألقى محاضرةً عن أصل كلمة الصيدلة، وبين معناها بالاستناد إلى مختلف المراجع التراثية. كما تكلم بالتفصيل عن عقّارين ورد ذكرهما في كتاب البيروني، وهما الكهربا والألماس.

ـــ كنت ذكرتُ فيما سبق أن من بين اهتمامات الأستاذ الخوري المشاركة في انتخاب ووضع المصطلحات الطبية، لذلك نجد له في أعداد كثيرة من مجلة طب الأسنان السورية أبحاثاً لغوية متعددة، كان من أجملها وأعمقها بحث عنوانه (أسماء أجزاء العين في العلم واللغة)، مستنداً في ذلك إلى كتاب العشر مقالات في العين لحنين بن اسحق.

لقد أراد المرحوم من بحثه هذا أن يتأكد من مدى التزام الأطباء والمؤلفين اللغويين باستعمال المصطلحات العلمية، التي ترجمها أو وضعها من سبقهم، من ناحيتي اللفظ والمعنى. فرجع إلى ثلاث مؤلفاتٍ طبيةٍ ظهرت في أزمنةٍ وأمكنةٍ مختلفة وهي:

١ ـــ كتاب القانون لابن سينا وهو من مؤلفات القرن الحادي عشر للميلاد.

٢ ـــ كتاب التيسير في المداواة والتدبير لعبد الملك بن زهر، وهو من مؤلفات القرن الثاني عشر.

٣ ـــ كتاب تذكرة أولي الألباب لداوود الأنطاكي، وهو من مؤلفات القرن السادس عشر.

وقد تبين له أن أصحاب تلك الكتب قد تقيدوا بمصطلحات حنين بصورةٍ عامة. ثم تساءل بعد ذلك عن المصدر الذي استقى منه حنين تلك

المصطلحات، هل هي يا ترى من مؤلفات أستاذه يوحنا بن ماسويه، صاحب كتاب دغل العين، أم من مؤلفات غيره من الأطباء أو اللغويين؟

وبنتيجة الدراسة المتعمقة لهذا الأمر توصل الأستاذ الخوري إلى القول بأن الأسماء العربية لأجزاء العين، كما ذكرها حنين، كانت الترجمة الصحيحة لأسمائها باللغة اليونانية، حسبما كانوا يعرفونه عن تركيبها التشريحي. ولكن حينما جاء القرن السادس عشر تبدلت النظرة التشريحية لأقسام العين، وأخذت أسماء جديدة.

ــ لقد انعقد في مدينة الاسكندرية عام ١٩٧٤ مكتبُ اتحاد أطباء طب الأسنان. وكان من بين التوصيات تأليف لجنة دائمة دُعيت لجنة: تعريب المصطلحات الطبية. وكان الأستاذ الخوري أحد أعضائها المنتخبين.

إلا أن هذه اللجنة كما يبدو لم تستطع إتمام مهمتها، بدليل أن جميع كليات طب الأسنان في العالم العربي، عدا القطر السوري، لما تزل تدرِّس المقرراتِ فيها بإحدى اللغتين الفرنسية أو الانكليزية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مما سبق يتبين لنا أن الإنجازات العلمية واللغوية للمرحوم الأستاذ الدكتور ميشيل الخوري كانت كثيرةً ومتعددةَ الجوانب، لهذا يتعذر الكلام عنها بإسهاب خلال هذه المحاضرة. وسأكتفي بإلقاء الضوء على كتابين قيمين له، أنجز الأول منهما عام ١٩٧٠، وهو معجم مصطلحات تعويض الأسنان، والذي نال على أثر تأليفه ونشره شرفَ العضوية في مجمع اللغة العربية. أما الكتاب الثاني فهو مخطوط لأبي مروان عبد الملك بن زهر الإيادي، وعنوانه (التيسير في المداواة والتدبير). وقد أتم المرحوم تحقيقه قبيل وفاته عام ١٩٨٠، ولكن لم يتمّ طبعه ونشره إلا في عام ١٩٨٣.

يمتاز معجم مصطلحات تعويض الأسنان الذي قام بوضعه المرحوم الأستاذ الخوري، عن بقية المعجمات اللغوية بعدة صفات أهمها:

أولاً ــ هو معجم اختصاصي، جمع فيه مؤلفه ما يزيد عن ألف وستمائة

مصطلح ، في علم شاعت تسميته بصناعة الأسنان . وقد فضل الدكتور الخوري تسميته بمعجم مصطلحات تعويض الأسنان ، لأنه يفيد معنى التزويد بالأسنان الصنعية ، وليس المقصود صنعها وتحضيرها .

ثانياً ــ رتبت المصطلحات العلمية في هذا المعجم بالاستناد إلى اللغتين الانكليزية والفرنسية . ووضع أمام كل مصطلح أجنبي ما يقابله باللغة العربية ، مع شرح مفصل لمعنى المصطلح .

ثالثاً ــ زوّد المعجم بفهرسين ، أحدهما باللغة العربية والآخر باللغة الفرنسية .

رابعاً ــ اعترف المرحوم بفضل زملائه الذين قاموا خلال نصف قرن بتعليم طلاب الطب والصيدلة وطب الأسنان باللغة العربية في الجامعة السورية سابقاً وجامعة دمشق حالياً ، فاستفاد من جهودهم في التعريب ، وضمّن معجمه كثيراً من المصطلحات التي قاموا بوضعها أو نحتها أو ترجمتها .

ويقول أخيراً إنه إذا كان ثمّة قصور في تأليف معجمه فإنه يعود إلى كونه عملاً فردياً ، ولم يكن عملاً جماعياً ، على نحو ما نشاهده في تأليف المعجمات العربية والأجنبية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما كتاب التيسير لابن زهر فقد عرف وترجم إلى اللغتين اللاتينية والعبرية قبل أن يعرف وينشر في شرق العالمين العربي والإسلامي . ويقول ابن زهر في مقدمة كتابه إن أحد الأمراء المرابطين أشار عليه بوضع كتاب في تصنيف علاجات للأسباب الممرضات ، تكون خفيفة المؤونة ، تصلح لعباد الله الأبرار ، سهلاً وفي غاية الايجاز والاختصار .

ويبدو أن الأمير ، بعد أن تصفح كتاب التيسير ، لم يجده مطابقاً لما أمر به ، لذلك يقول عبد الملك بن زهر : « لقد دخل عليّ ، في خلال وضعي له ، من كان كالموكّل علي فيه . فلم يرضه مني ذلك ، فقال : إن الانتفاع به لمن يحذق شيئاً من أعمال الطب بعيد ، وإنه ليس على ما أمر به ، ولا على غرض مما يريد » لذلك قام ابن زهر بتذييله بجزء منحط الرتبة ، كما يقول ، دعاه بالجامع .

ألفه مضطراً، وخرج فيه عن الطريقة المثلى كارهاً، ووضعه بحيث لا يخفى على المريض ولا على من حول المريض.

ويعود الفضل للمرحوم الأستاذ الخوري بتحقيق هذا الكتاب الطبي الهام، تحقيقاً علمياً صحيحاً، معتمداً على أربع نسخ مصورة لمخطوطات محفوظة في بعض المكتبات العربية والأجنبية.

يتألف كتاب التيسير من سفرين، تكلم ابن زهر في مقدمة أولهما عن بعض الطرق المؤدية لحفظ الصحة والوقاية من الأمراض. فبيّن التأثير النافع لبعض العقاقير الملينة للطبيعة، كما تكلم عن التأثير الشافي والواقي للترياق. ثم انتقل للكلام عن تأثير الاستحمام بأنواع المياه. وأخيراً تحدث عن أنواع الخبز والفواكه وفوائدها، وعن مختلف العقاقير المستعملة في الطب الشعبي، بدون تصنيف أو ترتيب. ولعله كان يقصد بذلك إرضاء الأمير الذي طلب منه تأليف كتاب موجز لعلاج الأمراض الشائعة بطريقة يفهمها عامة الشعب.

لم يقسم ابن زهر كتابه إلى أبواب وفصول، لكنه تكلم بعد تلك المقدمة، بصورة علمية ومنهجية، عن أسباب الأمراض التي تصيب الإنسان وأعراضها وعلاجها، بدءاً من الرأس حتى الصدر في السفر الأول. أما في السفر الثاني فقد تكلم عن الأمراض التي تصيب أعضاء البطن وجهازي البول والتناسل. وختم كتابه بذكر ما يحدث في جسم الانسان عموماً من أمراض خارجية وحميّات.

لقد كان عبد الملك ابن زهر أعظم أطباء عصره، بحيث لا تجوز مقارنته إلا بالرازي وابن سينا، كما يقول العالم لوكلير. وقد تمت على يده انجازاتٌ طبيةٌ هامة، منها اكتشافه لهامة الجرب، ووصفه الدقيق للأعراض السريرية لكثير من الأمراض الداخلية والجلدية، كمرض العرق المديني وغيره. وحينما فكر الأستاذ الخوري بتحقيق أهم كتبه كان قصده إلقاء الأضواء على هذا الطبيب الذي كنا نجهل الكثير عنه.

لقد ذكرت فيما سبق أن المرحوم قد توفي قبل أن يظهر كتابُ التيسير لعالم الوجود. لذلك تصدى مجمع اللغة العربية لهذا الأمر فاختار عضوين كريمين لانجاز هذا العمل، فقام الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي بوضع حواشي الكتاب وشرحٍ وتصحيحٍ بعضِ الألفاظِ التي وردت فيه. كما قام الأستاذ الدكتور مختار هاشم باستخراجِ الأسماء الأجنبية لجميع العقاقير والنباتات الطبية والمصطلحات العلمية وجعلها في عدة فهارس.

وبهذه الصورة تم ظهور كتاب التيسير في المداواة والتدبير بفضل تعاون أعضاء هذا المجمع العظيم الذي تشرفت بالانتماء إليه. وختاماً أرجو أن أكون قد قدمت في حديثي هذا صورةً صادقةً ومختصرة عن أعمال زميل كريم وعالمٍ جليل هو الأستاذ المرحوم الدكتور ميشيل الخوري، الذي رحل عنا تاركاً فراغاً يصعب ملؤه والسلام.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حفل استقبال
الزميل الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق في جلسته الثانية عشرة المنعقدة في ١٩٧٩/٣/١٥ (الدورة المجمعية ١٩٧٩ــ ١٩٨٠) الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص عضواً عاملاً في المجمع للكرسي الذي شغر بوفاة الأستاذ عارف النكدي. وقد صدر بذلك المرسوم ذو الرقم (٨٥٤) تاريخ ١٩٧٩/٤/٤.

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الأستاذ الدكتور النص في جلسة علنية عقدها في قاعة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ببناء المدرسة العادلية مساء يوم الأربعاء ١١ ذي القعدة ١٤٠٩ هـ/١٤ حزيران ١٩٨٩ م حضرها ثلة كريمة من رجال الفكر والثقافة.

افتتح الحفل الأستاذ الدكتور شاكر الفحام نائب رئيس المجمع بكلمة ألقاها مرحّباً باستقبال زميله المجمعي وتحدث عن مكانته ومؤلفاته وبحوثه، وذكر جملة من سيرته. ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص كلمته التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ عارف النكدي.

خطاب الأستاذ الدكتور شاكر الفحام
في حفل استقبال الأستاذ الدكتور إحسان النص

أيها الحفل الكريم

أحييكم أجمل التحية وأحسنها، وأرحب بكم الترحيب الذي أنتم أهل له، وأشكر لكم تفضلكم بمشاركتنا في حفل استقبال الزميل الكريم الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص، فأضفيتم بشهودكم الجوَّ الذي نحبه ونؤثره: صفوة مختارة يملأ الصدق نفوسها، دُعيت فلبت، إيذاناً بما للمجمع ورسالته في قلوبها من مكانة، فعززتم مواقفنا، وأيدتم مسعانا.

وهل لنا إلا العربية ملاذ نعتصم به ونئل إليه؟ فلتظلَّ رايةُ العربية مشرقة خفاقة، توحّد بيننا فلا تتفرق بنا السبل، وتحمينا فلا تعدو علينا العاديات.

أقف موقفي هذا تنثال عليَّ الذكريات، وتتناهبني شتى المشاعر. أليست هذه البقعة الطاهرة قلب دمشق، ومستودع تاريخها، وملتقى رجالها الكبار الأعلام في السياسة والفكر والعلم والأدب والشعر والفن؟.

في هذه البقعة يرقد الملك العادل نور الدين الشهيد، والملك الناصر صلاح الدين، والملك العادل سيف الدين أبو بكر، والملك الظاهر بيبرس، أولئك الملوك العظام الذين سجل التاريخ مآثرهم في صفحاته الناصعات.

وفي هذه البقعة يقوم البيمارستان النوري الشهير، ومدرسةُ الحديث النورية، والمدرسة العادلية، والمدرسة الظاهرية .... تنشر العلم لتعمر القلوب

به ، وتقص عليك سيرة أولئك العلماء الأفذاذ الذين أغنوا بتصانيفهم المكتبة العربية ، وشاركوا بعلومهم النظرية والتطبيقية وصناعاتهم في تطور الحضارة وتقدم الإنسان وسعادته . ثم هي بعمارتها وطرازها تروق العين وتبهج النفس ، وتشهد على ما بلغته الهندسة العربية وفنون الزخرفة من ازدهار .

وفي هذه البقعة يقوم جامع بني أمية الكبير ، الرمزُ الحيُّ للحضارة العربية الزاهرة . إنه سِفْر لا ينضب معينه ، يحفظ للأجيال صورة الحياة العربية بكل نشاطها وتدفقها ، ويروي لها مآثر السلف الذين بذلوا وضحوا ليرفعوا صروح الحضارة ومناراتها الهاديات . وكان لهم ما أرادوا .

وما أكثر الذكريات الزاهيات التي توحيها هذه البقعة الطيبة المباركة ، لن أمضي في استعراضها وتتبعها . وها أنا ذا أتوقف في رحاب المجمع ، هذا الصرح الشامخ الذي اتخذ المدرسة العادلية مقراً له ، فأتمثل صورة أولئك الرواد الفرسان الذين التفوا حول الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع ، طيب الله ثراه ، قد وقفوا نفوسهم لخدمة العربية ، يمسحون عن وجهها النضير ما علق به من عصور الظلمة ، لتكون لغةَ العلم والتعليم والإدارة والحياة اليومية . لقد كانوا القدوة الصالحة ، عملوا وقدموا ليلهم ونهارهم في حماسة ودأب ، يملأ الايمانُ نفوسهم ، لنجتني من نتاجهم أطيب الثمار .

ومن منا لا يذكر ألوان النشاط الذي شهدته قاعتنا هذه ، لقد كانت منتدى أدبياً وفكرياً ، تلقى فيها المحاضرات ، وتقام الندوات ، وتعقد الحلقات .

وفيها أقيمت الاحتفالات تكريماً لأحمد شوقي أمير الشعراء (١٠ آب ١٩٢٥ م) ، والحافظ إبراهيم شاعر النيل (١٧ حزيران ١٩٢٩ م) ، وأمثالهما من كرام العلماء والأدباء والشعراء .

انها الذكريات الغضة الناضرة لا تنسى ، أعدُّ منها ولا أعدِّدُها .

وقد مرت بنا منذ أيام قليلة ذكرى عزيزة غالية . إنها الذكرى السبعون لتأسيس مجمع اللغة العربية ، ففي يوم الأحد الثامن من حزيران سنة ١٩١٩ م

(التاسع من رمضان ١٣٣٧ هـ) رفعت قواعد هذا المنار الهادي، وها هو ذا اليوم في السبعين من عمره المديد، أنضر ما يكون شباباً، وأقوى ما يكون عزماً ومضاء لمتابعة المسيرة على الطريق التي سنها المؤسسون، واتَّمِن عليها الخالفون.

ولعل من الفأل الحسن أن نستقبل اليوم، ونحن في أكناف هذه الذكرى العزيزة الغالية الزميل الكريم الأستاذ الدكتور النص، وهو ما هو علماً وكفاية وخلقاً، ينضمُّ إلى القافلة ظهيراً مؤازراً، وعضداً مساعفاً.

•

إني لأهنئ الأستاذ النص بثقة زملائه به، فقد انتخبوه في جلستهم الثانية عشرة المنعقدة في ١٩٧٩/٣/١٥، وصدر المرسوم ذو الرقم (٨٥٤) في ١٩٧٩/٤/٤م بتعيينه عضواً عاملاً في المجمع.

ولكن سفر الأستاذ الزميل إلى الكويت يؤدي رسالة العلم في جامعتها أدَّى إلى إرجاء إقامة هذا الحفل عشر سنين. ولكل أجل كتاب.

ولد الأستاذ الدكتور إحسان النص في عام ١٩١٩م، على ما تقوله الوثيقة الرسمية، ولم تكن الوثيقة في تلك الأيام الخاليات دقيقة ولا صحيحة. وكان ثالث ثلاثة من الإخوة، ورابع ستة من الإخوة والأخوات.

وتلقى التعليم على ما جرت به عادة تلك الأيام، في المدارس الأهلية، ثم في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية الرسمية، ليتابع الدراسة بعدُ في ثانوية (عنبر) وهي الثانوية الرسمية الوحيدة في دمشق آنذاك.

وانتقل بانتقال مدرسته إلى بناء جديد (سمي فيما بعد بثانوية جودة الهاشمي)، ليتم بها دراسته الثانوية.

عُرف في دراسته بالجدّ والاجتهاد، فكان الأوّل أبداً على رفاقه. وكان مولعاً بالترتيب والاتقان، ومحبة الاجادة في كل شيء. وظلت هذه الصفات ترافقه

طوال حياته، فكان في الجامعة أيضاً مضرب المثل بين الطلاب في دقته، وجودة تلخيصه لأمالي أساتذته، وحسن ترتيبه لكراريسه، وجمال خطه. وطالما عاد إليه زملاؤه ليتداركوا نقصاً، أو يستدركوا خطأ.

وظهرت موهبته الأدبية مبكرة، وأحبَّ القراءة حباً جما، وكان يطالع بالعربية والفرنسية، فتفتحت له آفاق المعرفة، ولقي من أساتذته التشجيع والعون. وإنك لتعجب حين تعلم أن الفتى الناشئ ما كاد يلج عتبة الدراسة الثانوية حتى بدأ يحرر بنفسه مجلة يكتبها بخط يده. ثم يُعنى بعد ذلك بتلخيص الكتب الأدبية الأمهات، وفي طليعتها كتاب الأغاني الشهير.

وكتب في هذه المرحلة الدراسية عدة مقالات نشرها في مجلة (سمير الطلبة) التي كانت تصدر في دمشق، وترقت به الحال فأرسل قصائد إلى مجلة الأمالي التي كان يُشرف عليها الأستاذ عمر فروخ ببيروت. ثم نشر مقالته (بين الجاحظ وفولتير) في مجلة الثقافة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد أمين بمصر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتقدم لامتحان البكالوريا الأولى بفرعيها العلمي والأدبي سنة ١٩٤٠م، ونجح فيهما، ثم حاز البكالوريا الثانية ـــ الفرع الفلسفي سنة ١٩٤١م وكان السابق المبرز، فاق جميع أقرانه من الطلاب.

في هذا العام الدراسي (١٩٤٠ ـــ ١٩٤١م) جئت إلى دمشق لألتحق بصف الرياضيات في تجهيز دمشق الأولى (التي سميت بعد بثانوية جودة الهاشمي)، فالتقيتُ الدكتور إحسان، وكان لقاء عابراً.

وما كنت لأتذكر هذا اللقاء أو أذكره لولا أنه ارتبط في نفسي بذكريات أخرى عزيزة عليّ. ذلك بأن الحظ أسعدني، وأنا طالب في تجهيز حمص، بأن يكون الأستاذ الدكتور عزة النص أحد أساتذتي الأجلة، قرأت عليه ثلاث سنوات متتاليات (هي الأعوام الدراسية ١٩٣٦/١٩٣٧ ـــ ١٩٣٨/١٩٣٩م) كانت من أخصب سنوات عمري وأحبها إلى قلبي.

لقد استأثر الأستاذ الدكتور عزة النص، رحمه الله وأحلَّه دار المقامة من

فضله. بعلمه الجم ونشاطه، وجدّيته، وحبه لطلابه، وحدبه عليهم، بتعلق الطلاب به التعلق الوثيق، واحترامهم له، واكبارهم إياه. وكنتُ أحسُّ رعايته الخاصة لي، فكان يشجعني، ويشدُّ من عزمي، وينذبني لألقي محاضرة على الطلاب، أو أشارك في نقاش. وظل، حياته كلها رحمه الله، ناضر الودّ معي، يحدثني حديث الزميل لزميله، لا الأستاذ لتلميذه. وإنّ الكلمات لتعجز عن أن أفي أستاذي الجليل رحمه الله بعض حقه علي.

فلا عجب، وصلتي بالأستاذ الدكتور عزة النص هذه الصلة أن أتذكر اللقاء العابر الذي جمعني بأخيه الأصغر الدكتور إحسان.

ثم شاء الله أن نذهب معاً في أواخر عام ١٩٤٢م لدراسة الأدب العربي في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن).

فقد أجْرَتْ وزارة التربية (وزارة المعارف آنذاك) مسابقة لايفاد المتفوقين. فكان الناجحون في مسابقة الأدب العربي أربعة. وكان الصديق الأستاذ إحسان هو الأول بيننا.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصحبتُ الدكتور إحسان أربع سنوات على مقاعد الدرس بجامعة القاهرة، كانت من أمتع أيام عمري. عرفتهُ عن قرب، وخبرت من أخلاقه وصفاته وجميل سجاياه ماأحلّه من نفسي المحل الأول، فهو صديق العمر، ورفيق الدراسة، تلاقينا فلم نفترق، وتعارفنا فلم نختلف. ومضت الأيام تزيدنا وداً ومحبة.

وكان من أساتذتنا في تلك الأيام الدكتور طه حسين، والأستاذ أحمد أمين، والدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ أمين الخولي، والدكتور شوقي ضيف، والأستاذ مصطفى السقا، والأستاذ أحمد الشايب.

ونال الدكتور إحسان الإجازة في الأدب العربي عام ١٩٤٦م، وكان الأول كالعهد به دائماً.

وعاد الأستاذ النص إلى سورية وقام بتدريس الأدب العربي وعلوم العربية في المدارس الثانوية عشر سنين، فكان خير مدرس، أفاد منه طلابه، لم يبخل عليهم بوقت ولا جهد، وعُني بهم العناية التي يذكرونها له أبداً.

ورأى أن يضم إلى التعليم التأليف المدرسي، فألّف ثلاثة عشر كتاباً في الأدب وتحليل النصوص والنحو والبلاغة والمطالعة، تفرَّد بأكثرها، وشارك زملاءه في قلة منها.

وكان لهذه الكتب أثرها الحسن البيّن في ثقافة الطلاب، وحسن تذوقهم للأدب، واستقامة ألسنتهم وأقلامهم.

واستبد به الحنينُ ليواصل ما انقطع من الدراسة، وكُتِبَ لنا أن نعود معاً إلى القاهرة للحصول على الدكتوراه.

كان ذلك في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، في تلك الأيام التي لا تُنسى، أيام الشموخ والعنفوان، يوم اشتد ساعد القومية العربية، فلا صوتَ يعلو صوتها، وانضم العرب بأجمعهم ملتفين حول أرض الكنانة.

واختار الأستاذ إحسان النص لرسالة الماجستير موضوع: (الخطابة في العصر الأموي).

ونوقشت الرسالة في عام ١٩٥٩م، ومنحته لجنة الحكم درجة الماجستير في الآداب بتقدير ممتاز. وطبعت الرسالة في دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م.

ويروعك في الكتاب هذه الإحاطة الشاملة، والدقة في استقصاء الدواعي والأسباب، والعرضُ الممتع لهذه التيارات المشتبكة المتنافرة، يبسطها بين يديك، ليتخلل بك هذه الأحزاب السياسية والفرق الدينية، متنقلاً من دوحة إلى دوحة، يسمعك من أفانين الخطابة، ويكشف لك عن خصائصها، ثم يختار لك أعلام الخطابة في العصر، فإذا أنت معه فيما ذهب إليه من أن عصر بني أمية هو عصر إزدهار الخطابة العربية.

ثم انتقى لرسالة الدكتوراه موضوع: (العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي)، وهو موضوع عسير شائك، يحمل أوجهاً من التفسير. فاتخذ له أهبته، وشمر عن ساعديه، وأعد رسالته أحسن أداء وأكمله، وقدمها للمناقشة عام ١٩٦٢م، ومنحته لجنة الحكم درجة دكتور في الآداب بمرتبة الشرف الأولى. وطُبعت الرسالة ببيروت عام ١٩٦٣م.

ولقد اضطره موضوعه أن يوسع دائرة البحث ليعود إلى العصر الجاهلي، ويقفَ وقفتَه الطويلة عند الأنساب العربية، يستقصي أصولها، ويتبين مقوماتها، ويمضي بها حتى عصر بني أمية، فيتعرف دواعي اشتداد العصبية، ويستعرض مظاهرها.

ويتحدث عن خضوع الشعراء الأمويين لهذه النزعة العصبية في شتى مواضعهم، ليخلص من بعد إلى تبين الأساليب الفنية التي عبَّر بها الشعراءُ عن هذه العصبية، فيقف وقفة طويلة عند النقائض، لينتقل إلى أساليب الهجاء القبلي الأخرى وخصائصه الفنية، فالفخر القبلي، ثم سائر الفنون المتصلة بالعصبيات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما زلتُ أذكر أني حين قرأت الكتاب لأول مرة، ومرَّ بي هذا الحشد الحاشد من شعر العصبيات والتفاخر بالأنساب تفاخراً فيه الكثير من الغلوّ والتعالي، وإثارة الأحقاد والضغائن، ضاق صدري، واستشعرتُ الخوف أن يكون قومي كذاك. ثم خَفَّفَ عني أن هذا إنما هو جانب واحد من جوانب هذه الحياة العربية الخصبة الغنية، يقابله في ذلك العصر المضطرم بالأحداث تلك الأصواتُ الخاشعةُ لله، تنادي: (إنما المؤمنون أخوة)، وتردّدُ أمثال قول نهار بن توسعة:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه إذا هتفوا ببكرٍ أو تميمِ

وشاء الله أن نشهد، ونحن نُعِدُّ لدراسة الدكتوراه، أيامَ العزة القومية، والعنفوان العربي، أيامَ مولد الوحدة بين مصر وسورية، أيام أحسَّ العربُ جميعاً

أن وحدتهم المنشودة التي ناضلوا طويلاً وبذلوا كثيراً من أجلها، قد دنت وأصبحت قاب قوسين أو أدنى. وشاركْنا، إلى جانب الدراسة، في اللجان التي كانت تُهَيِّئُ لتوحيد المناهج التعليمية وتطويرها، لينشأ الجيلُ العربي الجديد موحَّد المنطلقات في ثقافته الأساسية، يكافح لبناء وحدته، وترسيخ حريته. وانتُدبنا لنكون مع اخوتنا المصريين، نؤلف معاً كتبَ الأدب المدرسية لأبناء الجمهورية العربية المتحدة. وبدأنا الخطوة الأولى، فألفنا كتاب الأدب والنصوص للصف العاشر، وظهر الكتاب، وعليه اسمانا، وأسماء الأخوة المصريين الثلاثة، يقرؤه الطلاب ما بين أسوان إلى الحسكة، رمز هذه الوحدة المرتجاة، التي لم يحسن أبناؤها الدفاعَ عنها، ونجح المستعمرون الحاقدون، وفي مقدمتهم الصهيونية، في فك عراها، وفصم جزئيها.

•

ورجع الدكتور إحسان إلى دمشق، وعُيِّن مدرساً بكلية الآداب (جامعة دمشق) عام ١٩٦٣م، وأهلته كفايته العلمية ومقدرته في التدريس، ورعايته لطلابه وعنايته بهم أن يكون الأستاذ الناجح الموفَّق في عمله. يذكر ذلك له طلابه الذين سعدوا بالقراءة عليه والأخذ عنه.

ولم يقتصر الدكتور إحسان على التدريس ينهض به على الوجه الأمثل، على ما للتدريس من تكاليف وأعباء، بل شفعه بالتأليف، وكان من أبرز ما ظهر له في هذه المدة كتابه: (حسان بن ثابت/حياته وشعره)، ألفه سنة ١٩٦٥م.

كان حسان بن ثابت شاعر الدعوة الإسلامية. وقد عاش من قبلُ زمناً في الجاهلية، والتزم أعرافها وعاداتها. ففي حياته وأشعاره ما يستهوي الدارس الباحث.

ولقد تلبث الدكتور إحسان وروَّى وهو يدرس هذا الشاعر المخضرم الذي نافح عن رسول الله والدعوة الإسلامية فأحسن المنافحة، وصبَّ على قريش

شآبيب شرّ، حتى قال له رسول الله: «والله لشعرُك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام»(١).

تحدث عن بيئة الشاعر: مدينة يثرب، حديثاً وافياً مهد به للتحدث عن سيرة حسان بن ثابت: أسرته ومولده ونسبه وحياته في الجاهلية وصلته بالغساسنة والمناذرة، لينتقل إلى حياة حسان في الإسلام ومواقفه في مهاجاة قريش، ودفاعه عن رسول الله، وما كان من شأنه في حياة الخلفاء الراشدين الأربعة، حتى وافته المنية.

ومضى من بعدُ لدراسة شعره، ووقف وقفة متأنية يستعرض بها نسخ ديوانه، موطئاً بذلك للتحدث عن شعره في أيام الجاهلية، ثم في أيام الإسلام.

وبعد أن استوفى حظه من القول عرض للخصائص الفنية التي تجلت في شعر حسان، وناقش المقولة الشائعة التي أطلقها الأصمعي، وهي أن شعر حسان لما دخل في باب الخير لان، وخلص من ذلك إلى رفض هذه المقولة، مبيناً أن شعر حسان الإسلامي في غرضي الهجاء والفخر أجودُ صناعة وأرق في الناحية الفنية من شعره المقول في الجاهلية.

لقد قدَّم لنا الأستاذ الناقد صورة حسان بن ثابت مغموسة بريشته. ولقد أمتعتني هذه الصورة بأصالتها، وتفردها، ودقة أحكامها.

لم يُقدَّرْ للدكتور إحسان أن يطول مقامه بدمشق، فقد دعاه الواجب القومي أن يلبي دعوة الجزائر، البلد العربي الشقيق، ليدرِّس الآداب في جامعتها. فسافر في عام ١٩٦٧م، ليكون جندياً في معركة التعريب. فبذل وأعطى دون توقف، وكان الرائد السابق، لحق به إخوة له من بعده، شاركوا في التعريب، وأدوا مهمتهم خير أداء.

ولم يكتف الدكتور النص بنشاطه الجامعي في الجزائر، بل رأى أن يضمَّ

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١: ٢١٧، البيان والتبيين للجاحظ ١: ٢٧٣.

إلى ذلك مشاركةً جادة في المجال الثقافي. ونشر في هذا الباب مقالات كثيرة. من أبرزها:

التخطيط الثقافي في الوطن العربي.

مع صالح الخرفي في أطلس المعجزات (المجاهد الثقافي).

نحو معجم عربي حديث (المجاهد الثقافي).

الوحدة في مفهوم الفن.

وآب الدكتور النص إلى دمشق في عام ١٩٧٣م بعد أن قضى في البلد الشقيق ست سنوات (١٩٦٧ــ١٩٧٣م) أينعت ثمارها ودنت قطوفها، وكان يشعر بالارتياح والرضا والغبطة لاضطلاعه بهذه المهمة المحبَّبة، قد يُسِّرَ له أن ينهض بها على خير الوجوه وأحسنها.

واستأنف التدريس في قسم اللغة العربية بكلية الآداب (جامعة دمشق) نشيطاً كالعهد به، وعُيِّن أستاذاً في عام ١٩٧٥م.

ثم عين عميداً لكلية الآداب عام ١٩٧٨م وظل في منصبه حتى استقال عام ١٩٧٩م، وكانت هذه السنوات الست التي قضاها في دمشق خصيبة مريعة.

ألف فيها كتابه زهير بن أبي سلمى (سنة ١٩٧٣م). وزهير شاعر الحكمة في الجاهلية. وقد جلا الدكتور إحسان في كتابه صورة هذا الشاعر الجاهلي، فتحدث عن بلاد نجد وبيئة الشاعر، وقبيلته، ثم مضى يعرض لنا من أخبار حياته ما تجمع له بعد البحث والتقصي، لينتقل بنا إلى شعره فيتوقف عند شاعر المديح وحكيم غطفان، ويذكر موهبة الشاعر في الوصف، ثم يعرج على الغزل وآفاق الشاعر الأخرى، فإذا ما انتهى من عرض أغراض الشاعر التي طرقها في ديوانه قلَّب النظر في فنه، أليس زهير صاحب الحوليات[٢]، يصنع

(٢) قال الجاحظ: «وكان زهير بن أبي سلمى، وهو أحد الثلاثة المتقدمين، يسمّي كبار قصائده: الحوليات» (البيان والتبيين ١: ٢٠٤، ٢: ١٢).

القصيدة ثم يكرّر نظره فيها حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة خوفاً من التعقب، حتى إنّ الأصمعيّ أطلق عليه وعلى أمثاله من الشعراء الذين هذبوا الشعر ونقّحوه اسم: عبيد الشعر (٣). ولم يكن بد للدكتور النص من أن يجلو فن زهير، والسمات التي تجلت في شعره، وأن يربط بينه وبين مشابهيه من شعراء التنقيح والتهذيب، هؤلاء الذين وثقت الرواية والتلمذة الصلة بينهم.

وألّف بعد ذلك كتابين صغيرين أولهما: الشعر السياسي في عصر بني أمية، والثاني: الغزل في العصر الأموي وقد أصدرهما في عامي ١٩٧٦، ١٩٧٧ م، وكأنّ الأستاذ الباحث الذي حوّم قليلاً بعيداً عن العصر الأموي في كتابيه: حسان وزهير عاد إلى العصر مرة ثانية.

وقد تناول في كتابه الشعر السياسي دواعي ازدهار الشعر السياسي في العصر الأموي، وموضوعات الشعر السياسي من هجاء ومديح، وبيان لمبادئ الحزب والدفاع عنها، ثم خصائص هذا الشعر الفنية.

أما كتابه في الغزل فقد تحدث في مطلعه عن أسباب ازدهار الغزل في العصر الأموي، وأقسام الغزل من عذري وصريح، إلى جانب التشبيب الذي يأتي في مطالع القصائد.

ووقف يعرض طبيعة كل ضرب من هذه الأضرب الثلاثة، ومعانيه، معرفاً بأبرز شعراء كل ضرب من هذه الأضرب، مع دراسة فنية للغزل بأنواعه.

•

أتيح للدكتور إحسان أن يتعاقد مع جامعة الكويت، وقُدِرّ له أن يقضي فيها تدريساً وإدارة مدة عشر سنين (١٩٧٩ ــ ١٩٨٩ م). كان فيها مثلاً طيباً للأستاذ المخلص المتفاني الذي يبذل وسعه للتعليم والإفادة، ونموذجاً صالحاً للصديق الوفي يوثق صلاته بإخوانه وزملائه من الأساتذة والعلماء والأدباء.

---

(٣) البيان والتبيين ٢: ١٣.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم ينقطع عن الكتابة والتأليف في أثناء عمله بجامعة الكويت، فهما أحبُّ الأشياء إلى نفسه. ومن أبرز آثاره:

ـ **أبو حيان التوحيدي**: دراسة لمواقفه وآرائه في مختلف آثاره (المجلة العربية للعلوم الإنسانية ـ الكويت).

ـ **الوتر الحزين في شعر نازك الملائكة** (دراسة نشرت في الكتاب التذكاري الذي أصدرته كلية الآداب بجامعة الكويت).

ـ **نموذج من تحقيق المرويات الأدبية** (دراسة نشرت في الكتاب التذكاري بمناسبة بلوغ الأستاذ محمود شاكر السبعين من عمره).

ـ **قبيلة إياد منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي** (دراسة مفصلة نشرت في حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت).

ومن الأعمال الكبيرة التي بذل فيها الدكتور النص جهداً كبيراً كتابه الشهير:

(اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني)

وقد جعله في ستة أجزاء:
الأول يتناول العصر الجاهلي.
والثاني يتناول عصر المخضرمين.
والثالث والرابع يتناولان العصر الأموي.
والخامس يتناول العصر العباسي.
أما السادس فخاصٌّ بالمغنين والقيان.

وقد قضى في تصنيف الكتاب وتهذيبه ثماني سنين (١٩٧٨ ـ ١٩٨٥م)، وقرَّب بعمله هذا الكتابَ الضخم إلى جمهرة القراء ويسر لهم سبيل الوصول إليه، وورود مناهله. فأصبح سهل المنال، يصل بقارئه إلى بغيته دون مشقة، ويهيئه للرجوع إلى أصل الكتاب أن شاء ذلك.

هذه كلمة موجزة أقدم بها الزميل الكريم. الذي عاد إلينا اليوم موفقاً مظفراً لينضم إلى إخوانه في مجمع الخالدين يؤدي رسالة العربية التي أخلص لها ووقف نفسه عليها. فأهلاً به عضواً عاملاً بين زملائه وإخوانه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خطاب الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص
في حفل استقباله

أيها الحفل الكريم

بتاريخ الخامس عشر من شهر آذار عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف شرّفني أعضاء مجمع اللغة العربية بانتخابي عضواً عاملاً في المجمع، فسعدت بانضمامي إلى هذه النخبة الكريمة من رجال العلم والأدب في قطرنا العربي السوري التي جعلت وكدها العناية بلغتنا الحبيبة والحفاظ على تراثنا العريق. على أنني آثرت التريث في الانضمام الفعّال إلى المجمع ورجوت زملائي الكرام فيه إرجاء حفل الاستقبال بسبب إقامتي المؤقتة في القطر الكويتي الشقيق للتدريس في جامعته.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكنت أقدّر أن إقامتي في القطر الكويتي الشقيق لن تتجاوز السنتين، ولكن أنّى للمرء أن يقف على ما يخبؤه له الغيب، ومن يزعم أن مصيره بيده إنما يتشبث بالأوهام، فكذلك وجدتني أجدّد عقدي لدى جامعة الكويت عاماً بعد عام. والآن وقد عدت إلى الديار رحّبت بما أبداه لي أخي الدكتور شاكر من رغبة في إقامة حفل الاستقبال، آملاً أن يتاح لي النهوض بقسط من ذلك العبء الثقيل المنوط بزملائي المجمعيين الكرام، وقد غدت الحاجة ماسة اليوم إلى تضافر جهود العاملين فيه للنهوض بهذا العبء.

وأرى لزاماً عليّ في مستهل كلمتي أن أتقدم بخالص الشكر إلى الصديق الدكتور شاكر الفحام الذي تفضل بترشيحي وتزكيتي في كلمته الطيبة، والأخ

الدكتور شاكر رفيقي في الدرب الطويل، مضينا فيه معاً منذ ميعة الصبا، تباعد بيننا الأيام ثم لا نلبث أن نلتقي، وهو الأخ الكريم الذي عناه المثل العربي: رب أخ لم تلده أمك.

وأتقدم كذلك بخالص الشكر إلى أعضاء المجمع الأفاضل الذين أحسنوا الظن فيّ فاختاروني زميلاً لهم، وأرجو أن أكون أهلاً لثقتهم ومحققاً لحسن ظنهم كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع من تفضلوا بحضور هذا الحفل.

وأصدقكم القول إنني حين أتاني نبأ اختياري عضواً في هذا المجمع انتابني شعور تمتزج فيه السعادة بشيء من التهيب والرهبة. أما سروري وسعادتي فمردهما إلى انتمائي إلى هذه المؤسسة الأكاديمية الخطيرة الشأن وتهيؤ الفرص أمامي لإنجاز أعمال في إطار المجمع كنت أمني النفس القيام بها منذ أمد طويل، وهي تدور في فلك النهوض بلغتنا الحبيبة وانقاذها من أيدي العابثين بها، كما تدور في فلك العناية بتراثنا العريق دراسة لروائعه وتحقيقاً لطائفة من آثاره وجلاء للجوانب المضيئة فيه. وأما شعوري بالتهيب والرهبة فكان مرده إلى تهيب المهمة الثقيلة التي سيفرض علي القيام بها باختياري عضواً عاملاً في المجمع، وخشيتي من أن يكون التصدع الذي أحدثته معاول التهديم في صرح لغتنا وتراثنا أشد خطراً من أن تستطيع القوى البناءة في عالمنا العربي رأبه وإصلاحه، إذ أن أعاصير الافساد والهدم تتنامى شدتها يوماً بعد يوم في حين أن السدود المتواضعة التي تشيدها أيدي الغيورين على اللغة والتراث لم تعد قادرة على صد تلك الأعاصير المدمرة، والمعركة غير متكافئة والغد يلوح لنا متجهماً كالح القسمات. ولا شك في أن جميع الغيورين على لغتنا وتراثنا يشاطرونني هذا الشعور بالأسى والتشاؤم إزاء احتمالات المستقبل الكالح ونذره المفزعة.

أيها السادة

لا يسعني وأنا أقف بين أيديكم اليوم، بعد انقضاء عشرة أعوام على انتخابي عضواً في المجمع إلا أن أذكر والقلب يغمره الأسى وجوهاً كراماً من

الزملاء المجمعيين غابت عنا واختارهم الله إلى جواره إبان هذه الحقبة، وكانت خسارة المجمع بفقدانهم لا تعوض، فقد كان لهم الفضل الأوفى في النهوض بالمهمام الجسام المنوطة بالمجمع وفي الإسهام في مختلف أوجه النشاط التي يتولاها. وإني لأقف وقفة الإجلال والتقدير في ذكرى الراحلين الكرام، الدكتور أسعد الحكيم، والأستاذ شفيق جبري، والدكتور ميشيل خوري، والأستاذ محمد المبارك، والدكتور حكمة هاشم، والدكتور عبد الكريم زهور، والدكتور شكري فيصل، والدكتور كامل عياد، والدكتور حسني سبح رئيس المجمع، وأخيراً الفقيد الكريم الأستاذ عبد الهادي هاشم.

وبعد فقدان المجمع هذه النخبة الفاضلة من أعضائه العاملين تغدو الحاجة ماسة إلى رفد المجمع بأعضاء جدد يتابعون مسيرته على درب النهوض بلغتنا الحبيبة والعناية بتراثنا العريق دراسة ونشراً وتحقيقاً. إنه لممّا يدعو إلى الاعتزاز أن مجمعنا هذا استطاع أن يحقق الكثير إبان مسيرته التي تقارب سبعين عاماً، على ضآلة ما يرصد له من أموال وقلة عدد أعضائه العاملين، فقد نشر عدداً ضخماً من كتب التراث المحققة في مختلف مناحي البحث الأدبي واللغوي والعلمي. وعني — إلى ذلك — بوضع مصطلحات لطائفة كبيرة من الألفاظ الجديدة. وشارك أعضاء المجمع في جميع المؤتمرات والندوات التي عقدت سواء في الوطن العربي أو في الأقطار الأخرى والتي دارت موضوعاتها حول مباحث تقع في إطار اهتمامات المجمع. هذا فضلاً عن مجلة المجمع الرصينة ذات المستوى الرفيع، وقد حظيت بإقبال يبعث على الرضى والاعتزاز لدى المعنيين بالدراسات التراثية واللغوية وغدت مرجعاً أساسياً للباحثين في مختلف الأقطار.

بيد أننا، على رغم اعتزازنا بهذا الجهد الضخم الذي بذله المجمع نطمح إلى مزيد من العطاء وإلى أن يتسع مجال عمله فيعنى بأمور أخرى تفتقر إليها المكتبة العربية كتأليف المعجمات على نحو حديث يساير تطور المباحث اللغوية، ووضع معاجم تخصصية يتناول كل منها لوناً من ألوان المعرفة. ومن ذلك أيضاً العناية بتصنيف موسوعات ومؤلفات تسد ما نجده من نقص في المباحث الأدبية والتاريخية والجغرافية وغيرها.

بل إننا نطمح إلى أن يخطو المجمع خطوة أبعد في طريق النماء والتطور، نطمح في أن يغدو المجمع فيما يستقبل من أيامه لبنة في مؤسسة أكاديمية واسعة تضم النابهين من المفكرين والأدباء واللغويين والعلماء ـ على غرار الأكاديمية الفرنسية مثلاً ـ وأن لا تقتصر عضوية هذه المؤسسة على المقيمين بدمشق وحدهم بل يشارك فيها رجالات القطر في مختلف أرجائه، ويكون من مهام هذه المؤسسة العناية بشتى ألوان النشاط الفكري والأدبي واللغوي والعلمي وإذكاء وقدة الابداع لدى الباحثين على اختلاف تخصصاتهم.

وثمة خطوة أخرى أرى أن الحاجة إليها أصبحت ملحة اليوم لتفادي تشتيت الجهود والطاقات التي تبذل في سبيل صيانة اللغة العربية وتراثنا الأدبي والعلمي، تلك هي إنشاء مجمع موحد للغة العربية تسهم فيه الأقطار العربية كافة مع بقاء المجامع اللغوية القطرية. ومهمة المجمع الموحد التنسيق بين أعمال المجامع القطرية وتوحيد المصطلحات التي تتبناها هذه المجامع دفعاً لتعدد المصطلحات بتعدد الأقطار والمجامع اللغوية، وهو أمر نعاني منه الكثير اليوم. وكذلك يكون من مهامه إصدار معجم لغوي شامل تراعى فيه الأصول الحديثة في وضع المعاجم، وفي كل عام يعاد النظر فيه ويضاف إليه ما يجدّ من المصطلحات بحيث يكون مسايراً للتطور العلمي والتقني والفكري، على أن يكون لهذا المجمع الموحد سلطة التشريع اللغوي وأن تلتمس الوسائل الكفيلة بإنفاذ مقرراته وتوصياته.

ومن المحقق أن النهوض بهذه الأعباء كلها لا يتسنى إلا إذا رفد المجمع بأعضاء جدد تؤازرهم جماعة من الباحثين غير المجمعيين، وربما كان من الضروري كذلك رفد المجمع بدماء شابّة يلتمس لها سبيل العمل في المجمع من طريق تطوير نظمه وأساليب العمل فيه.

على أن المهمة الشاقة التي تجابه المجمع وتفرض عليه التفرغ لها وتعبئة القوى للنهوض بها إنما هي إنقاذ اللغة العربية من الوهدة العميقة التي تردّت فيها أو هي على وشك أن تتردى فيها ما لم نبادر إلى الأخذ بيدها. إن الغيورين على

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لغتنا الحبيبة ليأخذهم الروع وهم يعانون اليوم ما ينتاب هذه اللغة من آفات تتعاظم يوماً بعد يوم فتنخر عظامها وتوهن قواها وتوشك أن تفقدها دفقة الحياة وذماءها، إن لغتنا تواجه اليوم تحدياً خطيراً يتمثل في أمور شتى: منها غلبة العجمة والرطانة على الكثرة من هذه الأجيال الناشئة من أبناء الأمة العربية، وتفشي وباء اللحن في أوصالها. ومنها سقم الأساليب المستخدمة في تدريسها في شتى مراحل التدريس وعدم كفاية جل من يتولون تدريسها، مما أدى إلى نفرة الطلاب من دروس العربية وفتور إقبالهم عليها ولا سيما مادة النحو التي باتت في نظر الطلاب درساً بغيضاً ثقيل الظل. ومرد هذه النظرة إلى أنهم يتلقون معارف لا يطيقون استيعابها وتمثلها وهي تساق إليهم بأساليب بالية منفرة، حتى لقد بتنا والله نخشى أن يأتي يوم على هذه الأمة تغدو فيه اللغة الفصحى منبوذة مطّرحة لا يجيدها إلا قلة من المتخصصين وتغدو حالها كحال اللغة اللاتينية لدى مثقفي الغرب، لغة تستعمل في مجالات محدودة ضيقة ولا يجيدها إلا قلة من المختصين بدراستها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأخطر ما تواجهه لغتنا اليوم تكالب طوائف من الشعوبيين المتنكرين للعروبة وتراثها على مناهضة هذه اللغة ودعوتهم إلى إطراحها ونبذها واستبدال العامية بها لأنها — في زعمهم — لغة الحياة والواقع أما الفصحى فلم تعد صالحة عندهم للتعبير عن مقتضيات حياتنا وآفاقنا المعاصرة وتلك فِرية مختلقة لا تجوز إلا على السذج وعلى الجاهلين بحقيقة لغتنا وما تختزنه من طاقات لا تنفد وما تتسم به من خصب في المفردات لا تضارعها فيه لغة أخرى، ومن طواعية عجيبة تجعلها قادرة على التلاؤم مع التطور الفكري والاجتماعي والعلمي ومع ما يستجد من أنماط الحياة ومستخدمات الحضارة، ولكننا جهلنا حقيقة لغتنا فاتهمناها باطلاً بالقصور والعجز، والعجز في حقيقة الأمر إنما هو في أبنائها. وتهمة أخرى توجهها بعض الفئات إلى لغتنا تلك هي أنها لم تعد تصلح لأن تكون وعاء للعلوم المستحدثة وهي عاجزة في نظرهم عن مواكبة مسيرة العلم والتقدم التقني ولم تعد قادرة على استيعاب التطور العلمي المتسارع الخطى،

والخير ـ في رأيهم ـ أن تستبدل بها اللغات الأجنبية في مجال تدريس العلوم لأنها أقدر على الوفاء بمتطلبات العلم الحديث . وهذا الزعم ينطوي كذلك على جهل فادح باللغة العربية وقدرتها العجيبة على التطور والنماء والتلاؤم مع المتغيرات الطارئة . ولو أن هؤلاء ساءلوا التاريخ عن مسيرة اللغة العربية في مختلف الأطوار التي مرت بها وشتى البيئات التي انتشرت فيها لأجابهم بما يجعلهم يفيقون من غفلتهم ، فقد استطاعت لغتنا استيعاب مختلف العلوم والمعارف التي وقف عليها العرب إبان عصورهم المزدهرة ولم يحتاجوا إلى استخدام لغات الأمم الأخرى وإنما استخدموا لغتهم التي استجابت مطواعاً للمعاني الطارئة والمعارف المستحدثة ولم تنوِ بالعبء الملقى على كاهلها بفضل الوسائل المتاحة لها من اشتقاق وتعريب واصطلاح وغيرها . ونحن لسنا من المتزمتين الذين يدعون إلى تجميد اللغة في قوالبها وأطرها المتوارثة ولا نعد الاستمداد من اللغات الأخرى أمراً محظوراً وإنما نقول بضرورة تطوير اللغة العربية وتوسيع آفاقها بحيث تتسع لشتى المعارف العلمية والتقنية المتنامية بتنامي المعرفة العلمية والتطور التقني الهائل الذي يعيشه عصرنا وسوف يتعاظم شأنه على نحو متسارع في الحقب المقبلة . ولا نرى حرجاً في الاكثار من التعريب والاصطلاح وفي حقن لغتنا بلقاح مستمد من اللغات الأخرى يجعلها أقدر على مواجهة مستحدثات العلم والتقنية واحتواء الموجات المتلاحقة من معطيات العلوم الحديثة . بيد أن قولنا بتنمية اللغة العربية وتوسيع آفاقها ورفدها بالمستحدث من المصطلحات والمفردات لا يعني أبداً تسليمنا بوجوب تعليم العلوم باللغات الأجنبية وتخلينا عن لغتنا والحكم بعجزها على أن تكون وعاء للمعاني والمفاهيم والمصطلحات العلمية المستحدثة ، ولنا في التجربة السورية برهان ناصع على طواعية لغتنا وقدرتها على استيعاب كل جديد ، بل إن لنا من تاريخ الحركة العلمية في حضارتنا ما يؤكد هذه المقولة ، فقد ترجمت مختلف العلوم والثقافات الأجنبية في عصورنا المزدهرة ـ والعصر العباسي خاصة ـ إلى العربية ووضعت مصطلحات للألفاظ الدالة على المعاني والمصطلحات المتصلة بهذه العلوم والثقافات ثم درست العلوم والفلسفة باللغة

العربية في المشرق والمغرب ولم يزعم زاعم يعتد برأيه أن لغتنا لم تكن صالحة لاحتواء هذه الثقافات، بل إن من درسوا العلوم والفلسفة في جامعة الأندلس كانوا يتعلمون العربية لاقتباس هذه الثقافات ونشرها بعدئذ في بلاد الغرب.

إن الأمة حين تتخلى عن لغتها القومية فإنما تتخلى عن وجودها وهويتها، فمن المحقق أن اللغة هي أبرز مقومات الأمة ومرآة حضارتها وفكرها ومعيار رقيها ومجلى نهضتها. وإذ أردت أن تتعرف إلى حظ الأمة من الارتقاء والنهوض فانظر إلى لغتها وحظها من النماء والقوة ومدى عناية أبنائها بها وغيرتهم عليها. وحين تحاول الأمم المستعمرة إلغاء وجود الأمة التي تستعمرها ومسخ شخصيتها فإنها تتجه أول ما تتجه إلى القضاء على لغة هذه الأمة وفرض لغتها مكانها، صنيع فرنسا مثلاً لدى احتلالها الجزائر والمستعمرات الإفريقية وانكلترا لدى احتلالها الهند، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ARCHIVE

إن الأمة العربية واجهت بالأمس وتواجه اليوم تحديات خطيرة على الساحة السياسية، وقوى خصومها تتضافر متوخية تمزيق الوشائج التي تؤلف بين مختلف أقطارها، فهم يدركون أن قوة الأمة ومنعتها إنما تكونان في التئام شمل أبنائها وفي وقوفهم صفاً واحداً متراصاً تتكسر على أسواره معاول المعتدين، وهم يدركون كذلك أن من المنافذ الخبيثة إلى تصديع وحدة الأمة وزعزعة بنيانها الطعن في لغتها التي تجمع شمل أبنائها ومحاولة هدمها والقضاء عليها، وقد استخدم أعداء الأمة العربية لتحقيق مآربهم الخبيثة وسائل شتى من أبرزها التشكيك في قدرة لغتنا على مواكبة مسيرة العلم والفكر، ومنها كذلك بث الدعوة من طريق صنائعهم إلى استخدام العامية بدلاً من الفصحى، ومنها تشجيع الأقليات الجنسية التي تعيش في الوطن العربي على استخدام لغاتها ولهجاتها سواء في حياتها العامة أو في إنتاجها الأدبي إمعاناً في تمزيق أوصال الوطن العربي وإثارةً للضغائن بين مختلف الفئات التي تعيش على ترابه. لقد شجعت فرنسا مثلاً إبان استعمارها المغرب العربي والجزائر خاصة العناصر

البربرية الأصل على إحياء لغتها والعناية بها وجعلها لغة الدراسة والتأليف والانتاج الأدبي.

وعلى صعيد آخر أغرى المستعمر الغربي نفراً من أعوانه باستخدام العامية في نتاجهم الأدبي بدعوى إنها أقدر على التعبير عن الواقع. وقد جازت هذه الخدعة المموهة على نفر من ضعاف القلوب والألباب فحققوا أمنية المستعمر ولم يدركوا الأهداف البعيدة التي توخاها من وراء هذه الدعوة، فكانوا عوناً له ــ من حيث لا يدرون ــ على تحقيق أغراضه الخبيثة، ومن ورائهم طائفة من الشعوبيين الحاقدين على الأمة العربية وحضارتها لبست لبوس المفكرين والمنظّرين وراحت تزخرف القول في فضل العامية وتزين لأبناء الأمة استخدامها فيما ينتجون ويكتبون. وهذا ميدان من ميادين الصراع ينبغي على المخلصين من أبناء العروبة أن يخوضوه ذياداً عن لغة الأمة، وهو ميدان لا يقل شأناً عن ميدان الصراع الحربي، لأن أي وهن يعتري هذه اللغة هو بمثابة معول يوجه إلى صرح الأمة العربية وإلى الدعائم التي تقوم عليها وحدتها ومنعتها.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونحن حين نعاين اليوم المحاولات المحمومة التي يبذلها أعداء هذه الأمة للنيل من وحدة كلمتها وإثارة الضغائن بين أبنائها تعود بنا الذاكرة إلى أبيات نصر بن سيار التي خاطب بها العرب أيام احتضار الحكم الأموي وحذرهم فيها من تآمر العناصر غير العربية عليهم فنردد كلمته المشهورة:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم ... فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ... حرباً يحرّق في حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجا عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم ... مما تأشب لا دين ولا حسب
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تقتل العرب

●

أيها السادة

لقد أسعدني الحظ خلال السنوات السابقة بالعمل أستاذاً في جامعتين عربيتين أحداهما في مغرب الوطن العربي هي جامعة الجزائر والثانية في مشرقه وهي جامعة الكويت.

ولقد لمست إبان عملي في هاتين الجامعتين ومن خلال اتصالي بأبناء مغربنا العربي والمشرق العربي أن وحدة الأمة العربية هي حقيقة ثابتة وليست وهماً من الأوهام ولا حلماً من الأحلام، وهي متحققة على صعيد الواقع ولا تفتقر إلى مؤيدات سياسية أو مواثيق ومؤتمرات يجتمع فيها ساسة الأقطار العربية، والوحدة التي أعنيها ليست تلك الوحدة التي تتوارى فيها الحدود وتندمج الدول وتتوحد النظم في إطار دولة عربية واحدة تنتظم الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، لا لست أتحدث عن هذه الوحدة الشاملة التي هي مناط أمل كل من تسري في عروقه دماء العروبة، وإنما أتحدث عن وحدة العواطف والتطلعات والآمال والرؤى، وهي وحدة عفوية تنبثق من القلوب ولا تنتظر لتحققها صدور قانون أو عقد ميثاق، فإنك واجد لدى أي مواطن عربي تلقاه، سواء في مشرق الوطن العربي أو في مغربه، صدى ما يخالجك من أحاسيس ومشاعر وآمال وهموم، ولا غرو، فالأرحام الواشجة لا تقطع أواصرها حدود ولا قيود وروابط التاريخ والثقافة واللغة أقوى من أن تفصمها الكيانات السياسية المصطنعة.

ومن المحقق أن اللبنة الأولى في صرح الوحدة السياسية إنما هي الوحدة الثقافية. فلندع إذاً للساسة أن يسعوا إلى تحقيق الوحدة السياسية بالأساليب التي يرتؤونها ولنمض نحن على درب التواصل الثقافي، فهو في نظرنا الوسيلة الأكثر جدوى لتحقيق وحدة الأمة العربية. ومما يدعو إلى الغبطة والتفاؤل أن القطر الكويتي الشقيق شهد في السنوات المنصرمة انعقاد لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية، وقد شارك في أعمال هذه اللجنة باحثون من مختلف أقطار الوطن العربي واستمر عمل اللجنة سنوات ثلاثاً وخرجت بقرارات وتوصيات

على جانب كبير من الخطورة وأملنا أن ترى هذه التوصيات طريقها إلى التنفيذ الفعلي.

أيها السادة

لقد شرفني مجمع اللغة العربية باختياري عضواً عاملاً فيه لأكون خلفاً لراحل عظيم المنزلة ووجه نيّر من وجوه المجمع التي غيبتها يد المنية هو الفقيد الكريم الأستاذ عارف النكدي. ويقتضيني الوفاء بمنزلة الفقيد الجليل أن أتحدث عنه وعما كان له من أياد لا تنسى في شتى المجالات.

لم يسعدني الحظ بلقاء الفقيد في حياته، ولكنني كنت أتابع ما ينشره من بحوث وما يقوم به من جهد في خدمة العربية. ولما عكفت على تقصي أخباره ومراحل سيرته ووقفت على أوجه نشاطه الدائب سواء في مجال المهام التي نيطت به أو في مجال البحث والتأليف امتلأت نفسي إعجاباً بشخصيته وبما انطوت عليه من كريم الخلال وقوة الشكيمة ومن تشبث لا يتسرب إليه الوهن بالمبادىء القويمة والقيم الخلقية الرفيعة ومن سعي دائب في سبيل النهوض باللغة العربية ومن نشاط لا يفتر في شتى الميادين التي عمل فيها سواء في ميدان القضاء أو في ميدان العمل الاداري أو في الحقل الاجتماعي، كما أعجبت أيما إعجاب بمواقفه الوطنية أيام كان للمستعمر اليد العليا في إدارة شؤون البلد والهيمنة على أموره وعلى طائفة من ساسته المتخاذلين الحاطبين في حبله.

إن سيرة الفقيد العظيم خليقة بأن تكون أمثولة يقتدى بها للنضال الوطني الصادق والجهد الاجتماعي المثمر والعمل الاداري النزيه المخلص والبحث العلمي الجاد.

والحديث عن سيرة الفقيد حديث طويل متشعب الفجاج فقد عاش حياته التي ناهزت التسعين عاماً دائب النشاط والحركة وتولى العديد من المناصب وأسهم في مختلف أوجه النشاط الاجتماعي والسياسي والأدبي والفكري ولم يتوقف عن العطاء حتى وافته المنية.

ينتمي فقيدنا إلى أسرة كان لها ذكر وشأن في تاريخ بني معروف هي أسرة آل نكد، ومن الأسماء البارزة من رجال هذه الأسرة في العهد القريب رأس هذه الأسرة رشدي النكدي وعادل النكدي الذي استشهد إبان الثورة السورية وفقيدنا عارف النكدي.

تمتّ هذه الأسرة إلى أصل عربي قديم ولكن المؤرخين لم يتفقوا على تعيينه فيذهب الدكتور محمد كامل حسين إلى أن أسرة آل نكد تنتمي إلى إحدى القبائل العدنانية التي كانت تستوطن الحجاز في العصر الجاهلي إلا أنه لا يذكر اسم هذه القبيلة. فأما أنها قبيلة عدنانية فذلك ما تؤكده ترجمة الفقيد التي خطها بقلمه لنفسه ولأسرته وقد ذكر أنها قبيلة تغلب ابنة وائل الربعية. وأما أنها كانت تقطن الحجاز فأمر فيه نظر لأن المصادر التاريخية القديمة تذكر أن موطن قبيلة تغلب قبل الإسلام لم يكن الحجاز وإنما شمالي بلاد العراق والجزيرة الشامية محاذياً لنهر الفرات.

ARCHIVE

يذكر الفقيد في ترجمته أن انتماء آل نكد إلى قبيلة تغلب تؤكده الروايات المنقولة عن الأجداد والمدونة في مخطوطات الأسرة ومما يؤكد هذا الانتماء التغلبي أيضاً الأسماء التغلبية التي سمي بها شيوخ هذه الأسرة ثم أطلقوها على أبنائهم رجالاً ونساء إلى عهد قريب.

ويذكر المترجم أن أبناء هذه الأسرة خرجوا من الجزيرة العربية إلى مصر فالمغرب مع جيوش الفتح الإسلامي ولا يزال إلى اليوم الجمهور الأكبر منها مقيماً في الساقية الحمراء وتعرف هناك بالأنكاد، والساقية الحمراء أو ساقية الذهب هي الصحراء موضع التنازع اليوم بين المملكة المغربية وجبهة البوليساريو.

ليس ثمة ما يعيننا على اقتفاء خطوات العشيرة النكدية على نحو واضح دقيق في انتقالها من بلاد العرب إلى مصر وافريقية، ثم في عودة الجمهور الأكبر منها إلى مصر فلبنان. ويذكر المترجم أن أسرته أو جماعة منها عادت إلى مصر في جيش الخليفة الفاطمي المعز ثم انتقلت بعدئذ إلى لبنان فأقامت ردحاً من الوقت

في قرية (برجا) ثم انتقلت إلى (بعقلين) واستقرت آخر الأمر في (دير القمر) وظلت مقيمة فيها حتى سنة خمس وأربعين وثمانمئة وألف للميلاد . وفي تلك السنة أخرجتها الدولة العثمانية من دير القمر فاستقرت في بلدة (عبية) وهي موطن الأسرة حتى اليوم .

هذا ما يذكره الفقيد في ترجمته لعشيرته ، ونجد في مصادر أخرى مزيداً من التفصيل حول أخبار الأسرة وتنقلها في أقطار المشرق والمغرب . ولا تتفق أقوال المؤرخين في تتبعهم لمسيرة العشيرة النكدية منذ خروجها من بلاد العرب فيذكر الدكتور محمد كامل حسين أن بطوناً من عشيرة آل نكد قدمت إلى بلاد الشام مع جيوش الفاطميين واستقرت أول الأمر بمنطقة حلب . وفي سنة أربع وخمسمائة للهجرة قدمت طوائف منها إلى منطقة الشوف بلبنان واتصلوا بالأمير المعني وصاروا من أعوانه . وكان المعنيون قد اتخذوا في بادئ الأمر بعقلين حاضرة لهم ثم انتقلوا إلى دير القمر فأقام النكديون إلى جوارهم واتصل آل نكد بعد ذلك بأمراء الشهابيين وكانوا تارة يظاهرونهم على أعدائهم وتارة أخرى تفسد علاقتهم بهم ، وربما تعرضوا لبطش الشهابيين وأذاهم فيضطرون إلى النزوح عن ديارهم إلى مواطن أخرى في بلاد الشام ، وقد أقاموا حقبة من الزمن في وادي التيم (حاصبيا وراشيا) ولم يكن لهم بد من أن يشاركوا في الحروب والفتن التي استعرت بين أمراء الشهابيين وأعدائهم من العثمانيين وغيرهم وكانت هذه المشاركة تجر عليهم أحياناً أذى كثيراً ، بل إنهم اضطروا في بعض الأحيان إلى قتال الشهابيين أنفسهم .

وبعد تطواف طويل وخطوب جمة استقرت عشيرة آل نكد في بلدة (عبية) وهي من قضاء الشوف (إلى الجنوب الغربي من عاليه والشمال الغربي من بيت الدين) ، وقد جاوروا في هذه البلدة التنوخيين من آل أمين الدين .

كان مولد فقيدنا بمدينة بيروت في السابع عشر من ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمئة وألف للهجرة والموافقة للثالث عشر من كانون الثاني سنة سبع وثمانين وثمانمئة وألف ميلادية ١٨٨٧ م ، ويذكر الفقيد في ترجمته الذاتية أن خوف

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللبنانيين من الضرائب والتكاليف حمل أسرته على قيد مولده في قرية كفر فاقود من قضاء الشوف وكانت هذه القرية ملكاً للأسرة.

ويذكر الفقيد كذلك أن سليماً ـ جده لأمه ـ انتقل إلى بيروت لأسباب سياسية محلية فانتقل معه ابن أخيه وصهره والد الفقيد أمين بن سعيد.

وبدأت مسيرة الفقيد في طريق تلقي العلوم والمعارف في قصبة بعبدا وفي بلدة بيت الدين فتلقى معارفه الأولى في مدارسهما الابتدائية.

فمنذ أن استقلّ جبل لبنان عن ولاية بيروت ادارياً ـ عقب أحداث ١٨٦٠ وتوقيع الدولة العثمانية اتفاقاً مع دول أوروبا ـ أصبح لجبل لبنان حكومة تدير أموره ومتصرف تسميه الدولة العثمانية. وكان والد الفقيد يعمل في ظل هذه الحكومة قاضياً في محكمة الاستئناف فاضطرته ظروف عمله أن ينتقل بانتقال مقر الحكومة صيفاً وشتاءً فكان يشتو في بعبدا فإذا جاء الصيف انتقل إلى بلدة بيت الدين وكانت أسرته ترافقه في حله وترحاله.

ARCHIVE

وقادته خطواته بعد ذلك إلى الكلية العثمانية الإسلامية حيث درس العلوم الإسلامية والقانونية ثم إلى المدرسة العلمانية الفرنسية حيث انكب على دراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم التي كانت حينذاك مقصاة عن المدارس الإسلامية لكونها علوماً عصرية محدثة. ويذكر الفقيد أسماء أساتذته الذين أخذ عنهم العربية والفرنسية ومنهم الشيخ عبد الله البستاني والشيخ مصطفى الغلاييني والأب شارون وأحمد عباس الأزهري، فلما استوفى الفقيد حظاً طيباً من المعرفة القانونية والشرعية انتقل إلى ميدان العمل، فحصل سنة إحدى عشرة وتسعمئة وألف على إجازة قانونية تخوله حق المرافعة أمام المحاكم، ولم تكن مدرسة الحقوق قد أنشئت في ذلك الحين في لبنان وإنما كانت تؤلف لجنة تقوم باختيار المرشح، فإذا لقي منها الرضى منحته إجازة تخوله ممارسة مهنة المحاماة والقضاء، بدأت خطواته الأولى في مجال العمل القانوني سنة اثنتي عشرة وتسعمئة وألف بتسميته كاتباً لدى محكمة الاستئناف الحقوقية وأخذ يرقى السلم الوظيفي فسمي مستنطقاً

لدى الهيئة الاتهامية ثم عضواً استئنافياً لدى محكمة الجنايات واستئناف الجزاء (١٩١٥)، ثم وكيلاً لرئاسة هذه المحكمة.

•

وما لبث الفرنسيون أن احتلوا بلاد الشام في أعقاب هزيمة العثمانيين وأحلافهم في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فبدأت إذ ذاك مرحلة ثانية من حياة الفقيد عرف فيها السجن والأذى مرات، فلم تكن صلته بالفرنسيين طيبة، ومرد ذلك إلى ما عرف به الفقيد من صدق الوطنية وصلابة الرأي واستقامة الخطة. وكانت فاتحة صلاته السيئة بالفرنسيين إقصاءه عن عمله في لبنان بتهمة تحريض جماعة ممن كانوا يعملون في إملاك الأسرة في كفر فاقود على الاعتداء على رئيس مجلس إدارة جبل لبنان حبيب باشا السعد الذي تولى بعد حين رئاسة الجمهورية اللبنانية، وكان الفقيد براء من تهمة التحريض واضطر بعدئذ إلى مفارقة موطنه لبنان واللجوء إلى سورية مع طائفة من رجال لبنان المخلصين للعروبة آثروا الجلاء عن ديارهم التي احتلها الفرنسيون إلى سورية ليكونوا عوناً للدولة العربية الوليدة.

استقبلت سورية عارفاً النكدي ومن نزح معه من لبنان استقبال المرحب، وكان في وسع أي عربي يومذاك أن يقيم في أي بلد يختاره من بلاد الشام ويعمل فيه ويمنح من الحقوق ما لأبناء البلد أنفسهم، وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة جديدة حافلة بالنشاط من مراحل حياة الفقيد فتولى طائفة من الوظائف في سورية وبدأ نجمه يسطع وصيته ينتشر بفضل ما عرف به من كفاية قانونية واستقامة لا تشوبها شائبة وصراحة في القول لا تبالي بما تجر وراءها من عواقب وجرأة على مجابهة رموز المستعمر وأعوانه. وكان نشاطه موزعاً بين عمله في سلك القضاء والوظائف الأخرى التي تولاها من جانب وبين المجمع العلمي العربي الذي انتخب عضواً فيه من جانب ثان، وبين عمله في الصحافة الوطنية من جانب ثالث. كما كانت له مشاركته المتميزة في الحياة الاجتماعية والثقافية. وفضلاً عن هذا كله كان يولي وطنه الأصغر لبنان جانباً غير يسير من عنايته واهتمامه.

كان أول المناصب التي تولاها الفقيد منذ مقدمه إلى سورية وظيفة المدعي العام في المحكمة الاستئنافية بدمشق، وذلك في مستهل عام ١٩٢٠ للميلاد، وقد اختاره لهذا المنصب وزير العدل إذ ذاك جلال بك زهدي وكانت للفقيد سابق صلة به منذ كان في لبنان. وفي العام نفسه تولى منصبين آخرين فقد نقل أولاً مفتشاً ثانياً في الوزارة عينها ثم رقي إلى منصب مفتش أول، ثم عين سنة ١٩٢٨ مديراً للشؤون الحقوقية في وزارة العدل.

وبدأت بعيد ذلك الصلة تسوء بينه وبين المستعمر الفرنسي بسبب مواقفه الوطنية الصلبة، فلم يكن من المنافقين الحريصين على ممالأة المستعمر والتزلف إليه، وكان من عادته أن لا يحضر أي احتفال يقيمه الفرنسيون، وكان يدعى إلى الأعياد الرسمية الفرنسية ــ كالاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية ــ فلا يلبي ويتعلل بشتى المعاذير أو يغادر سورية إلى لبنان، ولم يغفر له المستعمر هذا الموقف وانتهى الأمر بأن طلب المندوب السامي الفرنسي من صنيعتهم الدولة القائمة يومذاك أن تنقل التكلدي من دمشق إلى حلب مدعياً عاماً، وكان هذا النقل بمثابة عقوبة تنزل بالفقيد جزاء مواقفه الوطنية، فلا غرو أن يرفض هذا النقل بإباء ويؤثر الاستقالة من منصبه على الاذعان لمشيئة المستعمر، وكان ذلك عام ثلاثين وتسعمئة وألف، وحاول أصدقاؤه ثنيه عن تقديم استقالته حرصاً على الانتفاع من كفايته القانونية وعلى عدم حرمانه من راتبه التقاعدي ولكن الفقيد أصر على موقفه ــ وهو الذي عرف بصلابة العود وقوة الشكيمة والأنفة ــ وضرب عرض الحائط بالمنصب وبالراتب التقاعدي.

ويذكر أصدقاء الفقيد جملة من مآثره يوم تولى مناصبه القانونية في ظل الاستعمار ويشيدون بمواقفه الوطنية ونزاهته أيام كانت للمستعمر الكلمة العليا. لقد كان للفقيد أياد مشكورة في تنظيم القضاء ورفع مستواه وجعله بمنأى عن عوامل الفساد والرشوة والحيلولة دون خضوعه لتوجيهات المستعمر وتدخلاته، فكان يقصي عن مناصب القضاء من لم تثبت كفايتهم ودرايتهم وذوي النفوس الضعيفة، ويختار مكانهم من يأنس فيهم الكافية والنزاهة، وقد حال أكثر من مرة

دون تدخل المستشار العدلي الفرنسي في إنفاذ إجراءات القضاء القانونية وأحكامه، بل لقد بلغ من قوة شكيمته وصلابة موقفه إزاء هذا التدخل أن تهدد ذات يوم المستشار بإلقائه من حالق إن هو لم يعتذر لما بدر منه إزاءه وإزاء زملائه. ويسوق صديق الفقيد وزميله في العمل الأستاذ سامي العظم من أخبار الفقيد ما يبرز مواقفه الوطنية الصادقة وحرصه على انفاذ القوانين بدقة ونزاهة مثاليتين وتحديه رجال المستعمر وأوامره.

لم يكن الفقيد منصرفاً في هذه الحقبة إلى أداء مهامه القضائية فحسب، وإنما كانت له مشاركة في جوانب أخرى جعلت ذكره يعلو، ومكانته تتعاظم في نفوس القوم فهو على رغم انتقاله من لبنان إلى سورية لم يغفل قضايا قومه الأدنين في لبنان فكان يرعى شؤونهم ويسهم في إنشاء المدارس ودور اليتامى. وفي سورية بدأت صلته تتوطد مع أقطاب الكتلة الوطنية التي كانت يومذاك أبرز الأحزاب المناهضة للاستعمار الفرنسي، وفي الميدان الثقافي اتجه الفقيد إلى كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والفكرية في مجلة المجمع العلمي العربي كما انصرف إلى تعريب المصطلحات. وكان في الوقت عينه يدرّس مادة علم الاجتماع في معهد الحقوق العربي بدمشق وكان أعضاء المجمع قد انتخبوا الفقيد عضواً عاملاً في المجمع في العشرين من شهر آذار عام ثلاثة وعشرين وتسعمئة وألف ١٩٢٣. وكان يرأس المجمع آنذاك المرحوم الأستاذ محمد كرد علي وهو الذي رشح التكدي لعضوية المجمع، وكان المجمع العلمي العربي يومذاك حديث النشأة، فقد تأسس إبان الحكم الفيصلي سنة ألف وتسعمئة وتسع عشرة وحل محل ما كان يعرف من قبل بديوان المعارف، وظهرت مجلته عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين. ومنذ أن أصبح الفقيد عضواً عاملاً في المجمع لم يتوقف عن الكتابة في مجلته حتى أواخر أيامه، وكانت له مشاركة نشطة في أعمال لجنة التعريب. وقد ظل الفقيد عضواً عاملاً في المجمع طوال مدة إقامته بدمشق. فلما اضطرته الأحوال إلى مغادرة سورية إلى لبنان أصبح عضواً مراسلاً في المجمع ثم أعيد انتخابه مرة أخرى بعد عودته إلى دمشق أيام الحكم الوطني خلفاً للمرحوم الأستاذ رشيد بقدونس

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصدر المرسوم القاضي بتعيينه في أواخر تشرين الأول من عام ألف وتسعمئة وأربعة وأربعين.

●

تبدأ بتخلي الفقيد عن منصبه في القضاء عام ثلاثين وتسعمئة وألف مرحلة ثالثة من حياته حافلة بالخصب والعطاء والنضال الوطني، فما أن تخلى الفقيد عن عمله في وزارة العدل حتى تلقفه رجال الكتلة الوطنية الذين عرفوا فيه المناضل الصادق الوطنية والعامل الجاد في سبيل العروبة فأقاموا له حفلاً تكريمياً ثم عهدوا إليه بتولي رئاسة تحرير جريدة (الأيام) التي أصدروها عام واحد وثلاثين وتسعمئة وألف، فأخذ النكدي يكتب مقالاتها الافتتاحية متعقباً المستعمرين، ناقداً سياستهم الجائرة وإجراءاتهم التعسفية إزاء أبناء البلاد وسيرتهم المغايرة لميثاق عصبة الأمم، في صراحة وجرأة انتزعتا إعجاب الوطنيين المخلصين وأثارتا حفيظة المندوب السامي وأعوانه. ومما يذكره من كانوا يوالون قراءة مقالاته الملتهبة هذه مقاله الذي رد فيه على ما زعمه المندوب السامي (بونسو) — وقد نشرته الصحف الموالية للمستعمر يومئذ — من أنه هو الذي يصنع مستقبل لبنان وسورية وكان عنوان مقالة الفقيد (المستقبل لله يا مسيو بونسو)، وكان لهذا المقال أشد الوقع في نفوس المستعمر ومن حطب في حبله في حين استقبله أبناء الوطن المخلصين بإعجاب وتقدير عظيمين، حتى إذا ضاق صدر القيم على شؤون البلاد بالنكدي ومقالاته العنيفة أصدر أمره بإغلاق الصحيفة وبدأت جريدة (الأيام) تعاني منذ ذلك اليوم من مضايقات المندوب السامي، لا تصدر إلا لتغلق، وتصدر باسمها الجديد (اليوم) حقبة فلا تلبث أن تتناولها يد التعطيل والإغلاق. ولم يجد النكدي بعد حين بداً من التخلي عن عمله الصحفي ليتولى الأستاذ نصوح بابيل شراء الجريدة وإدارتها.

وقد أتاح له تحرره من العمل الوظيفي في الحقبة عينها أن يعنى بأمور ذويه في لبنان، فقام بطائفة من الأمور لإصلاح أمور معيشتهم وكان قد تولى الوقف التنوخي عام واحد وعشرين وتسعمئة وألف، ثم آلت إليه بعد ذلك بأعوام

أوقاف قومه كلها، فانكب على إصلاح أمور الأوقاف بما يكفل عدم التلاعب بأموالها والسعي في تنمية مواردها واستطاع بحنكته وحسن تدبيره تنمية مواردها واشترى العديد من الأبنية التي رصد ريعها لأوقاف بني معروف في مختلف مناطق لبنان وفي عبيه خاصة، وعني إلى ذلك بإعادة إنشاء المدرسة الداودية في عبيه عام واحد وثلاثين وتسعمئة وألف، وتزويدها بالأساتذة الكفاة وأنشأ معها زهاء ثلاث وثلاثين مدرسة في ديار قومه: في وادي التيم وأقضية الشوف وعاليه والمتن وفي بيروت نفسها. وكان لا يزال يزود القائمين على التدريس في هذه المدارس بنصائحه ويوجههم إلى السبل المثلى في تلقين المعارف مع توجيه عناية خاصة إلى اللغة العربية، ومن كلماته المحفوظة بهذا الصدد قوله يخاطب المدرسين: «كونوا قدوة لتلامذتكم فالولد يتعلم بالتقليد والاقتداء أكثر منه بالمواعظ».

مرحلة رابعة من حياة الراحل الكريم تبدأ بعودته إلى ممارسة وظائف الدولة على أثر ما أبدته الدولة المستعمرة من ملاينة للوطنيين من زعماء سورية حين أحست بتعاظم خطرهم، فلم يجد الفقيد ضيراً في تولي المناصب التي عرضت عليه، فتولى أولاً إدارة المعرض السوري عام ستة وثلاثين وتسعمئة وألف وقضى في هذا المنصب زهاء ستة أشهر، وفي السنة التي تلتها سمي مديراً عاماً لوزارة العدل.

وبقيام الحرب العالمية الثانية عام تسعة وثلاثين وتسعمئة وألف وانقسام الفرنسيين بعد حين إلى فئتين احداهما توالي المحتلين الألمان والثانية تعاديهم أصبحت سورية وغيرها من مستعمرات فرنسا موضع نزاع بين هاتين الفئتين، وقد نال الفقيد أذى كثير من جراء هذا النزاع، فحين سيطر الفرنسيون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الفرنسيين الأحرار بقيادة الجنرال دوغول على بلاد الشام وزجوا أحرار البلاد في السجون والمعتقلات كان الفقيد واحداً من هؤلاء المعتقلين بسبب مواقفه الوطنية، فزج به أولاً في معتقل المية ومية جنوبي لبنان عام واحد وأربعين وتسعمئة وألف ثم نقل إلى سجن راشيا، ومن جراء تحديه لسجانيه

وإصراره على مواقفه الوطنية ورفضه مما لأتهم والإقرار بسلطانهم وإمعاناً في إيذائه نقلوه في سيارة مكشوفة إلى تدمر. وقد بقي في معتقله هذا إلى قبيل نهاية الحرب العالمية وطلائع العهد الاستقلالي في سورية عام ثلاثة وأربعين وتسعمئة وألف.

ويروي صديق الفقيد وزميله في المعتقل الاستاذ عبد الله القبرصي من أخباره في معتقل المية ومية ما يملأ النفس إعجاباً بإبائه وأنفته ومواقفه المتحدية وقدرته على احتمال الأذى وانصرافه إلى مسامرة رفاقه في المعتقل وإمتاعهم بأحاديثه ومروياته الأدبية، ومن حديثه عنه قوله: «وفي ناديه في المية وميه لم تكن السياسة وحدها شغلنا الشاغل أو صحتنا اليومي، فعارف النكدي موسوعة أدبية وتاريخية ولاهوتية فمن القهر والاحتمال والحرمان من أغلى نعم الحياة: ـــ الحرية ـــ كان يخلق أجواء الانشراح النفسي والفكري».

وما أن تولى الوطنيون إدارة مقاليد البلاد قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية ـــ وأقدام المستعمر لم تزايل بعد أرض الوطن ـــ حتى أعادوا النكدي إلى منصبه مديراً عاماً لوزارة العدل وظل يتولى هذا المنصب حتى أواسط عام ستة وأربعين وتسعمئة وألف.

وأثناء توليه هذا المنصب في سنة خمس وأربعين وتسعمئة وألف أوكلت إليه مهمتان: أولاهما: المديرية العامة للشرطة والأمن العام، وثانيهما المديرية العامة للاعاشة، وهي وزارة استحدثت في الحرب العالمية الثانية لضبط الأمور التموينية.

ويذكر أصدقاء الفقيد وعارفوه أنه حين تولى مديرية الشرطة والأمن العام كان مثالاً للصرامة والشدة وتحرّي النزاهة وقد انصرف إلى تنظيم أمور الشرطة ـــ صنيعه حين تولى القضاء ـــ فأحدث ما عرف بأقسام الشرطة في أحياء المدينة واختار لإدارة هذه الأقسام من عرفوا بالكفاية والحزم والنزاهة من رجال الشرطة. وروى أحد أصدقائه أنه ألف لجنة من خمسة أعضاء مهمتها إعداد قائمة بأسماء المرتشين والفاسدين من رجال الشرطة تمهيداً لتسريحهم ثم بلغه أن اللجنة التي اختارها ليست براء من تهمة الفساد فألحق أسماء أعضائها بالقائمة التي أعدتها.

وكانت صرامته المسرفة في ضبط شؤون الأمن وملاحقته من يعيثون فساداً في البلاد مدعاة لاصطدامه بأولي الأمور في بعض الأحيان.

وفي أول شهر آب عام ستة وأربعين وتسعمئة وألف سمي الفقيد رئيساً لمجلس شورى الدولة، وكان خلال توليه هذا المنصب حريصاً على إحقاق الحق وانصاف ذوي الظلامات ومحاسبة دوائر الدولة على ما ترتكب من أخطاء لدى إنفاذها الأنظمة والقوانين. وقد ظل الفقيد يشغل هذا المنصب حتى أواخر عام ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف حيث كانت بانتظار الفقيد مهمة أخرى على جانب كبير من الخطورة، فقد حدث يومذاك خطب جلل لم يكن ليتصدى له إلا النكدي، إذ نشبت في ذلك الوقت فتنة عارمة في جبل العرب سالت من جرائها الدماء واضطربت الأمور فلم يجد أولو الأمر خيراً من النكدي لإطفاء نار تلك الفتنة وإقرار الأمن في ربوع الجبل، فسمي محافظاً ونائباً للحاكم العسكري فيه، ومنح سلطاناً واسعاً للنهوض بهذا العبء.

قدم النكدي الجبل وهو يموج بالاضطراب فاستطاع بحنكته وحسن تدبيره إعادة الأمن إلى نصابه وإصلاح ذات البين، وقد أشاد المجاهد الكبير سلطان الأطرش في كلمته التي ألقاها يوم تأبين النكدي بأياديه في إطفاء نار الفتنة ورأب الصدع وإصلاح ذات البين بين الفرقاء المختصمين.

وإلى جانب اضطلاعه بهذه المهمة قام الفقيد بطائفة من الاصلاحات والمشروعات الاجتماعية فأنشأ في السويداء داراً لليتيم على غرار الدار التي أنشأها في عبيه. وقد ظل في منصبه هذا حتى أواسط أيلول عام تسعة وأربعين وتسعمئة وألف حيث أحيل إلى التقاعد بعد أن ذرّف على الستين لينهي بذلك مسيرته الخصبة في العمل الوظيفي.

•

لم يكن بلوغ النكدي سن التقاعد ليخمد نشاطه المتوقد ويجعله يخلد إلى الراحة والدعة فإن همم العظام لا تفلّ حدّها أعباء السنين، وكان للنكدي من همته المتوثبة ما يدفعه إلى مزيد من العمل ومزيد من العطاء.

وقد آثر الفقيد بعد إحالته إلى التقاعد أن يعود إلى وطنه الأصغر ليستقر في بلدته عبية، وقد امتدت هذه المرحلة الأخيرة من حياة الفقيد زهاء ربع قرن

حتى وافته المنية سنة خمس وسبعين وتسعمئة وألف. على أنه كان إبان هذه الحقبة الطويلة يختلف إلى دمشق لحضور جلسات المجمع واجتماعات لجانه، وكان يوافي مجلة المجمع بمقالاته على نحو متصل، وكان إلى ذلك يختلف إلى المناطق اللبنانية التي استقر فيها بنو معروف، يتفقد شؤونهم ويزودهم بنصائحه وتوجيهاته، وكان ربما يقع الخلف بينه وبين بعض رؤساء الطائفة أحياناً من جراء اختلاف نهجه عن نهجهم، وكان له مجلس في بيروت يغشاه مع لفيف من إخوانه يوم الاثنين من كل أسبوع في بيت المجاهد محمد علي الطاهر، وكان وجود التكدي في هذا المجلس يشيع فيه جواً ندياً يفوح فيه عبق الفكر والأدب والثقافة، كان القوم يتجاذبون الأحاديث الجادة في شتى الموضوعات، وكان الفقيد فارس الحلبة المجلي في امتاع الحضور بأحاديثه وطرائفه الأدبية. وكان إلى هذا كله يختلف بانتظام إلى دار الكتب الوطنية مطوفاً في شتى المراجع والمصادر. وكان في تلك الحقبة يشارك في عضوية لجنة التعريب في المجمع فكان همه البحث عن ألفاظ ومصطلحات للألفاظ الدخيلة في اللغة العربية.

على أن شغله الشاغل في تلك الحقبة كان العناية بأحوال قومه في عبيه وغيرها، وقد عني الفقيد عناية خاصة بالأيتام، وهذه العناية آية على ما كان ينطوي عليه من روح التعاطف الانساني مع من فقدوا عائلهم وذويهم. وقد رأيناه طوال حياته متعاطفاً مع المقهورين والمظلومين والضعفاء الذين ينالهم الضر من الأقوياء. وقد بدأت عنايته بالأيتام منذ عام تسعة وثلاثين وتسعمئة وألف حين أنشأ في عبيه داراً للأيتام سماها (بيت اليتيم) فلما استقر في عبيه أولى بيت اليتيم قسطاً كبيراً من عنايته وأدر عليه الأموال، ثم أنشأ بعد ذلك داراً لليتيم في بيروت وكان قد أنشأ كذلك داراً لليتيم في السويداء حين سمي محافظاً لجبل العرب ثم تخلى عنها فيما بعد للحكومة السورية. وعني إلى ذلك بالمنشآت التي كان يرعاها قبل مثل المدرسة الداودية للبنين والمدرسة الداودية للبنات في عبية — نسبة إلى داود باشا أول متصرف لجبل لبنان — والمدرسة المعنية المختلطة في بيروت، والوقف التنوخي ودار العجزة. وقد فصل زميله الأستاذ أمين

أبو عز الدين القول في هذه المنجزات في كلمته التي أرسلها إلى اللجنة التي عنيت بتكريم الفقيد وتأبينه.

ومن أجل العناية بأوقاف العشيرة أصدر النكدي بعد عودته إلى لبنان مطبوعة أسماها (الضحى) كان ينشر فيها كل ما يتصل بأوقاف قومه والمعونات والتبرعات التي كان يتلقاها فضلاً عن عنايتها بالجواب العلمية والاجتماعية.

وفي عام ثمانية وخمسين من هذا القرن تهب على منطقة الشوف رياح العنف ويذرّ النزاع الدموي قرنه بين أسرتين من بني معروف كانتا تتنازعان السلطة، فلا يقف الفقيد من هذا النزاع موقف المتفرج وإنما يبادر إلى إطفاء الفتنة ويعرض نفسه للقتل من أجل ذلك فيقف بين الفريقين المقتتلين ويناديهم قائلاً: «إذا أردتم استمرار القتال فعليكم أن تقتلوني أولاً وبعدها تواصلون قتالكم». ويكون لمبادرته الشجاعة أثرها في نفوس القوم فيتوقفون عن الاقتتال.

وعلى أثر وقوع الخلاف بين النكدي وبعض مشايخ قومه آثر التخلي للمجلس المذهبي عما كان يتولاه من الإشراف على أوقاف بني معروف ومدارسها، واكتفى بالإشراف على بيت اليتيم في عبية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي صباح الأحد الثالث والعشرين من شهر آذار عام خمسة وسبعين وتسعمئة وألف توفي النكدي ببيروت دون أن يلم به أي مرض، فقد ذكر من صحبوه في ساعاته الأخيرة أنه كان في اليوم السابق يؤدي واجبه الاجتماعي في بيت اليتيم وكان كعادته منتصب القامة مشرق الوجه ثابت الخطى. وكان قد قضى شطراً من الليلة السابقة لوفاته لدى أحد أقاربه، وكان حديثه شيقاً جذاباً كعادته، ومن هنا كانت المفاجأة مذهلة بوفاته صباح اليوم التالي وكان لنبأ وفاته أشد الوقع في نفوس ذويه وأصدقائه وعارفيه.

وعلى رغم أن الفقيد أوصى بأن تكون مراسم تشييعه بسيطة خالية من العويل والندب فقد أقيم له مأتم حافل في اليوم التالي لوفاته في بلدته عبية شارك فيه الألوف من المشيعين الذين قدموا من مختلف مناطق لبنان ومن بلاد الشام،

وبعد شهرين من وفاته في الخامس والعشرين من شهر أيار عام خمسة وسبعين وتسعمئة وألف أقيم له حفل تأبيني ضخم في عبية برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية الأستاذ سليمان فرنجية، وقد ألقيت في هذا الحفل عشرات من الكلمات في بيان مآثر الفقيد ومراحل حياته وآثاره. وقد شارك القطر السوري في هذا الحفل بكلمتين إحداهما باسم المجمع ألقاها الزميل المجمعي الدكتور عدنان الخطيب والثانية باسم وزارة العدل السورية ألقاها الأستاذ منير سلطان وكان يومئذ معاوناً لوزير العدل.

كان الفقيد قد كتب وصيته قبل وفاته بزمن، وفي شهر نيسان من عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف نشر جانباً منها يتصل بتشييع جثمانه والتصرف بأمواله في مجلة (الميثاق) وأحب أن أعيد على أسماعكم هذه الوصية لأنها تكشف عن جوانب من خلق الفقيد ومبادئه ونفوره من المظاهر الفارغة:

«قلنا لرجل تقدمت به السن: هل كتبت وصيتك؟».

قال: أيجوز للمؤمن أن يبيت ليلته إلا ووصيته تحت وسادته! لقد أوصيت وأنا في شرخ الشباب في الحادية والعشرين فكيف بي وقد خنقت الثمانين وأشرفت على التسعين! قلنا: وكيف أوصيت؟ إننا لا نسألك بم أوصيت من مال فهذا شأنك ولكن نريد أن نعرف ما يتعلق بالمراسم الاجتماعية والدينية وملابساتها، فلعله يكون بذلك أسوة لنا.

قال: هذا شيء خاص ارتضيته لنفسي ما أحسبكم تطيقونه.

قلنا: هات، ونحن نسمع ونرى.

قال: رأيت الناس تزعجهم هذه المناحات وأكثرها لا موجب له ينعى بشخص لا علاقة لهم به، وقد يكونون لا يعرفونه. يجيء من يجيء متكلفاً مكرهاً، ويعود متذمراً منزعجاً. هذا شيء لا أريده فلا أريد أن أنعى فأزعج الناس فمن جاء من ذات نفسه فله أجره.

قلنا: هذا صعب. قال: كل نفس وما اختارت. قلنا: وبعد. قال: وهذا الندب والصياح لا أحبه فلا أريده فجلال الموت بالصمت، وهذه التوابيت

الضخمة الفخمة التي تراد للأبهة والعظمة ولم يكن لنا بها عهد من قبل، إنها مظاهر فارغة لا تعجبني، بحسبي كفن ألف به أو تابوت عادي يصنعه نجار على ما كان يقع من قبل هذه السنوات الأخيرات.

قلنا: هذا قد يكون له وجه.

قال: وهذه (الترجومة) التي يسمونها صلاة وليست صلاة بل هي تأبين، تقوم على غير أساس من أسس المذهب، وفيها من المبالغات التي لا يستسيغها عقل ولا منطق لا تعجبني بل أنا أمقتها، وفي غنى عنها، وكان لها زمن وانقضى.

قلنا: وبعد. قال: يجمع ما كان ممكناً أن يصرف من مال ويضاف إليه مثله وينفق في سبيل من سبل الخير.

هذه وصيتي وهذا ما أريد وأشدد عليه راجياً العمل به تنفيذاً لرغبتي ووصية المرء مقدسة واجبة التنفيذ والتحقيق.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إذا وجد الشيخ في نفسه نشاطاً فذلك موت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج له لهب قبل أن ينطفي

شخصيته ومآثره

حين نحاول أن نستجلي السمات المميزة لشخصية فقيدنا النكدي فإن استعراض سيرة حياته قد أغنانا عن إطالة الحديث في هذه الجانب، فهذه السيرة تنطق بما جبل عليه الغائب الكبير من شمائل وخلال لا يتحلى بها إلا قلة من الناس، فهو رجل لا كالرجال، وقلما يجود الزمان بنظرائه، ولا أقول هذا من قبيل ذكر محاسن الموتى وإنما من قبيل الإقرار بالحق.

كانت للفقيد شخصية مسيطرة تأسر من يتصل بها من أصدقائه وخصومه على السواء، وكان يملأ قلوب القوم مهابة لشخصه وتقديراً لمكانته.

وكان أبرز ما يتسم به فقيدنا نشاطه الدائب وهمته المتوثبة وحيويته المتدفقة فكان طوال حياته المديدة شعلة متقدة من النشاط لم تنطفئ إلا بانطفاء حياته.

وعرف فيه أصدقاؤه ومعاصروه نزاهته النقية الصارمة فيما تولاه من أعمال يكون أربابها في العادة عرضة لإغراء الرشوة والطمع في الكسب غير المشروع، فظلت صحيفة عمله طوال حياته بيضاء نقية لا تشوبها شائبة.

وعرفوا فيه الغيرة على إحقاق الحق، والحرص على إقامة العدل وإنصاف ذوي الظلامات، ولا سيما إبان عمله في وزارة العدل، وقد عرضته هذه الخلال لمواقف صعبة وكان النكدي يخرج من هذا الامتحان ظافراً في جميع الأحوال. وكان يرفض بحزم ما يتوسل به بعضهم من صنوف الوساطة والشفاعة بغية وصولهم إلى منزلة لا يستحقونها.

وعرفوا فيه عروبة صادقة لا زيف فيها وشعوراً وطنياً مخلصاً لا وهن فيه. ولطالما حاول أرباب السلطان إغراءه بالتقرب إليهم بوسائل شتى فما أنجحت وسائلهم وعجموا عوده فألفوه صلب المراس لا تلين له شكيمة فانثنوا يائسين من قدرتهم على استمالته وجعله صنيعة لهم.

وقد جعله شعوره الوطني المتطرف يحجم عن حضور أي حفل يقيمه أولو السلطان يومئذ ويعرض نفسه من جراء ذلك لنقمتهم وبطشهم ولم يكن بريق المناصب الرفيعة ليغريه بممالأتهم أو يوهن من صلابة شعوره الوطني. وقد شهد له بذلك صديقه الشيخ طه الولي فقال في حفل تأبينه: «عندما كانت الوظيفة الحكومية شركاً يتصيد به الانتداب ضعفاء النفوس من أبناء البلاد لعزلهم عن الصف الوطني واستعمالهم أداة لتنفيذ مآربه الاستعمارية فإن عارفاً النكدي كان يستعصي على هذا الشرك ويرفض بكل إباء وشمم أن يكون مطية لاهواء السلطة الأجنبية وأغراضها السياسية.

وعرفوا فيه إلى ذلك كله تشبثاً عنيداً بالمبادئ والقيم التي يؤمن بها

وشجاعة وجرأة على مجابهة الخصوم وتحديهم قل أن يتوافر مثلهما في الرجال، وما استطاعت قوى خصومه من المستعمرين ومن حطب في حبلهم أن تثنيه عن القيام بما كانت تمليه عليه مبادئه أو تفلّ من غربه.

وبسبب من تشبثه بمبادئه وثباته على مواقفه حين كان يرى أنه على الحق لحق به أذى كثير وتعرض لهجمات شرسة ولكنه ما كان يبالي بذلك كله، حسبه أنه أراح ضميره وأدى ما يتوجب عليه. ومن المواقف التي تذكر له يوم كان يتولى إدارة وزارة العدل إصراره على تسريح جميع القضاة الذين ثبت عنده فساد ضمائرهم أو عدم كفايتهم القانونية، وقد أعد مشروع مرسوم بتسريحهم فرغب أولو الأمر يومئذ في الشفاعة لبعض من كان يلوذ بهم من القضاة ولكن النكدي أصر على توقيع المرسوم كما أعده أو يعتزل منصبه، واضطر المسؤولون أخيراً إلى إصدار المرسوم كما أعده بعد أن أخفقت جميع المحاولات في ثنيه عن موقفه وإلانة عوده الصلب.

وعرفوا فيه قدرته العجيبة على احتمال المكاره والصبر على الشدائد. والذين زاملوه في معتقله لم يملكوا أنفسهم من الاعجاب بروحه العالية يومئذ وصبره على الأذى وسوء المعاملة وقسوة السجانين وقد أعانته هذه الخلال على أن يحيل المعتقل إلى منتدى أدبي ومجالس للسمر والمنادمة.

وعرفوا فيه فضلاً عما ذكرت الحدب على المستضعفين واليتامى والبر بالأسرة والقوم، ودور الأيتام والعجزة التي أنشأها في لبنان وسورية شاهد على تعاطفه مع من فقدوا ذويهم وعلى من أقعدتهم السن والمرض عن مزاولة عمل يرتزقون منه.

وعرفوا فيه كذلك إيثار الجد على الهزل فما كان يجنح إلى المزاح والدعابة إلا في نادر الأحوال، وغاية ما كانت الدعابة تحمله عليه الابتسامة الخفيفة. ولا يذكر أحد من عارفيه أنه رآه ضاحكاً في مجلس من مجالسه، حتى حين يكون بين أهله وخاصة صحبه. ويذكر صديقه طه الولي أنه حاول ذات يوم مباسطته

في موضوع لا يحتمل المزاح، فقال له النكدي: «يا شيخ طه، أعرض عن هذا فإني لا أقبل الجد في معرض المزاح ولا المزاح في معرض الجد».

ويتصل بهذه الخلة كراهيته المسرفة للنفاق والمراءاة، وكان في سريرته وعلانيته سواء، وكان صريحاً يجهر بما يراه ولا يبالي بموقع كلامه من نفوس القوم، وكان لذلك يكره المنافقين والمرائين، وينفر من مجالستهم ويوجه إليهم لاذع القول ويحذر الناس من صحبتهم.

وكان همه طوال حياته السعي وراء الحقيقة وطلبها في مختلف مظانها سواء أكانت حقيقة تاريخية أم دينية. ويشهد له تلميذه الأستاذ شفيق يحيى بأن الساعين وراء الحقائق التاريخية كانوا كثيراً ما يأتونه ليسألوه رأيه في بعض أحداث التاريخ، فكانوا يكتشفون خطأهم في معظم ما كانوا يحملونه من نظرات وآراء.

وبسبب من حرصه على الحقيقة كان يكره الانحياز إلى رأي قبل أن يتحقق من صحته ولا يحكم على صواب رأي أو خطئه إلا بعد أن يمتحنه ويتفحصه بدقة. يروي الأستاذ شفيق يحيى أن الفقيد لمس يوماً من أحد أصدقائه تحيزاً شديداً لبعض القوم فقال له: «أريدك قاضياً لا محامياً، قاضياً تنصف الفريقين لا محامياً يتخذ جانب فريق واحد إلا إذا تأكدت أن هذا الجانب على حق».

وكان النكدي شديد الاعتزاز بكرامته أبياً شامخ النفس عيافاً للضيم يأبى أن يريق ماء وجهه على أعتاب أولي السلطان فإذا حاول أحد مهما تبلغ منزلته النيل من كرامته غضب أشد الغضب ورد على الإهانة أعنف رد. وكلمة عارضة كانت خليقة بأن تحيله من إنسان وديع لطيف إلى ليث عبوس متوثب للانقضاض والفتك. فكان القوم لذلك يتحامون التعرض له والإقدام على أمر من شأنه أن يثير غضبه.

أما شغفه بالتزود من ألوان المعرفة فأمر لفت نظر جميع أصحابه فكان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتاب خير جليس له ، وما كان يمل مطالعة الكتب والرجوع إلى مختلف مناهل العلم ، وكان لا يزال يوصي قومه بالسير في هذه الطريق ويحثهم على طلب العلم والتزود بالمعرفة فهي الطريق المثلى لتكوين المواطن السوي الخليق بالاحترام ، وقد رأيناه ينشئ العديد من المدارس لنشر العلم بين أبناء عشيرته .

فإذا شئنا أن نتحدث عن مآثره يوم تولى القضاء والعمل الإداري فسنرى أننا بإزاء رجل يمثل الرجولة بأسمى ما فيها في حقبة عز فيها الرجال والتحف جل العاملين في القضاء والإدارة بثوب الخنوع والمداهنة والممالأة للسلطة القائمة . أما فقيدنا فقد وجد فيه القوم الإداري الحازم الذي لا يحابي ولا ينتقص حقاً ولا يغمض العين عن فساد أو تهاون ، ووجدوا فيه كذلك رجل القضاء النزيه الصارم الذي لا يحيد عما يراه حقاً حتى لو اضطر إلى مجابهة أولي السلطان ، ولم يكن يحفل بالتهديد والوعيد ولم يكن كذلك ممن تستهويهم أساليب الترغيب والإغراء بالمناصب الرفيعة . كان فوق هذا كله . همه توخي العدل وإحقاق الحق واستقامة الجادة وتطهير السلك القضائي والإداري من الفاسدين والمرتشين . وقد سرد الأستاذ منير سلطان في كلمته التي ألقاها في حفل تكريمه طائفة من مآثره يوم تولى القضاء بإقصائه نفراً من القضاة الذين لا يحوزون المؤهلات التي ينبغي أن يتحلى بها القضاة واستبداله بهم طائفة من الشبان المؤهلين وإصراره على تسريح القضاة غير الكفاة رغم الشفاعات والوساطات واصطدامه بالسلطة المنتدبة في مناسبات كثيرة من جراء إصراره على سلامة القضاء ونزاهته وتطهيره من الشوائب .

وإلى جانب هذا كله كان التكدي يولي الخدمات الاجتماعية جانباً من وقته، وكان همه الأول منصرفاً إلى العناية باليتامى فأنشأ بيت اليتيم في كل من بيروت وعبية والسويداء . وهذه العناية تظهرنا على جانب من جوانب شخصية الفقيد يبعث على الدهشة وينافي صورته التي انطبعت في نفوس القوم ، فهو عند عامة الناس ذلك الصارم الحازم العنيف في محاسبة المقصرين والفاسدين ، ولكن كان في قلب الفقيد حيز تملأه الرحمة والعطف والحدب على المستضعفين

واليتامى والمعوزين. فكذلك كان النكدي يجمع في خلقه ما يبدو أنه لون من التناقض، يجمع الصرامة والشدة إلى الرحمة والرأفة وتلك أخلاق الرجل الحق: يلين في موضع اللين ويشتد في موضع الشدة.

آثــاره

بعد هذه الإلمامة بسيرة الفقيد وملامح شخصيته أقف وقفة قصيرة أعرف فيها بأبرز آثاره في شتى المجالات التي خاضها.

إن آثار الفقيد تنيف على مائة وسبعين بين كتاب ومقالة وتعريف بكتب ونقد، وقد نشر جل مقالاته في مجلة المجمع، ويمكن النظر في هذه الآثار من خلال الأطر التي تنتظمها وهي:

١ ـــ أبحاث في الأدب والنقد والتراجم الأدبية.
٢ ـــ أبحاث في التاريخ والتراجم التاريخية.
٣ ـــ أبحاث في علم الاجتماع والاقتصاد.
٤ ـــ مباحث في اللغة والنحو والإملاء.
٥ ـــ أبحاث قانونية وشرعية.
٦ ـــ مقالات سياسية وقومية.
٧ ـــ مقالات في موضوعات شتى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن استعراض هذه الأطر ينبئنا بتنوع اهتمامات الفقيد ومعارفه ولم يكن انصرافه إلى دراسة القانون ليحول دون ارتياده مناهل أخرى تروي ظمأه إلى المعرفة المتشعبة الآفاق، فقد كان الفقيد طلعة مشبعاً بنهم ثقافي يدفعه إلى إخصاب زاده الثقافي بمطالعة شتى الكتب التي تقع تحت يده. وهذه المطالعة الدائبة جعلته قادراً على إصدار الأحكام النقدية وهي لا تتناول الآثار القانونية وحدها بل تجاوزها إلى المؤلفات الأدبية والتاريخية والقومية وغيرها. وقلما كان يخلو عدد من أعداد مجلة المجمع من مقالة له يعرف فيها بكتاب قرأه ثم يثبت ما يبدو له من آراء حوله. وحين تولى لجنة المصطلحات في المجمع ازدادت عنايته

باللغة ووجه همه إلى إيجاد المصطلحات الجديدة وتصحيح بعض الأخطاء اللغوية الشائعة.

وإن الوقوف عند كل أثر من آثاره أمر من الصعوبة بمكان لما ذكرته من كثرة ما كتبه من مقالات وأبحاث، ولكنني سأنتهج نهجاً انتقائياً في بيان بعض نظراته ومواقفه الفكرية من خلال ما كتبه.

ففي محاضرته التي تناول فيها العامية والفصحى ومقالاته حول الموضوع عينه (مجلة المجمع الأعداد: ٣٢، ٣٥، ٤٤) يؤكد الفقيد على المقولة التي تجعل اللغة أبرز مقومات وحدة الأمة، ويرفض ما تذهب إليه بعض النظريات الغالية التي تقيم وحدة الأمة على صفاء العرق ووحدة الدم، ويقول في هذا: «فليس في الأمم أمة يجمعها الدم الواحد وإنما هي جماعات جمعتها اللغة الواحدة» ويعرض إلى أسباب تسرب اللحن والخطأ إلى اللغة العربية الفصحى، وهذا الفساد أدى على الزمن إلى نشوء لغتين متمايزتين: العربية الفصحى والعامية، وهي مشكلة لغوية وقومية في آن واحد. وهو يرد رداً عنيفاً مفحماً على من يحاولون احلال العامية محل الفصحى ويناقش هذا الموضوع مناقشة علمية مستفيضة، ويبين خطر هذه الدعوة الشعوبية على وحدة الأمة وبناء قوميتها، ويأتي ببعض المقترحات في محاولة التقريب بين اللغتين وطريق النهوض بمستوى العامية، ويؤكد على المهمة المنوطة بالمجامع اللغوية لتحقيق النهوض بهذا العبء، وهو يدحض ما يشيعه بعض الشعوبيين من أن العربية لغة بالغة الصعوبة ولا يتسنى تعلمها إلا بشق الأنفس فيورد أقوالاً لطائفة من المستشرقين في الثناء على اللغة العربية وتأكيد سهولة قواعدها وانضباطها. ومنهم الباحث الفرنسي مارسيه الذي يقول: «من السهل جداً تعلم أصول اللغة العربية، فقواعدها التي تظهر معقدة لأول نظرة هي قياسية ومضبوطة على نحو عجيب يكاد لا يصدق. فذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيلها في أشهر قليلة وبجهد معتدل، إن الفعل العربي هو لعبة أطفال إذا ما قيس بالفعل اليوناني أو بالفعل الفرنسي. وتقول الدكتورة آنا ماري شيمل: «اللغة العربية لغة موسيقية للغاية ولا أستطيع أن أقول فيها إلا أنها لا بد أن تكون لغة أهل الجنة».

وفي مقالاته التي تناولت الإملاء العربي (مجلة المجمع العددان: ٣٦ و٣٨) يبدو الفقيد حريصاً على الحفاظ على قواعد الإملاء التي أقرها الأقدمون ولا يرى ضرورة لتغييرها أو تبسيطها فهي قواعد واضحة مبسطة لا عسر في تطبيقها، ومن ذلك قواعد كتابة الهمزة وكتابة الألف اللينة مثلاً، وهو يرى أن البحث في تسهيل الإملاء العربي يعد من أغرب الأمور وأبعدها عن خدمة اللغة العربية، ولو قسنا إملاء لغتنا بإملاء بعض اللغات الأجنبية لوجدنا أن الضوابط الإملائية في لغتنا أسهل منها في أي لغة أخرى.

ومن أبحاثه التي تناولت الجوانب القومية محاضرته التي ألقاها في مؤتمر المحامين العرب المعقود بدمشق عام أربعة وأربعين وتسعمئة وألف (نشرت في مجلة المجمع المجلد ٢٠ سنة ١٩٤٥) وتناولت موضوعات ثلاثة هي: العنصر العربي ــ القضاء اللبناني ــ الشرع الإسلامي.

وفي كلمته هذه يجعل الفقيد اللغة أوكد الأواصر التي يقوم عليها بناء القومية، والناس عنده للغتهم أكثر مما هم لآبائهم، ويستشهد بقول الرسول عليه السلام: «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم وإنما هو اللسان، من تكلم العربية فهو عربي». ولكنه يضيف إلى عامل اللغة العوامل الأخرى في بناء الصرح القومي وهي: وحدة الجنس والدم، وهي وحدة تصدق على الكثرة من أبناء العروبة، ثم التاريخ المشترك، والحضارة المشتركة، ووحدة الأماني والأهداف والآمال والآلام عبر مسيرة العرب التاريخية الطويلة، وأخيراً المصلحة المشتركة التي تربط أقطار العروبة بعضها ببعض. وهو يرد على القائلين بفرعونية مصر وفينيقية لبنان بالإشارة إلى كثرة القبائل العربية التي استوطنت هذين القطرين وكان لها الفضل في إعطائهما وجهاً عربياً ناصعاً.

ومن أبحاثه التاريخية محاضرته التي ألقاها في بهو المجمع بدمشق عام تسعة وعشرين وتسعمئة وألف وعنوانها: «الأندلس، عبرة وذكرى» وفي مستهل هذه المحاضرة صور ما يعتمل في صدره من انفعالات كلما راوده طيف الأندلس، ثم تحدث بإيجاز عما حققه العرب من مستوى حضاري رفيع في ذلك القطر

وما كان لحضارتهم تلك من امتدادات وأصداء في حضارة الغرب، وانتقل بعدئذ إلى تلخيص تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي حتى أفول شمس الحكم العربي وانحسارها عن ذلك القطر.

ومن أبحاثه القانونية محاضرته التي جعل عنوانها: القضاء في الإسلام (ألقاها في بهو المجمع في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٢١). وقد تناول في هذه المحاضرة أولاً دواعي بحثه هذا الموضوع، ثم وقف عند نقطة هامة، هي مدى تأثر النظم القضائية الإسلامية بالتشريع القضائي الروماني، وقد أثبت بالحجة الدامغة أن الشريعة الرومانية لم يكن لها أي أثر سواء في نشأة القضاء في الإسلام أو في التشريع القضائي الإسلامي، وقد يكون العكس أدنى إلى الصحة، والقضاء الإسلامي له روافد معروفة استمد منها شرائعه ونظمه تلك هي الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

ثم عرض بعدئذ إلى القضاء في العصر الجاهلي وقيام الحكام عصرئذ بالحكومة بين المتخاصمين استناداً إلى الأعراف السائدة. وكان الحكام يتصفون برجاحة العقل وسداد الرأي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلما جاء الإسلام دعت الحاجة إلى اختيار قضاة ينظـــرون في الخصومات، وكان عمر أول من سمى رجالاً من المسلمين لتولي القضاء وجرى من بعده على سنته. وكان القضاة يستندون في أحكامهم إلى الكتاب في أول الأمر، وبعد نمو علم الفقه استندوا إلى الأصول الأربعة المعروفة.

وكان أتقياء المسلمين يتحامون تولي القضاء لتبعاته الثقال، وكانوا ربما تعرضوا للنكال والبطش بسبب امتناعهم من تولي هذا المنصب. وكان للقضاء آدابه وشروطه التي لا تتوافر إلا في قلة من خيار المسلمين. وقد عرف القضاة في العصور الأولى بنزاهتهم وصرامتهم وتحريهم العدالة، وكانت للقاضي منزلة عظيمة لدى أرباب السلطان ولدى عامة الناس، وكثيراً ما كانوا يقضون لإنسان لا شأن له على الخليفة أو الوالي فيجوز حكمهم ولا يعترضون عليه.

وتناول الفقيد بعد ذلك الرواتب التي كان يتقاضاها القضاة في الإسلام والشهادة وشروطها، وبين أوجه الاتفاق بين القضاء في العصر الحديث والقضاء في الإسلام في طائفة من الإجراءات القضائية والتشريعات وأنواع الجرائم وعقوباتها. فليس التشريع القضائي الحديث مبايناً في جله لما كان عليه القضاء في الإسلام على رغم استمداد التشريع الحديث من النظم القضائية الغربية.

وأقف أخيراً عند محاضرته القومية حول الوحدة العربية التي ألقاها في مؤتمر اللغة العربية في القاهرة عام واحد وستين وتسعمئة وألف. (نشرت في مجموعة البحوث والمحاضرات للمؤتمر).

في كلمته هذه يؤكد الفقيد المقولة التي تجعل اللغة أولى دعائم القومية، بل هو يجمع بينهما ويجعل كلاً منهما رديفة للأخرى، فكما أن وحدة الأمة تعضد لغتها وترتقي بها، فكذلك اللغة توحد أبناء الأمة، وهي تنوب مناب وحدة الدم التي لم تعد ممكنة بعدما وقع بين الشعوب والأمم من اختلاط وتشابك في الأرحام والأنساب. واستشهد في تأييد هذا الرأي بقول الرسول عليه السلام: «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم، إنما هو اللسان، من تكلم العربية فهو عربي».

ومن هنا نجد الاستعمار يوجه همه إلى القضاء على لغات الأمم التي سيطر عليها، لأن اللغة هي مفتاح الاستقلال لكل أمة.

وقد ألقى الفقيد محاضرته في ظل الوحدة التي قامت بين القطرين المصري والسوري عام ثمانية وخمسين من هذا القرن. ومن هنا فهو يتساءل: ترى هل الوحدة العربية بدعة قامت على نزعة جامحة أو أنها حقيقة تاريخية ثابتة؟ ويجيب عن هذا التساؤل بقوله إن الوحدة العربية «هي الحقيقة التاريخية والأمل المنشود، قضى في سبيلها من قضى وصلب من صلب واستشهد من استشهد وعيناه شاخصتان إليها، مطمئن قلبه أنها آتية لا ريب فيها».

ثم يعدد بعد ذلك مقومات هذه الوحدة فيقول: «إنها الحقيقة لا خيال

فيها ، قامت على وحدة الأصل ، ووحدة اللغة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة الأدب ، ووحدة الاشتراع. ووحدة السياسة والإدارة ، ووحدة الرأي والمبدأ ، ووحدة العقيدة والإيمان ، ووحدة المصالح والأهداف . هي الرغبة في أن نعيش أمة واحدة في وطن واحد ، إلا من أضله الله وما له من هاد » .

ويروح الفقيد يستعرض بعد هذا بعض ما قاله مفكرو الفرنجة والعرب في تكوين الأمم ومقومات الأمة ويرصد مظاهر الوحدة في الوطن العربي الكبير .

ثم يتساءل : ما دامت هذه الأواصر القوية بين شعوب الوطن العربي قائمة فما الذي يحول دون قيام وحدتها المنشودة؟

ويجيب عن هذا التساؤل بأن يجعل العائق دون قيامها أمرين : أولهما : الاستعمار وثانيهما : الاستئثار . ويعرف الاستئثار بأنه استخدام المستعمر لنفر من أبناء البلاد من ضعاف النفوس ، يتخذهم صنائع له ويسلطهم على الوطنيين لينفذوا سياسته ويحققوا مأربه .

ARCHIVE

وسياسة المستعمر تقوم على مبدأ : فرق تسد ، فهو لذلك لا يني يوجه همه إلى تمزيق الوشائج التي تربط بين أبناء الأمة الواحدة فيجعلهم شيعاً ويبث بينهم الأحقاد والضغائن ليحول دون توحد كلمتهم . ويأتي الفقيد بأمثلة من التاريخ تعضد قوله .

وهو ينظر نظرة متفائلة إلى مستقبل الأمة العربية ويرى أنّ الوحدة آتية لا محالة مهما تقف في وجهها الصعاب والعقاب .

ويحلل أخيراً بواعث قيام الوحدة الثنائية بين سورية ومصر ويبين حاجة كل منهما إلى الأخرى ويختم محاضرته ببيان التبعات الملقاة على رجال العلم للنهوض باللغة العربية التي هي أبرز المقومات في وحدة الأمة .

هذا استعراض سريع لمراحل حياة الفقيد وسيرته وآثاره أتيت به وفاء لذكراه وجليل مكانته . رحم الله الفقيد ، فقد كان رجلاً لا كالرجال يصدق فيه

قول الشاعر:

هيهات أن يأتي الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لضنين

•••

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتب والمجلات المهداة
لمكتبة مجمع اللغة العربية خلال الربع الثاني من عام ١٩٨٩

وفاء تقي الدين ـ غزوة بدير

آ ـ الكتب العربية

ـ **الاتجاهات التعصبية** ـ د. معتز سيد عبد الله، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، رمضان ١٤٠٩هـ، أيار ١٩٨٩م.

ـ **أدب الرحلات** ـ د. حسين محمد فهيم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، شوال ١٤٠٩هـ، حزيران ١٩٨٩م.

ـ **أغاني أمير عربي**، مختارات من شعر أبي فراس الحمداني ـ اختارها وترجمها إلى الإنكليزية الدكتور محمود إبراهيم ـ عمان ١٩٨٨م.

ـ **بينما أرقد محتضرة** ـ وبليام فوكنر، ترجمة توفيق الأسدي ـ منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨م.

ـ **التآمر ضد العرب** ـ أناتولي أجاريشيف، ترجمة الدكتور فهدكم نقش ـ موسكو ١٩٨٨م.

ـ **التكملة وشرح الأبيات المشكلة من ديوان أبي الطيب المتنبي ـ الجزء الأول** ـ أبو علي الحسين بن عبيد الله الصقلي المغربي، تحقيق الدكتور أنور أبو سويلم ـ عمان ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.

ـ **خصاص في الجنوب، حيرة في الشمال، تشخيص وعلاج** ـ أكاديمية المملكة المغربية ـ طنجة، شعبان ١٤٠٨هـ.

— **دليل المترجم مع دراسات في اللغة ونظريات الترجمة**— وحدة الترجمة العربية، اليونيدو— فيينا، ١٩٨٤م.

— **ديوان الباهلي محمد بن حازم، تكملة وإصلاح**— محمد خير البقاعي— مستلة من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٣٤— شوال ١٤٠٨هـ، حزيران ١٩٨٨م.

— **الرسائل القشيرية**— أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق الدكتور (فيز) محمد حسن— المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية— كراتشي ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

— **سنوات بلا قرار**— الدكتور محمد الفرا— القاهرة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

— **العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى**— الدكتور عبد المالك مرتاض— الجزائر ١٩٨١م.

— **عشت مع هؤلاء الأعلام**— عبد الله يوركي حلاق— هدية مجلة الضاد، حلب ١٩٨٨م.

— **العقد النفسية**— روجر موشيلي، ترجمة وجيه أسعد— منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥م.

— **معجم الألفاظ والمصطلحات المعربة، الجزء الأول**— إعداد عبد الجبار الآلوسي، الدكتور أحمد محمد الشحاذ، باقر جواد محمد، عبد الحق أحمد محمد، كمال رفيق الجراح، الدكتور طه محسن عبد الرحمن، الدكتور عبد الباقي محمود— بغداد ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

— **معجم المصطلحات الطبية، الجزء الأول**— مجمع اللغة العربية بمصر، وضع لجنة المصطلحات الطبية، القاهرة ١٩٨٥م.

— **ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت**— الفقيه يوسف بن عابد الإدريسي الحسني الفاسي، تحقيق الدكتور أمين توفيق الطيبي— الدار البيضاء ١٩٨٨م.

— **المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، الجزء الأول**— انتقاه وقدم له وعلق حواشيه ووضع فهارسه الدكتور يوسف القرضاوي، قطر ١٩٨٦م.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

— **نسب معد واليمن الكبير لابن الكلبي هشام بن محمد السائب، الجزء الثاني** — تحقيق محمود فردوس العظم — دمشق.

— **النهر الفاصل** — نغوجي وائيونغو — ترجمة عبد الله صخي، سلسلة روايات عالمية، ١٩، دمشق ١٩٨٨م.

— **اليابانيون** — تأليف أدوين رايشاور، ترجمة ليلى الجبالي، مراجعة شوقي جلال — المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت — شعبان ١٤٠٩هـ، نيسان ١٩٨٩م.

ب — المجلات العربية

— الحوليات الأثرية العربية السورية	٣٦، ٣٧	١٩٨٦ — ١٩٨٧	دمشق
— المعرفة	٣١٤ — ٣١٥	١٩٨٩	دمشق
— المجلة البطريركية	٨٤ — ٨٥، ٨٦	١٩٨٩	دمشق
— مجلة جامعة دمشق	١٢	١٩٨٧	دمشق
— مجلة جامعة دمشق	١٣	١٩٨٨	دمشق
— المجلة الطبية العربية	٩٦	١٩٨٧	دمشق
— نهج الإسلام	٣٥، ٣٦	١٩٨٩	دمشق
— صوت المعلمين	١١٤	١٩٨٩	دمشق
— النشرة الفصلية للكتب العلمية في مركز الدراسات والبحوث العلمية	٥٢	١٩٨٨	دمشق
— النشرة الاقتصادية لغرفة تجارة دمشق	٢	١٩٨٩	دمشق
— صوت فلسطين	٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩	١٩٨٩	دمشق
— الضاد	١، ٢ — ٣، ٤، ٥	١٩٨٩	حلب
— مجلة بحوث جامعة حلب	١٠، ١١	١٩٨٧	حلب
— آفاق علمية	١٩، ٢٠	١٩٨٩	الأردن
— اليرموك	٢٦	١٩٨٩	الأردن
— مآب	١	١٩٨٩	الأردن
— نشرة مكتبة مجمع اللغة العربية الأردني	١٠	١٩٨٩	الأردن
— مجلة مجمع اللغة العربية الأردني	٣٥	١٩٨٨	الأردن
— دراسات	٨، ٩، ١٠	١٩٨٨	الأردن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ مؤتة للبحوث والدراسات	٢	١٩٨٨	الأردن
ـ المنتدى	٦٧	١٩٨٩	الأمارات العربية المتحدة
ـ الحياة الثقافية	٥٢	١٩٨٩	تونس
ـ حوليات الجامعة التونسية	٢٨، ٢٩	١٩٨٨	تونس
ـ الثقافة	١٠١	١٩٨٨	الجزائر
ـ البيليوغرافيا الجزائرية	٤٧، ٤٨	١٩٨٨	الجزائر
ـ الدارة	٤	١٩٨٩	السعودية
ـ الفيصل	١٤٨، ١٤٩، ١٥١	١٩٨٩	السعودية
ـ العرب	٧، ٨	١٩٨٩	السعودية
ـ مجلة بحوث علوم الحياة	٣	١٩٨٨	العراق
ـ التربية	٨٩، ٩٠	١٩٨٩	قطر
ـ أخبار التراث الإسلامي	١٦	١٩٨٨	الكويت
ـ أخبار التراث الإسلامي	١٧	١٩٨٩	الكويت
ـ أخبار التراث العربي	٣٨	١٩٨٨	الكويت
ـ حوليات كلية الآداب	٥٥، ٥٦	١٩٨٧ ـ ١٩٨٨	الكويت
ـ حوليات كلية الآداب	٦٣	١٩٨٨ ـ ١٩٨٩	الكويت
ـ الموسم	٢، ٣	١٩٨٩	لبنان
ـ مجلة كلية الآداب والتربية	١٥	١٩٨٦	ليبيا
ـ مجلة البحوث التاريخية	١	١٩٨٨	ليبيا
ـ رسالة اليونسكو	٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣١	١٩٨٨	مصر
ـ رسالة اليونسكو	٣٣٢، ٣٣٣	١٩٨٩	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	٢	١٩٦٩	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	٣	١٩٧٠	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	٤	١٩٧١	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	٥	١٩٧٢	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	٧	١٩٧٤	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	٨	١٩٧٥	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	١٠	١٩٧٧	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	١١	١٩٧٨	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	١٢	١٩٧٨	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	١٣	١٩٨١	مصر
ـ المجلة الجغرافية العربية	١٤	١٩٨٢	مصر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـــ المجلة الجغرافية العربية	١٥	١٩٨٣	مصر
ـــ المجلة الجغرافية العربية	١٦	١٩٨٤	مصر
ـــ المجلة الجغرافية العربية	١٧	١٩٨٥	مصر
ـــ المجلة الجغرافية العربية	١٨	١٩٨٦	مصر
ـــ المجلة الجغرافية العربية	١٩	١٩٨٧	مصر
ـــ مجلة كلية الآداب	٣٨، ٣٩	١٩٨٤	مصر
ـــ مجلة كلية الآداب	٤٤، ٤٥	١٩٨٧	مصر
ـــ مجلة كلية الآداب	٤٦، ٤٧، ٤٨	١٩٨٨	مصر
ـــ المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية	١١٦، ١١٧، ١١٨	١٩٨٨	مصر
ـــ العلم والمجتمع	٧٠، ٧١، ٧٢	١٩٨٨	مصر
ـــ ديوجين	٨١	١٩٨٨	مصر
ـــ دعوة الحق	٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢	١٩٨٨	المغرب
ـــ دعوة الحق	٢٧٣، ٢٧٤	١٩٨٩	المغرب
ـــ الوحدة	٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧	١٩٨٩	المغرب
ـــ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية	٣، ٤	١٩٨٨	المغرب
ـــ دراسات	٣	١٩٨٨	المغرب
ـــ الثقافة الإسلامية	٢٣، ٢٤	١٩٨٩	إيران
ـــ المنهل	٣، ٤	١٩٨٩	إيران
ـــ الدراسات الإسلامية	٤	١٩٨٨	الباكستان
ـــ الدراسات الإسلامية	١	١٩٨٩	الباكستان
ـــ النشرة الإخبارية	١٩	١٩٨٨	تركيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جـ ـ الكتب والمجلات باللغات الأخرى

L'Opinion Publique Internationale et le Probleme de l'unité Nationale et Politique des Roumains, Stefan Pascus. C. Gh. Marinescu, România, 1988.

- La nuit Sacrée, Tahar Ben jelloun, Paris, 1987.
- La Nouvelle Internationale, 4,5,6,7,8, 1989.
- Coree, 3,4,5,6,8, 1989.
- La Chine, 12, 1988.
- La Chine, 1,2,3, 1989.

- Le Muséon, 93, 1980.
- Le Muséon, 94, 1981.
- Le Muséon, 95, 1982.
- Le Muséon, 96, 1983.
- Le Muséon, 97, 1984.
- Le Muséon, 98, 1985.
- Le Muséon, 99, 1986.
- Le Muséon, 100, 1987.
- Le Muséon, 101, 1988.
- Le Muséon, 102, 1989.
- Studia Islamica, LXIX.
- Studia Albanica, 2, 1988.
- Comptes Rendus de l'Académie Bulgare des Sciences, 3,4,5,6, 1989.

●●●

- Educating Disabled People for the 21st Century, Edward J. Cain, Jr. Florence M. Taber, U.S.A. 1987.
- Teachers for Tomorrow, Terry O'Banion, U.S.A.
- Schools Abroad of Interest to Americans, Anne Maher, U.S.A., 1975.
- Secondary Schools Today: Readings for Educators, Frederick R. Smith, R. Bruce Mc Quigg, U.S.A.
- Literature in the Language Classroom, Joanne Collie, Stephen Slater, U.S.A., 1987.
- The Immortal Woman Revolutionary, Kim Ik Hyon, Korea, 1987.
- In the Flames of War, Korea, 1988.
- Kim Il Sung: Biography (I), Baik Bong, Lebanon, 1973.
- Nine Essays of al. Jahiz, William M. Hutchins U.S.A., 1989.
- The Inalienable Rights of the Palestinian People, Malta, 1985.
- Johrei: Divine Light of Salvation. Mokichi Okada, Japan, 1984.
- Proceedings of the Seventh Saudi Medical Meeting, Dammam, 1982.
- Islamic Studies, 1. 1989.
- The Muslim World, 3-4, 1988.
- The Muslim World, 1, 1989.
- Science in China, 1,2,3, 1989.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- Abstracts of Bulgarian Scientific Medical Literature, XXXI, 1988.
- Peasant Studies, 2,3,4, 1988.
- Durham University Journal, 2, 1989.
- Journal of Asian and African Studies, 36, 1988.
- Iranian Studies, 1,2, 1988.
- Hamdard Islamicus, 4, 1988.
- Hamdard Islamicus, 1,2, 1989.
- East Asian Review, 1,2, 1989.
- Western Humanities Review, 3,4, 1988.
- Studies in Islam, 1-2, 3, 1982.
- World Link, 3,4,5,6, 1989.
- Korea, 4,5,6,8, 1989.

●●●

- Die Festung des Glaubens, Tilman, Nagel, München, 1988.
- Testimonianze Fenicio- Puniche A Oristano, Sabantio Moscati, Roma, 1988.
- Dualismo Sud- Nord E. Migrazioni, Giuseppe de Meo, Roma, 1988.
- Arimanno da Brescia, Legato Pontificio in Italia Settentrionale alla Fine del Secolo XI, Fabrizio Foggi, Roma, 1988.
- Contributi Alla Storia di Malta Dall'Età Araba, Salvatore Candido, Roma, 1988.
- L'Heroon di Dexileos Nel Ceramico di Atene, Serena Ensoli, Roma, 1987.
- Il Sikhismo: La Religione dei Divini Maestri, Enzo Turbiani, Roma, 1987.
- Iliria, 2, 1987.
- Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt, Universität Zu Berlin, 1,2,3,4,5,6, 1989.
- Studime Historike, 3,4, 1988.
- Studime Filologjike, 2,3, 1988.
- Gjuha Jonë, 3,4, 1988.
- Gjuha Jonë, 1, 1989.
- Boletin de la Academia Argentina de Letras, LII, 1988.
- Boletin de la Asociacion Español de Orientalistas, XXIV, 1988.
- Memorüle Seçtülor Ştüntigice, IV, 1984.

- Memorüe Dectülor Ştüntifice, IV, 1986.
- Ata Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, 3, 1987.
- Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, 1, 1988.
- Atti della Accademia Nazionale dei Lincei, XXX, 1987.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com